



أئمة الشر

الإخوان والشيعة أمة تلعب في الخفاء

ثروت الخرباوي



الإخوان والشيعة
أمة تلعب في الخفاء

تأليف

ثروت الخرباوي



العنوان:

أئمـــة الشـــر

الإخوان والشيعة أمة تلعب في الخفاء

تأليف:

ثروت الخرباوي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-4603-3
رقـم الإيـداع: 16258 / 2013
الطبعة الأولـى: سبتـمبـر 2013

تليفـون: 33466434 - 33472864 - 02
فاكـس: 33462576 - 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

أئمـــة الشـــر

مقدمة

كان لا بـد أن نفتـح هـذا الملـف لنعرف أمـور الشر المخفيـة التي ارتدت ثياب الدين، ومن المهم أن نشـير أننا لا ننعـي على فهم الإخوان للدين، فهم وشـأنهم، كل إنسان بفهمه يفرح، كما أننا لا ننعي على الشيعة فهمهم للدين، فـكل طائفة بمعتقدها تمـرح، لا تثريب عليهم هنا أو هناك، ولكننا ننعي على أولئك وهؤلاء اسـتغلال الدين لتحقيق مآرب سياسـية دنيوية، ننعي عليهم الوقوع في فخ الغرب الاسـتعماري، ننقم عليهم تسـييس دينهم وجعله حزبًا ومشروعًـا يدخـل في صراع مـع باقـي المسـلمين ليتحكموا هـم بذواتهم في الأمـة، ولو كان عـن طريق الغصب والإرهاب والتحالـف مع أئمة الشر في العالم، حينئذ يتحولون هم من دعاة إلى أئمة شر يتشابهون في المشارب مع من تحالفوا معه .

كما أنني لا أعمم في الحكم أو التحليل فأضع كل الإخوان في إناء واحد، وأضـع كل الشـيعة في بوتقـة واحـدة، ولكننـي أتحدث عـن أئمتهـم الذين يقودونهـم فهـم في تقديري أئمة شر، أمـا الأتباع فمعظمهـم يتحرك بدوافع مشاعرية مخلصة حتى ولو كانت خاطئة؛ لذلك فإن كتابي يتحدث عن الأئمة لا الأتباع، القادة لا الجنود، أولئك الذين ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ .

وهذا الكتاب لم أهتم بتوجيهه إلى الرأي العام فقط، ولكنني حرصت على أن يكون رسالة لقواعد الإخوان وعموم الشيعة، لعل كلمتي تصل إليهم، فيعرف من جهل، وتنتظم عقيدة من شط وجنح، وحين أكتب كلماتي هنا أعلم علم اليقين أنها قد لا تكون ذات أثر كبير، ولكنني أتمنى أن تكون لبنة ولو صغيرة في بناء يجب أن نقيمه لترشيد مواقفنا وأفكارنا والبعد بها عن الجنوح .

■ ■ ■

تقديم

يبدو أن موقف جماعة الإخوان من إيران ملتبس بعض الشيء، فكما يعرف الجميع فإن الإخوان الآن جماعة وحزب وحكومة ونظام - سقط في مصر في 30 يونيو عام 2013 - وقد يمارس الإخوان وفقًا لقواعد السياسة لعبة توزيع الأدوار بين الحزب والجماعة، وقد يزيد الأمر التباسًا أن جيل الإخوان الأول كان موقفه إيجابيًّا من إيران وكان يسعى للتقريب بين السنة والشيعة، في حين أن الصورة الظاهرية لغير المتعمق في الفكر الباطني للإخوان توحي أن الجيل الحالي يقف موقف المعارض لأي تقارب مع إيران الشيعية، وإذ وصل الإخوان إلى الحكم في مصر فإن تلبيس إبليس سيكون هينًا بجانب التباس الإخوان.

في تاريخ الإخوان نلمح طيف الشيخ حسن البنا المرشد الأول للجماعة أو مرشد البناء كما يطلقون عليه وهو يشد الرحال نحو التقارب بين السنة والشيعة، ونرى عن بعد لقاءً جمعه بالشاب - وقتها - الخميني، حين زار الخميني مصر في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين، كان حلم البنا الأكبر هو توحيد المسلمين تحت راية واحدة، على أن يكون هو الإمام والخليفة والحاكم، وأن تكون جماعة الإخوان هي سيدة العالم، كانت أمنيته إذن أن يجمع الله - الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا، ولكن ليس كل ما

يتمنـاه البنا يدركه، فرغم محاولاته ومحـاولات آخرين غيره فقد ظلت الفرقة وظل الخلاف سـواء من الناحية العقائدية أو من الناحية السياسية، وخلاف ألـف وأربعمائة عام لا يمكن أن تمحوه الأحـلام والأمنيات ولا حتى العمل الدءوب ولو لمائة عام، إلا أن الأمل ظل باقيًا في نفوس الجيل الذي تعلم من البنا وتلقى منه وعرف منهجه وسَبَرَ غَوْرَه.

انتقـل فكـر التقريب إلى الأسـتاذ عمر التلمسـاني رحمـه الله، حين أصبح التلمسـاني المرشـد الثالث للجماعة كانت خريطة الدنيا على وشك أن تتغير، وبعد ثلاث سنوات مِنْ توليه موقع المرشد قامت الثورة الإسلامية في إيران، وأذكر حين كنا طلبة بالجامعة ننتظم في سـلك الجماعة الإسـلامية التي كانت تسـيطر عليها أفكار الإخوان، أو على وجه الدقة كنا من المقربين من الجماعة الإسـلامية، وبالتالي من قـادة الإخوان وقتها أن ارتفعت مشـاعرنا إلى عنان السـماء، حين قامت الثورة الإسـلامية في إيران، ورغـم فرحتنا الفياضة التي كانـت تعتمد على المشـاعر في المقام الأول تحركت جماعـة الإخوان بشيء من الهدوء نحو الثورة الإسـلامية الكبرى والتي تعتبر فاتحة الثورات في الشرق، وإن تأخرنا نحن في ثوراتنا إلا أن ذلك كان بسبب تأخرنا كأهل سُنّة في الفقه السـياسي، كان هدوء حركـة الإخوان نحو ثورة إيـران في بدايتها هو الهدوء المحسـوب حتـى يتبين لهـا الخيط الأبيض من الخيط الأسـود مـن فجر ثورة إيران، فالرئيس السـادات لم يكن مرحبًا بهـذه الثورة، ثم سرعان ما تفككت الخطـوات الإخوانيـة البطيئة وتسـارعت بعض الشيء حين رحبـت بالثورة الإسـلامية وبقائدها آية الله الخميني، فقد أعطت تلك الثورة الثقة للإخوان أنهم قد يسـتطيعون إسقاط نظام الحكم في مصر وإنهاء حكم العسكر، وشاء

الله بعد أكثر من ثلاثين سنة أن تقوم الثورة المصرية بسواعد الشباب والكبار، وبعد أن اتضح للإخوان نجاحها انضموا إليها فيما يسمى في عالم السياسة في العصر الحديث (ركوب الثورات والاستيلاء عليها).

نترك هموم ثورتنا الحالية لنتكلم عن هموم الماضي وهموم المستقبل، يخبرنا الأستاذ يوسف ندا بأن وفدًا من الإخوان ذهب إلى إيران لتوجيه التهنئة لهم بالثورة، وبغض النظر عما حدث وعن كيفية استقبال الإيرانيين للإخوان إلا أن هذه الخطوة كانت إشارة لرغبة الإخوان في تفعيل علاقتها بإيران ذات الثورة الإسلامية، ولكن بعد اغتيال الرئيس أنور السادات عام 1981 اضطر الإخوان إلى التمهل، فجريمة قتل السادات كانت جريمة مرتكبة من فصيل إسلامي ، وكانت البلاد بعدها تسير في خطى متزايدة نحو مواجهة إرهاب تستر بالدين وحمل السلاح، وفي أوقات الأزمات الضخمة يكون شعار الإخوان هو (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة) ولاشك أن ذكر إيران والإخوان في هذا الوقت كان من شأنه أن يثير زوابع وعواصف ضد الجماعة التي من باب الحفاظ على كيانها تؤثر السلامة في بعض الأحيان.

وفي يناير من عام 1982 صرح الأستاذ عمر التلمساني - رحمه الله - لمجلة «المصور» بـ : «أننا - أي الإخوان - أيدنا الخميني سياسيًا لأن الثورة ساعدت شعبًا مقموعًا على التخلص من حاكم مستبد واسترداد حريتهم، ولكن من وجهة النظر الفقهية فإن المذهب السني شيء والمذهب الشيعي شيء آخر» كان الأستاذ التلمساني يعرف حساسية الأمر بالنسبة للحكومة المصرية؛ لذلك لم يرد أن يزعجها فأرسل في النصف الأول من تصريحه رسالة لإيران مفادها «نحن معكم لا عليكم أيها الأحباب ولو من باب

السياسة والحرية»، ثم أرسل في النصف الثاني من تصريحه رسالة أخرى إلى أهل الحكم في مصر مفادها «نحن أهل سُنَّة ونختلف عن هؤلاء الشيعة ونخالفهم» ، لذلك استمر منهج الإخوان الداعي إلى التقريب وهو منهج من تلقى على حسن البنا، واستمرت الجماعة بمعاييرها الأصلية – في انتقاد الخلافات الطائفية بين الشيعة والسُّنّة.

في هذه الآونة كتب الأستاذ التلمساني في مجلة «الدعوة» مقالة توضح سعي الإخوان نحو التقريب المذهبي الذي سيؤدي حتمًا إلى التقارب السياسي فقال: إن التقريب بين المذهب السني والمذهب الشيعي يعد الآن مهمة ملحة للفقهاء، وأضاف قائلًا في ذات المقالة «إن الاتصالات بين الإخوان المسلمين ورجال الدين الإيرانيين لم يكن الهدف منهاأن يعتنق الشيعيون المذهب السني ولكن الهدف الأساسي الالتزام برسالة الإسلام في توحيد الفرق الإسلامية والتقريب بينها بقدر المستطاع». ولا أعلم أن أحدًا ممن عاصروا البنا من الإخوان قد شذ عن هذا الفهم؛ ولذلك استمر هذا التراث التقريبي في نفوس شيوخ الإخوان أصحاب الرعيل الأول رغم اتساع رقعة الخلاف بين مصر وإيران، فإيران التي كانت تكره السادات كراهية التحريم أطلقت على أكبر ميادينها اسم (خالد الإسلامبولي) وقد صاحب هذا أن اتسعت أطماع إيران في التسيد على المنطقة، في الوقت الذي لم تملك فيه السياسة المصرية إلا الغيرة بعد أن تقلص دورها الإقليمي مع الوهدات التي قذفنا فيها نظام حكم عقيم.

ومن جانب آخر كانت جماعة الإخوان أمرًا ضروريًّا في السياسة الإيرانية، فالإخوان ظهروا بصورة البوابة التي سيدخل منها النظام الإيراني إلى المنطقة،

ويومًا ما قد يحكم الإخوان ،وأهل إيران من دهاة السياسة، لذلك عكفوا على دراسة جماعة الإخوان وتاريخها وأفكارها، ولعل أهم الدراسات التي كتبها الباحثون الإيرانيون عن الإخوان هو كتاب «إيران والإخوان المسلمين» للباحث الإيراني عباس خامه يار، وقد - تناول في كتابه هذا بالتفصيل العلاقات بين إيران وجماعة الإخوان المسلمين قبل ثورة الخميني وبعدها .

وفي النصف الأخير من حكم مبارك العقيم تحرر الإخوان نوعًا ما وخرجوا من قوقعة الحذر، فكانت تصريحات وحوارات يوسف ندا والتي تحدث فيها عن الشيعة وقام بتوصيف الخلاف بيننا وبينهم من الناحية العقائدية على أنه خلاف فرعي من الممكن أن نتجاوز عنه من أجل المصالح العليا، وبذلك نفى يوسف ندا الخلاف العقائدي وتوالت تصريحاته بأن خلاف السنة والشيعة هو خلاف سياسي، وقبل هذه التصريحات كانت تصريحات الأستاذ مهدي عاكف المرشد السابق للجماعة والتي عبر من خلالها عن عدم ممانعته للمد الشيعي في البلاد العربية والسنية، قائلًا إنها لن تكون ذات تأثير ملحوظ لأنها بلد واحد وسط دائرة شديدة الاتساع من البلاد السنية، ولكن هل أتت هذه المحاولات التقريبية - ولو من الناحية السياسية - على هوى الإخوان الجدد؟ لم يكن الأمر رومانسيًا أو عاطفيًا بل كان دراميًا كأشد ما تكون الدراما، فالأخ الجديد ابن سيد قطب الفكري، محمود غزلان، صهر خيرت الشاطر، لم يرق له تصريحات والده التنظيمي الأستاذ يوسف ندا، فأرغى وأزبد ، وهاجم الأستاذ يوسف ندا ولم يوقره، ويبدو أنه لم يتحرك من ذاته ولكن كان هناك من يحركه ويحدد مساره، وبذلك اتضحت الصورة، فريق من الإخوان يرحب بالتقارب مع إيران وهو فريق العجائز، وفريق من

الإخوان الجدد الذي يكفر الشيعة ويفسق من يتعامل معهم، وبعد حين ظهر أن هذا الخلاف مفتعل وسيكشف الكتاب اللثام عن هذا الافتعال.

ومع ذلك فإن الصورة ليست بهذه البساطة، والمعايير التي ستحدد سياسة الإخوان ليست هي المشاعر أو الخلافات العقائدية، فالمسألة أكبر من ذلك، ففي عام 1982 أطلق الأستاذ مهدي عاكف المرشد السابق للإخوان - وقت أن كان مسئولًا مع الحاج مصطفى مشهور عن تكوين التنظيم الدولي - عدة تصريحات أثارت قدرًا من الاستياء عند حسني مبارك إذ قال في مقابلة له مع وكالة الأنباء الإيرانية بأن الإخوان يؤيدون أفكار ومفاهيم الجمهورية الإسلامية، كان المقصود طبعًا من تصريحه هو أن الجماعة تؤيد الثورة الإيرانية والسياسة الخارجية لإيران، وقد وضح هذا عندما استرسل قائلًا: إن أفكار آية الله الخميني خصوصًا فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية هي امتداد لتوجه الإخوان نحو مكافحة الاحتلال.

ولا أظن أن هذا التصريح كان عشوائيًا، إذ إن جماعة الإخوان كانت قد بدأت مع الثورة الإيرانية في تكوين تنظيم لها هناك، تنظيم الإخوان في إيران، وقد أطلقت جماعة الإخوان في إيران على نفسها اسم (جماعة الدعوة والإصلاح) وأصبح هذا التنظيم جزءًا من التنظيم الدولي للجماعة وإن ادعى أنه يحمل استقلالية عن الجماعة الأم في مصر، وبسبب فطنة الإيرانيين ودهاء قادة الإخوان هناك لم يلفت تنظيمهم نظر أحد في العالم العربي أو الإسلامي لأنه كان يدير نفسه بذكاء وحرص، فلم يسع إلى الاستعراض أو الاصطدام بالنظام الإيراني أو محاولة هدم ثوابت الدولة الإيرانية ولم يسع إلى الدعوة للمذهب السني، فقد كان هذا من الخطوط الحمراء التي لم

يتجاوزهـا الإخوان هناك وإن قام فرع الإخوان هناك بدور كبير في التقارب بين الحكومات الإيرانية وجماعة الإخوان في مصر.

تأسسـت جماعة الإخوان في إيران عام 1979 على يد مجموعة من الدعاة السـنيين المتأثريـن بالحركة الإسـلامية في مصر والدارسـين لحركـة الإخوان وتاريخها وكان إعجاب من أسسوها بجماعة الإخوان قد بلغ حدًّا كبيرًا حتى إن معظم أفكارهم أخذوها من رسـائل الشـهيد حسـن البنا، وقد كان منهم الشـيخ ناصر سـبحاني رحمـه الله أحد علماء السـنة في إيـران؛ ولذلك أخذت جماعة الإخوان هناك طابعًا علميًّا وكانت حركتها، وما زالت، تتسم بالهدوء والحـذر، فهم يعملون في وسـط مجتمع شـيعي، ورغم أنهـم لم يحصلوا هناك على رخصة قانونية فإنهم يعملون وفقا لسياسـة الضوء الأخضر، أما المراقب الحـالي لجماعـة الإخوان هنـاك - وهو منصـب يقابل منصب المرشـد - فهو الأسـتاذ «عبد الرحمـن بيراني» والذي يمارس دورًا كبـيرًا في إدارة دفة إخوان إيران.

قطـار الإخـوان والشـيعة يسـير بسرعة يبتغـي الوصـول إلى محطة تمكين الإخـوان، وتمكـين إيـران، بمسـاعدة الأمريـكان، في إحـدى اللوغارتمات السياسية المعقدة التي سنحاول فك طلاسمها في هذا الكتاب.

■ ■ ■

حاشية الكتاب

كان الصبي حسن مندفعًا ناحية المعرفة، قال في مذكراته: «ظللت حتى السابعة عشرة دارسًا وباحثًا في المعرفة» وذات يوم وعندما شب عن الطوق وأصبح شابًا يافعًا تقابل مع أحد العلماء فجلس عليه واتخذه أستاذًا له، يسمع منه تفسير القرآن ويتلقى منه ما لديه من علم، ثم التقى بمعلم آخر وضع له معالم الطريق، وفي الإسماعيلية حط رحاله، ويبدو أنها تركت أثرًا كبيرًا في نفسه، إذ بعدها قام بتأسيس جماعته، كان يطلق على رفاقه في الجماعة «الإخوة» أخذ يعلمهم، ويربيهم، لم يكن مهتمًا بتأليف الكتب ولكنه كان مهتمًا بتأليف الرجال..

ظل يجوب البلاد لينشر دعوته، فقد كان يسمي طريقته وطريقة أتباعه بـ «الدعوة» ثم كان أن أنشأ مقرًّا دائما للدعوة، كان الشيخ حسن صاحب قدرة خطابية رائعة، وكان يملك قدرًا كبيرًا من التأثير على أتباعه، ومع ذلك فقد وضع لهم أسس العمل معه، وكان الأساس الأول هو الطاعة والثقة، وقد أقنعهم بأن طريقه هو طريق الحق، وطوَّع آيات القرآن لتتوافق مع أفكاره، ولمنطقه العذب وحلو حديثه أقنعهم أن طاعته هي السبيل الوحيد لدخولهم الجنة.

كتب الشيخ حسن مجموعة من الرسائل، وأرسل الدعاة إلى البلاد

والأمصار لينشروا دعوته، فقد كان كل همه كسب أنصار جدد، إلا أنه أدرك أن طريق الدعوة وحدها لن يساعده كثيرًا، فالحق الذي يراه لن يحكم إلا إذا كانت هناك قوة تحميه، لذلك أنشأ نظامًا خاصًا، أخذ أفراد هذا النظام يتدربون بجدية على القتال حتى أصبحوا ماهرين فيه، ثم تحركت كتيبة الاغتيالات هذه فقتلت عددًا كبيرًا من الأفراد والمسئولين، وكان من قتلاهم رئيسًا للوزراء، وسيق أحد القتلة ويدعى طاهر إلى السجن ثم إلى ساحة الإعدام حيث تم القصاص منه.

استطاع الشيخ حسن بوسائل عديدة تغييب عقل أتباع جماعته، فاعتبروه إمامًا ملهمًا لا يقترب الخطأ منه أبدًا، وعندما مات بكوا عليه وأسرفوا في البكاء، ومن بعد موته استمروا في سياسة الاغتيالات فتعقبهم الحكام ووقفوا ضدهم.

الشخص الذي كنت أتحدث عنه في هذه الحاشية ليس حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان، ذلك أنني كنت أتحدث عن شخص آخر جاء في زمن آخر ودنيا أخرى، هو الشيعي الشهير «حسن بن علي بن محمد الصباح» وهو إسماعيلي المذهب، وقد كان منتميًا في صغره كأهله للإثني عشرية، ثم تقابل مع شيخين كبيرين فأقنعاه بأن يحط رحاله في المذهب الإسماعيلي، فتفقه فيه، ثم أنشأ جماعته «جماعة الدعوة» التي عُرفت تاريخيًا باسم «الحشاشين» ومنها أنشأ فرقة الاغتيالات التي قامت باغتيال الكثيرين، كان منهم الوزير نظام الملك السلجوقي الذي كان بمثابة كبير للوزراء وبالمعنى الحديث «رئيس وزراء».

ثم إنني لست صاحب هذه المقاربة، ولكن صاحبها هو سيد قطب!! حيث روى عنه في مذكراته «المستشار الدمرداش العقالي» القصة الآتية: (كان سيد قطب خال زوجتي آمنة نصير، وهو من قرية موشى التابعة لأحد مراكز محافظة أسيوط، وكان أحمد محمد موسى ابن شقيقته وشقيق زوجتي من أتباع حسن البنا وأحد المنخرطين فى صفوف الإخوان المسلمين، وكان سيد قطب إذا جاء إلى قريته والتقى مع ابن شقيقته الإخواني ومعه عدد كبير من رفاقه أتباع حسن البنا، كان يكثر من سباب حسن البنا أمامهم، وفي بعض المرات سمعته يسأل ابن أخته هذا: «ماذا فعل بك حسن الصباح وجماعة الحشاشين؟!».

كان سيد قطب كثيرًا ما يعقد مقارنات بين جماعة الإخوان المسلمين، وجماعة «الحشاشين» الشهيرة الذين كان يتزعمهم «حسن الصباح» والذي كان سيد قطب يرى- في ذلك الوقت من أواسط الأربعينيات- شبهًا كبيرًا بينه وبين حسن البنا زعيم الإخوان المسلمين، فكان ابن أخته حين يسمع خاله سيد قطب يقول ذلك عن جماعته وزعيمها، يدخل في شجار عنيف معه، لم يكن ينتهي إلا بتدخلنا لإنهائه) .

هذه المقاربة تلفت الأنظار، لا شك في ذلك، ولكنها توقعنا في حيرة بسبب هذا التقارب الكبير، سيقول بعضنا إن التاريخ يكرر نفسه، ولكن البعض سيقول إن التاريخ لا يكرر نفسه ولكننا نكرره في أنفسنا.

■ ■ ■

الفصل الأول

Why not?

(أشـهر مـرابٍ في التاريخ هو اليهودي «شـيلوك» الذي رسـم شكسـبير شـخصيته في مسرحيـة «تاجـر البندقيـة» كان شـيلوك يقرض النـاس بالربا الباهظ، ولكنه كان يكره تاجرًا شريفًا يمارس تجارته بشرف، وإذ وقع التاجر الشريف الطيب «أنطونيو» في ضائقة مالية اضطر إلى اللجوء لشيلوك الكريه حتـى يقترض منـه مبلغًا كبيرًا، وحين مد يده إلى شـيلوك قال له: أنا أكرهك وأعـرف أنـك خبيث، لك أن تفرض ما تشـاء من فوائد ربويـة على القرض مهـما كانت قيمتها، فهناك بعض السُفن سـتأتي في المسـاء محملـة ببضائع لي، ساعتئذ سأسدد لك القرض بفائدته، ولكن شيلوك فكر في الانتقام، فأقرض التاجر الشريف أنطونيو بلا فائدة على الإطلاق، ولكنه اشترط عليه أن يوقع عقدًا معه عند المحامي، يسمح فيه بأن يقتطع شيلوك من جسد أنطونيو رطلًا من اللحم من المكان الذي يختاره ذلك المرابي الشـيطان إذا لم يقم بالسـداد في الميعـاد المتفق عليـه، ووقـع أنطونيو البائس على العقد، وكان من سـوء حظه أنه لم يسـتطع سـداد الدين في الموعـد، فقد جاءت له الأنبـاء الحزينة تخبره أن سـفنه غرقت، يا لها من نكبة! وجاء وقت القصاص، ورفع شيلوك الشيطان قضيته أمام «الدوق» يطلب اقتطاع رطل اللحم - محل الاتفاق - من جسـد

أنطونيـو، لم تنته القصة عند هذا الحد، فشكسـبير هو «فارس الحكمة» ولديه القدرة على تغيير دفة الحوادث، فعندما تأزمت القصة، وصار أمرًا مقضيًّا أن يهلك التاجر الطيب أنطونيو لا محالة، ظهرت زوجة صديق «أنطونيو» الوفي وتنكـرت في ثياب الرجال، وارتدت روب المحاماة، وترافعت عن أنطونيو، واسـتطاعت إنقاذه، فقد اسـتفادت مـن ثغرة في العقد دلفـت منها إلى حكم الـبراءة، حيـث إن العقد نص على حق شـيلوك في قطع رطـل اللحم، ولكن لم يـرد فيه حق شـيلوك في إراقـة دم أنطونيو، فقالت له وهـي متخفية في زي المحامـي: خـذ رطلًا من لحمـه دون أن تريق دمه وإلا عوقبـت وفقًا لقوانين مدينـة البندقية، وسـتكون عقوبتك القتل ومصادرة أموالك، فأسـقط في يد شيلوك، ونجا أنطونيو من مؤامرته).

■ ■ ■

ضاق الشـعب ذرعًا بهذا الحاكم الغبني المتغطرس، يا له من حاكم مستبد جهول،أغلـق أذنيـه جيـدًا فلـم يسـمع صيحـات الشـعب وآلامـه، ظن أن جهازه الأمني المنيع سـيحميه «فليصرخ من يريد الصراخ، ولينفعل من يريد الانفعال، فقد خلق الله لي أذنًا من طين وأخرى من عجين» هكذا كان لسـان حال هذا الحاكم الطاغية، ومع إحساسـه بقوته راهن على أمريكا ورئيسـها، أمريكا معي حيثما أكون، وأينما تكون مصلحتي فثم وجه أمريكا «لقد تلقيت وعودًا منهم بحمايتي وحماية نظامي كله» كان هذا الوعد طبيعيا ومنطقيا،فهو حليفهـم القوي في المنطقة، وهو أيضا أحد الكنوز الاسـتراتيجية لإسرائيل، فكيف يفرطون فيه؟!

اندلعت الحوادث تترى في البلاد، كان بعضها بسبب سوء الإدارة والفساد، وكان البعض الآخر بفعل فاعل، حرائق، كوارث، المئات يموتون حرقًا في حوادث مفجعة، والضحايا يسقطون وهم مخضبون بالدماء، يشتكون إلى الله هذا الحاكم وأعوانه، والمسئولية التي من المفترض أن تكون في رقبة هذا الطاغية المتبلد لا تحرك ضميره، يبدو أن السنوات الطويلة التي قضاها جالسًا متيبسًا على كرسي الحكم جعلت من جسده جدارًا عازلًا يفصل بين قلبه وشعبه، فهو ذلك الرجل خالي البال الذي لا يهتم، ينام ملء جفونه وشعبه يتحطم، أما هو ففي النعيم يقيم، وكيف لمن كان في النعيم أن يطرف له جفن؟ الحكم من بعده سيئول إلى ابنه لا شك في ذلك، أمريكا العظمى وعدته بهذا، مسئول الأمن القومي بتلك الدولة العظمى قابله في اجتماع خاص بنيويورك، كان معهما في اللقاء الرئيس الأمريكي، وقتها قال له ذلك الرجل المتحكم في أمن العالم: أمنك وسلامتك علينا، أعدك بأن ابنك سيكون خليفتك في الحكم، نحن نضع الآن تصورًا لكيفية تلك الخلافة، الأفضل أن تكون في حياتك، لأنك إذا ما مت لا قدر الله فلن يسمح العسكر بتولية ابنك وسينقضون عليه، كما أن الشعب لا يتقبل توريث الحكم لابنك، سيحتاج هذا الأمر إلى جهود مضنية، ولكننا سننجح.

ظهر من حوارهم أن أمريكا عارفة ما يحدث داخل البلاد، ولكنها لا تعيرها التفاتًا، «مصلحتنا أن تظل في الحكم، فأنت أفضل من يرعى مصالحنا» كانت هذه هي كلمات الرئيس الأمريكي له، ولكن سقف المعارضة ارتفع في البلاد بشكل غير مسبوق، - ظهرت الحركات الاحتجاجية في البلاد، ولكن لا ضير فكل الأمور تحت السيطرة: «لدينا جهاز أمني لا مثيل له»

كان مجرد ذكر هذا الجهاز الأمني - يثير الخوف والرعب في النفوس، كانت هذه الأجهزة تستخدم التعذيب المفرط وهي تستجوب المتهمين السياسيين، حتى أن البعض كان يسقط قتيلًا من جراء التعذيب، وقتها كان من السهل تلفيق التقارير الطبية التي تسند الوفاة لسبب آخر غير التعذيب، ورغم الخوف والرعب الذي سيطر على قطاع كبير من الشعب فقد امتلك البعض الشجاعة والقدرة على التضحية، استمر سقف المعارضة في الارتفاع، بدأت الطبقة المتوسطة تخرج من مكامنها في مظاهرات احتجاجية على تلك الوهدة التي وقعت فيها البلاد سياسيًّا واقتصاديًّا وأمنيًّا، كان الليبراليون والعلمانيون والطلبة هم الوقود الذي أجج حالة الغضب، يا له من حاكم كنود ذلك الذي لا يبالي بالبطالة والتضخم واستشراء الفساد، ولا يلتفت لغضبة شعبه، إن الشعوب إذا غضبت خرجت، وإذا خرجت سقطت الأنظمة، لن تنفعه أمريكا، ولن تبكي عليه.

أما المفاجأة الكبرى فهي أن يد أمريكا لم تكن بعيدة عن تلك الاحتجاجات التي حدثت في البلاد، أمريكا التي تساعد الحاكم وتدعمه، بل ظلت تدعمه عمره كله، فجأة ترتب للإطاحة به!! - يا الله ما الذي يحدث في هذا الكون؟ ما هذا العالم الغريب!! في السياسة قد يستعصي الفهم في بعض الأحايين، وفي السياسة أيضًا قد لا تكون الصورة الخارجية هي الصورة الحقيقية، فللحقيقة أحيانًا أكثر من وجه، وقد تكون كل الوجوه زائفة ما عدا الوجه الخفي الذي لا يراه أحد، الثورة قادمة قادمة، وإذا لم يكن من الثورة بد فمن الغباء أن تكون أمريكا بعيدة عنها.

قبل الثورة بأعوام قليلة بدأت أمريكا في تقديم يد المعاونة لبعض الحركات

الاحتجاجية،كانت هذه المعاونة تتم في الخفاء، كل شيء في الخفاء، بعيدًا عن العيـون، حتى عن عيون بعض الكبار في البيت الأبيض، هذا نظام سيسـقط حقًّا، كل علوم السياسـة والاجتماع تؤكـد ذلك، وقد كان للخطايا التي وقع فيهـا «الطاغية» أكبر الأثر في دفع الأمور ناحية الحافة، هذه هي منظمة العفو الدوليـة «التابعـة أصلًا للأجهـزة المخابراتية البريطانية» تضـع التقارير التي تدين إهدار هذا الحاكم الطاغية لحقوق الإنسـان، والنظام الأمريكي يهتم - ظاهرًا - بهذه الحقوق، ويتحدث كثيرًا عن الديمقراطية، والتداول السـلمي للسـلطة، اللسـان الأمريكي بارع في الكلام عن الحقوق، والنظام الأمريكي بارع في هضم هذه الحقوق! أمريكا أمة التناقضات.

كانت تقارير «العفو الدولية» بمثابة حجر ثقيل، أمسكته جهات أمريكية كثـيرة وأخـذت تلوح به في وجـه هذا الحاكم المسـتبد، بـدأت الأصوات في أمريـكا ترتفع: كيف لأمريكا راعية الحريات أن تدعم هذا الطاغية؟! ولكن الرسـائل السرية التي كان يرسـلها كبير مستشـاري الأمن القومي في أمريكا لهـذا الحاكـم كانـت مطمئنـة: «لا تجزع نحـن معـك، تلك الأصـوات التي تهاجمـك في الإعـلام الأمريكي لا تسـتهدف شـيئًا إلا الرأي العـام فقط، إلا أن الناخب الأمريكي في النهاية معنا في سياسـة دعمك لأننا كتبنا من خلال رجالنـا في الصحافة، وتحدثنا من خلال رجالنا في الإعلام المرئي، أن بديلك هم الجماعات الإسلامية المتطرفة».

هـدأ بـال الحاكـم وقر عينـا بهذا الـذكاء الأمريكـي في معالجـة الحوادث والأحداث، وزاد هدوء باله عندما قرأ التقارير التي قدمتها له جهاته الأمنية: «الأمور مسـتقرة ولا تهديد للحكم، هذه المعارضـة ما هي إلا مجموعة قليلة

ليس لها أي تأثير» ولكن الحاكم الذي ظن أنه فهم السياسة الأمريكية أوصى رجالـه وإعلامه بتصدير صـورة معينة، ليس القصد أن يتـم تصدير الصورة للشـعب في الداخـل - فالشـعب لا يهمه في شيء - ولكـن النظام الأمريكي كان هو مقصده: «أمريكا لا تحب الإسلاميين، هل هناك من يشك في ذلك؟! قولـوا إن البديـل لي هم تلـك الجماعات المتطرفـة، اكتبوا هـذا في كل مكان، واتركوا لهؤلاء الإسـلاميين مسـاحة صغيرة للحركة، يجـب أن تعلم أمريكا يقينًا أن مصالح إسرائيل مهددة، إذا ما وصل هؤلاء إلى الحكم (تكون الطامة كـبرى حين يظـن الغبي أنه ذكـي، هل هذا رأيـك أيها الطاغيـة؟» أمريكا لا تحب الإسـلاميين!! والإسـلاميون يهددون مصالح إسرائيل!! يا أخي يجب أن تعلـم أن كل شيء تحت السـيطرة،الآن ثبت عليك قول الشـاعر: يقولون هذا عندنا رأي.. ومن أنتم حتى يكون لكم رأي!».

الأمـور في أمريـكا مختلفة عـن الذي يـدور في ذهن البسـطاء، فقد كانت هنـاك ثمـة اتصالات بالإسـلاميين تجـري في الخفـاء، لا شيء في العلن أبدًا! وفي دائـرة «البيـت الأبيـض» كانت هناك قلـة هم من علموا بالاسـتراتيجية الكامنـة وراء اتصـالات المخابـرات الأمريكيـة المسـتمرة برموز إسـلامية، أعلاهـم هو ذلك الرجل صاحب اللحية البيضاء والذي سيصبح المرشد فيما بعد، كانت المعلومات سرية للغاية وليس من المقدر أن تصل هذه المعلومات لكل رجال السياسـة في إدارة الحكم، إذ كانت قاصرة على الرئيس الأمريكي وعـدد محـدود مـن المخابـرات، ففي أروقـة المخابـرات لا تقـدم المعلومات إلاعلى أسـاس«المعرفة عـلى قدرالحاجة» وعلى ذلـك أدى بعض الموظفين في درجـات عادية لـدى وزارة الخارجيـة، والبنتاجون، والمخابـرات المركزية،

عملهـم في إطارمن السريـة الجزئيـة أو التامة،وصلتهم التقاريـر الطبية التي تفيـد أن الطاغية – كما كانوا يطلقون عليه – مريض بالسرطان، وأن جسـده منهـك بفعـل المرض، وأن الذي يبقيـه على قيد الحياة الرعايـة الطبية الكبيرة التـي يلقاها، الآن يجب ترتيب الأمـور ليصل إلى الحكم حليف آخر، حليف سـيبدو مـن صورته الظاهـرة أنه من خصـوم أمريكا، ومن أعـداء إسرائيل، ولكن لا شيء في السياسـة محرم، والضرورات تبيح المحظورات، فلتسـتمر سياسة «الأقوال» في طريقها الذي لا ينضب، فالأقوال لا تغير واقعًا، وحين يصل الإسـلاميون للحكم لن يتغير شيء، وستستمر الحروب الكلامية، فقد تكون لهذه الحروب ضرورة أمريكية.

خطـة المخابـرات الأمريكيـة لمسـاعدة الإسـلاميين للوصـول إلى كرسي الحكـم كانت تحـت عنوان (Why not?) كبير مستشـاري الأمـن القومي هو العقـل المدبـر لهـا، والمتمـم لآلياتها،كانـت محاور الخطـة الرئيسـية تقوم على ضرورة اسـتخدام «البطاقةالإسلامية» لزرع الفتنة في المنطقة وتقسيمها، وفي سبيل التمهيد لذلك طلب مستشار الأمن القومي رسميًا من لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ إجراء«دراسة مستفيضة» على الأصولية الإسلامية نظرًا لما لها من «أثر سياسي متعاظم» في أنحاءكثيرة من العالم، ووفقًا لما نشرته صحيفة «واشنطن بوست»فإن مستشار الأمن القومي كان قبل ذلك قد وجه الأوساط الاستخبارية رسميًا لعمل دراسة متعمقة على هذه الظاهرة.

لم يكن من السـهل أن يلمح أحد أن خطـة (why not?) أقيمت على فكرة اسـتقرأها الفيلسـوف والمؤرخ الإنجليزي الشـهير برتراند راسل المتوفى عام 1970، كتـب فكرتـه في كتابه الشـهير «أثر العلوم في المجتمـع» الذي خرج

إلى النور عام 1951، قال برتراند راسل: «يتزايد سكان العالم حاليًا بمقدار 58 ألف نسمة في اليوم الواحد،ولم يكن للحرب - حتى الآن- أثر عظيم على الحد من هذه الزيادة، لقد ثبت أن الحرب مخيبة للآمال في هذا الخصوص حتى الآن، لذلك يجب أن يبحث أصحاب العقول الراجحة عن وسائل بديلة للحرب بين الدول، حينئذ سيكون من السهل أن يتحول جزء كبير من العالم إلى قطعان من الفلاحين التي خبرها الأجداد في القرون الوسطى، ويكون من السهل على الدول الصناعية الكبرى أن تقود العالم».

فكرة «تربيف العالم» وجعله سلة غذاء للدول الصناعية الكبرى، هي الفكرة التي استحوذت على عقل الإدارة الأمريكية، يجب أن يتحول البشر في معظم العالم إلى قطيع من الفلاحين الأجراء، أو العبيد، كل عملهم هو إعداد «مائدة الطعام» للسيد الصناعي الكبير.

كيف تطورت فكرة برتراند راسل وأصبحت خطة كاملة؟ كان ذلك عام 1975 حيث (خرج إلى الوجود «مشروع مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية لحقبة الثمانينيات» وهو استقراء خططي للمستقبل جاء في ثلاثين مجلدًا، أما الذين شاركوا في هذا العمل الضخم فهم أكبر العقول الاستراتيجية في أمريكا، كان منهم سايروسفانس، وأنطوني سلومون، وهارولد براون، وبريجينيسكي).

يتلخص هذا المجلد الضخم في كلمتين، هما «التفكيك المنضبط» لاقتصاد العالم، فكرة التفكيك هذه تقوم على إشاعة الفوضى الاجتماعية، والحروب الإقليمية بين الجارات، والحروب الأهلية في الدولة الواحدة، وسيترتب على

هذا زيادة نسبة الوفيات في العالم، فيما يشبه الإبادة، وستكون هذه الإبادة بيد سكان كل منطقة، لا بيد الدول الصناعية الكبرى، ولكي يؤتي المشروع ثماره يجب أن يكون تفكيك دول المنطقة عن طريق إشاعة الفتن الدينية والعرقية والحدودية، فلينقسم الشرق الأوسط إلى «سنة» و«شيعة» ثم فلينقسم العالم السني إلى أنصار الدولة الإسلامية وخصومها، ومن الأفضل تضخيم الروح العنصرية بين أبناء الدولة الواحدة، وليكن ما يكون.

ثم ماذا بعد؟ ما الذي سيحدث، وكيف سيستفيد «العالم الصناعي العملاق» من هذا الأمر؟ ستقوم حروب في المنطقة لا شك. وفقًا لنبوءة خطة التفكيك - وستشتعل فتن طائفية وعرقية حينما يتم تغذية مدخلاتها، وأكبر تغذية ستكون بتولية الإسلاميين الحكم في بيئة صالحة للاضطراب والاشتباك العقائدي، ولكن هل ستجني أمريكا من تلك الحروب أرباحًا؟ الربح هو الذي يدير العقلية الأمريكية، هو المسيطر على طريقتها في الإدارة، سواء كان الحكم عندهم «جمهوريًّا» أو «ديمقراطيًّا» فهو هو، أمريكا في كل الأحوال هي المرابي «شيلوك» بصورته الحديثة المتطورة، هي المرابي الذي يريد اقتطاع أرطال اللحم من جسد العالم، وفي الشرق جسد على أتم الاستعداد لتقطيع لحمه،أذكر الآن وأنا أكتب هذه السطور مقالة كتبها الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل عن أمريكا قال فيها - وفق ما بقي في ذاكرتي من أفكار هذا المقال - عبارة صارخة موحية، هي «أمريكا ليست دولة بالمفهوم الذي نعرفه للدول والأمم ولكنها شركة استثمارية كبرى، تدير نظامها بعقلية التاجر الرأسمالي الكبير» لذلك فإن خطوات أمريكا في السياسة لا تبحث إلا عن الربح، ولا تتجنب إلا الخسارة، فكيف ستكسب من سياسة تقسيم الشرق وتقطيع لحمه؟

كانت طريقة الاستفادة واضحة في المجلدات التي احتوت على نبوءات أمريكا «الدولة الراسبوتينية» إذ ورد في مجلدات النبوءة «إن النظام المالي والاقتصادي العالمي يحتاج إلى إصلاح كامل بما يضمن وقوع قطاعات دواليبه الرئيسة، مثل الطاقة وتخصيص الأموال والطعام، تحت إدارة عالمية واحدة، على أن يتولى الإشراف على تلك الآلية المستحدثة - فريق من المديرين التجاريين المستقدمين من شركات النفط متعددة الجنسيات والبنوك الأنجلوأمريكية، وتهدف إعادة التنظيم على الوجه المذكور إلى القضاء على مفهوم الدولة - الوطن - وخلق مفوم آخر يقوم على إشراف عالمي موحد يكون في يد الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي». الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي اهما في الحقيقة جهتان مخلوقتان من رحم أمريكا الشيلوكية.

«ولكي يتحقق مفهوم الإشراف العالمي يجب أولاً تقسيم العالم إلى مناطق أو تكتلات منفصلة ذات عملات إقليمية، ويتولى صندوق النقد الدولي مهامَّ الإدارة الاقتصادية لهذه المناطق، ويجب عليه أن يفرض شروطه، ولكي يستطيع فعل ذلك ينبغي أن يدخل عالم الشرق الأوسط في أزمات اقتصادية طاحنة تستنفد موارده وثرواته،حينئذ تكون لصندوق النقد الدولي سيطرة شبه مطلقة على تدفق العملة الأمريكية والأوروبية، ولن يتم ذلك إلا إذا تم تقسيم دول الشرق إلى مناطق صغيرة متحاربة».

استطردت النبوءة الراسبوتينية في شرح النتائج، فقالت (سينشغل العالم الشرق أوسطي بنفسه، وسيندمج في صراعاته، ولن يلتفت لتطوير نفسه وتحديث معارفه، وسيعود حتماً للوراء عشرات السنين، وبذلك سيظل في حاجة شديدة إلى دعم أمريكا له عن طريق مؤسساتها، وسيظل تابعًا ذليلًا

لا يستطيع أن يبرم أمرًا إلا من خلالنا، وسنضع الرؤساء ونستقدم الحكام كما نشاء، وسيجبرهم صندوق النقد الدولي على اتباع السياسات الاقتصادية التي نريدها، وتتوقع دراسات البنك الدولي ووثائق صندوق النقد الدولي الرسمية أن الأثر المترتب على هذا البرنامج سيتمثل في انخفاض حاد ومفاجئ في أعداد السكان بدول العالم الثالث، وفي هذا الإطار، يتوقع «التقرير العالمي» الصادر برعاية وزارة الخارجية الأمريكية - بلوويكر - أن هذه السياسة حين يتم تنفيذها على مستوى العالم ستؤدي إلى انخفاض بنحو 3 مليارات نسمة من تعداد السكان العالمي بحلول عام 2000).

انتهت الخطة المرسومة وجاء وقت التنفيذ، الآن جاءت ساعة الجد، وما كان يتم في الخفاء جاء الأوان ليصبح في العلن، فحين ظهر أن الطاغية سيرحل سيرحل،أعلن مستشار الأمن القومي عن رؤيته على الملأ، فقال: إن واشنطن سترحب بقوى الصحوة الإسلامية في الشرق الأوسط؛ لأن القوة الإسلامية - كفكرة عامة - أيديولوجية معارضة بطبيعتها للقوى السائدة في المنطقة.

وبعد هذا التصريح أرسل مستشار الأمن القومي للطاغية رسالة مفعمة بالمحبة: لا تقلق نحن معك ولن يستطيع أحد تحريكك من فوق كرسي الحكم، نحن نرتب لكي يكون ابنك هو الحاكم القادم، إلا أن قلب الطاغية ارتجف لأول مرة، وكرسي الحكم من تحته ارتجف، وها هي الثورة تشتعل في البلاد، خرجت الجماهير في مظاهرات صاخبة في ذات التوقيت في كل المحافظات، وقفت المظاهرات في الميادين الكبرى، لن يحركها أحد حتى يسقط الطاغية، كانت الهتافات الغاضبة تطالب بسقوط النظام، وترفع

شعارات «العيش والحرية والعدالة الاجتماعية» يبدو أن هذا الشعار كان موحدًا في كل الثورات، فقد كان هو بعينه نفس الشعار الذي هتفت به الجماهير الثائرة إبان ثورة الشعب الروسي عام 1917، لم تكن الثورة آنذاكَ «بلشفية» ولكنها كانت لكل الشعب ثم استولى عليها الشيوعيون، ذكر الكاتب الروسي العبقري فيكتور كرافتشينكو في كتابه الفريد «آثرت الحرية» أن شعار ثورة الشعب الروسي كان «العيش والحرية والعدالة الاجتماعية» ولكن كان للثورة مرحلة ثانية استطاع فيها لينين وحزبه الشيوعي الاستيلاء على الثورة وتحويل مسارها!

الثورات مثل البركان، لا يستطيع أحد التحكم في فوهتها إذا انطلقت، لذلك حينما تحركت مظاهرات ضخمة ضد الطاغية في أواخر يناير، وازدادت حدة في فبراير، قامت الثورة على «الطاغية» ونظامه، لم يستطع الأمن على كثرته إيقاف هذا الغضب الهادر، فكان أن سقط الطاغية، ومن بعده آل الحكم إلى زمرة الإسلاميين، لندخل إلى المرحلة الأولى من تجريف البلاد.

انتظر لا تغادر هذه الصفحات سريعًا، بل عد لقراءتها مرة ثانية، فالحديث لم يكن متعلقًا بثورة مصر ضد نظام مبارك، ولا بثورة تونس ضد حاكمها بن علي، ولا بثورة اليمن ضد رئيسها علي عبد الله صالح، ولكنني كنت أتحدث عن الثورة الإيرانية التي نشبت عام 1979 وترتب عليها حكم الملالي وآيات الله، أبطال هذه الحكاية الحقيقية هم شاه إيران محمد رضا بهلوي، والرئيس الأمريكي جيمي كارتر، وبريجنسكي كبير مستشاري الأمن القومي الأمريكي في ظل حكم كارتر، وما زالت له حتى الآن هيمنة على سياسات الإدارة الأمريكية، جنبًا لجنب مع كيسنجر الداهية،يبقى أن تعلم أن الجهاز الأمني

لبهلـوي والذي كان يثير الرعب في النفوس هو السـافاك، والابن الذي كان محمـد رضـا بهلوي يريد توريث الحكم له هو ولي عهده الشـاب وقتها «رضا بهلوي» ابن الإمبراطورة التي أوردت زوجها موارد التهلكة «فرح ديبا».

أمـا طائفـة الإسـلاميين التـي وصلـت إلى الحكـم مـن بعد بهلـوي فهي مجموعـات المـلالي وعـلى رأسـها «الإمـام الخمينـي» ومعهـا جماعـة «فدائيو الإسـلام» الشـيعية التي أسسـها نواب صفوي الذي كان قريبًا من الإخوان المسـلمين، وقطعًا ستعلم أن الشـيخ صاحب اللحية البيضاء الذي تواصلت معه أمريكا عن طريق أجهزة مخابراتها هو الخميني الذي أطلق على نفسه بعد أن وصل للحكم لقب «المرشد الأعلى»! وكان من تخطيط المخابرات الأمريكية لدعم الثورة الإيرانية التي أطلقوا عليها «الإسلامية» ترتيب لقاء بين الخميني الـذي كان في منفاه في فرنسـا، وبـين بعض قيادات الإخوان المسـلمين، كان على رأسهم «يوسف ندا» رجل المخابرات البريطانية صاحب الأدوار العالمية الغريبـة التي كان يتحـرك لها بأوامر من قياداته في المخابـرات، ومن بعد هذا اللقـاء كان الدعـم الإخواني لثـورة الخميني، إذ لم يعرف العالم السـني تأييدًا لهذه الثورة الشيعية من حركة تنتسب لأهل السنة غير الإخوان!

وقـد كان بريجنسـكي كبير مستشـاري الأمـن القومي في عهـد كارتر هو صاحب خطة تسليم الحكم للإسلاميين والمشرف على تنفيذها[1].

■ ■ ■

(1) انظر كتاب «رهينة في قبضة الخميني» للكاتب الأمريكي روبرت دريفس طبعة سنة 1980 .

متى بدأت إرهاصات الثورة الإيرانية؟ لم تبدأ من الشارع الإيراني، ولم تبدأ من المساجد، إذ كانت الاحتجاجات خافتة الصوت والأثر، ولكن بدأت إرهاصات الثورة الخمينية من معهد «تافيستوك» البريطاني والذي يضم نخبة متميزة من علماء «السلوك» وقد كان هذا المعهد - من خلال خبرائه - متخصصًا في تصنيع الرأي العام، وتشكيل الوعي في الاتجاه الذي يريدون، وذلك من خلال وسائل غسيل مخ جماعية، والبرمجة الاجتماعية، والسيطرة على الجماهير من خلال إحداث حالة من الهلع يسهل على الناس فيها قبول الأفكار المطلوبة، وقد كان لهذا المعهد أكبر الأثر في إنشاء مراكز على غراره في أمريكا، مثل معاهد كارنيجي، وروكفلر، وستانفورد، ومورجان، إذن ماذا فعل معهد تافيستوك بخصوص ثورة إيران؟

(بدأت فرق من الأخصائيين النفسيين الاجتماعيين من معهد تافيستوك في تحديد خصائص «الثورة» معتمدين في ذلك على أجهزة الكمبيوتر وعدد كبير من الملفات المتعلقة بتجارب سابقة تخص عملية الغسل الشامل للأدمغة في إيران. كيف سيستجيب الإيرانيون إلى دعوة تصدر من ملا عاجز طاعن في السن تحركهم للثورة؟

كيف سيستجيب لذلك أهل الريف، أو العمال المهرة أو الطبقة الوسطى، أو المفكرون؟ وأي أسلوب أنفع للطلاب للزج بهم في الثورة؟ وما هي نقاط الضعف لدى الشرطة والقوات المسلحة؟ كل ذلك كان لابد من تحليله ووضعه في الاعتبار، وقد كان الفريق الذي أسندت إليه تلك القضية رجالاً مخضرمين في أساليب الحرب النفسية المتقدمة؛ نظرًا لأن خبرة المخابرات السرية البريطانية تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية، وخذ لذلك مثلاً الخبير

«مارفنزونيس» الأستاذ بجامعة شيكاغو الذي ألف كتاب (النخبة السياسية في إيـران) فقـد اسـتقدم أمثال هـذا الخبير لوضـع تقارير إيضاحيـة لطريقة التـصرف التي يمكن أن تسـلكها الطبقـات الإيرانية ومجموعـات معينة من الشعب تجاه تفعيل الاحتجاج ونقله إلى خانة الثورة)[1].

لابد أن غطرسـة الشـاه وثقته في قوته وظنه أن إيران في عهده هي جزيرة الاسـتقرار في المنطقـة، كان لهـا أكبر الأثـر في نجاح الثورة، كـما أن ثقته التي كانـت في غـير محلها - في جهازه الأمني السـافاك - كانت هي التربة الخصبة التي تحركت فوقها الثورة، وكان اغترار الرجل بأمريكا هو المسمار الأخير في تابوت جنازته! ولأن «السياسـة خداع» فقد مارس الرئيس الأمريكي كارتر عملية خداع الشاه على أعلى مستوى إذ قال في عام 1978 وهو يناصر الشاه: إن إيران هي جزيرة الاسـتقرار في الشرق الأوسـط المضطرب. فهل من بعد تصريحات كارتر هذه مكان للقلق؟! في السياسة يجب أن يتحول جسدك كله إلى عيـون، فـلا أمان للدول العظمـى، ولا أمان للأصدقـاء والرفاق، ولكن بهلـوي كان يجهل هذا، لذلك غفـل عن الذي كان يجري في السر، ووضع في بطنه «بطيخة أمريكاني» ومن الغريب أن فريق بريجنسـكي كان ينفذ على قدم وسـاق - وقت تصريحات كارتر المطمئِنة للشـاه - خطة (why not?) والتي كانت تسـتهدف الإطاحة بالشـاه صاحـب التاج من فوق الحافة واسـتبدال العمائم السوداء به.

وقع الشـاه في غفلة، والغافل لا مستقبل له، ولكنه تنبه بعد فوات الأوان

(1) رهينة في قبضة الخميني، روبرت دريفس طبعة 1980 صـ 21.

وبعد أن جرفه السيل الأمريكي، فيذكر الكاتب الراحل أنيس منصور أنه عندما ذهب لزيارة الشاه في مستشفى القوات المسلحة ـ وكان ذلك قبل أن يلفظ الشاه أنفاسه ويقضي نحبه بسويعات ـ همس الشاه في أذنه وأنفاسه لهثى من فرط المرض: «قل للسادات ألا يثق في أمريكا أبدًا فحينما كان كارتر يرافق زوجتي في البيت الأبيض وكأنه صديق حميم، كان في ذات الوقت يخطط للتخلص مني».

وحين لا تحسب حسابًا لشعبك فإنك مغادر بلا شك، لذلك فإن أمريكا ومخابراتها لم يكن في إمكانها التخلص من الشاه لو كان متحصنًا بشعبه، لو كان عادلًا وشريفًا، ولكن الحكام في معظم دولنا يتحصنون بأمنهم وجيشهم، ومن فوق هذا وذاك «أمهم أمريكا» فإذا تآمر عليه جيشه وجهازه الأمني، وتخلت عنه أمريكا، فإن الشعب الذي ضج منه سيخلعه كما يخلع الرجل خاتمه، لذلك أخذ موقف الشاه بهلوي يزداد سوءًا بعد سوء قبل عام من الثورة حين سكت عن الفساد، وأصم أذنيه عن استقبال أصوات شعبه المطحون، ثم عمد إلى تغيير بعض الوزراء من أصحاب الكفاءة والشعبية بآخرين، كما كان الحال مع رئيس الوزراء عباس أمير هويدا، ليعين بدلًا منه جمشيد أموزيجار الذي شغل من قبل مناصب وزارية متعددة مثل الداخلية والمالية والمياه والنفط، وحين وضع أموزيجار قدمه على رأس الوزارة اتبع سياسة تحويل الاستثمارات إلى الزراعة بعيدًا عن الصناعة والتكنولوجيا المتطورة، وفوق ذلك كله اتخذ أموزيجار موقفًا معاديًا مستفزًّا تجاه رجال الدين الملالي وكأنه يريد إثارتهم وتحريك مشاعرهم ضد الشاه! وكان من سياساته الغريبة التي انتهجها وقف الأموال التي كان يدفعها النظام آنذاك

إلى رجـال الديـن، وعلى ما يبـدو كان أموزيجار مصمـمًا على إدخال الشـاه في عش الدبابير!! وبذلك خرج رجال الدين «الملالي» من كهوفهم وسراديبهم، وهجـروا تحالفهـم السري مع الشـاه الذي أخـذ يناصبهم العـداء من خلال رئيـس وزرائه، وبهذا ضمنت المخابرات الأمريكية، ومعها معهد تافيسـتوك البريطـاني، دخـول رجال الديـن إلى رقعة الثـورة التي بدأت تزداد اتسـاعًا، ولعـل الصورة واضحـة الآن، فرئيس الـوزراء الجديد «أموزيجـار» البهائي ذو الأصـول اليهودية، الذي تلقى تعليمه في أمريكا، والذي تخرج في جامعة «كورنيـل» بنيويـورك، كان مبعوثا خفيًّا لتأجيج حالـة الغضب ضد النظام، كانـت تصرفاته الظاهرة تبدو للذي يـرى الصورة الخارجية وكأنه يدافع عن نظام سـيده الشـاه ضد «القوى الظلامية»، في حين أن الصورة الخفية تختلف كثـيرًا في تفاصيلهـا، ويبـدو أن معهـد تافيسـتوك «السـلوكي» كان بارعًا في توجيـه أموزيجار لاتخاذ قرارات بعينها، من شـأنها أن تزيد من حالة الغضب وتوسـع من رقعته، وكان أسـوأ مـا فعله «أموزيجار» ضد الشـاه، وأفضل ما فعلـه لصالح الثورة، هـو قيامه عام 1978 بإصدار أوامـر للشرطة بالإغارة عـلى منزل الزعيـم الديني «آية الله شريع تمـداري»[1] كان هذا الزعيم الديني صاحـب شـعبية كبيرة، وهيمنة روحية على الشـيعة، فقد كان مرجعًا دانت له بالتبعية شيعة إيران والعراق ولبنان وباكستان والهند، فإذا بأموزيجار البهائي يوجه إهانة شـديدة للشـيعة باقتحام منزل رجل دين من طراز رفيع!! كانت

(1) مرجـع شـيعي إيـراني، تولى المرجعية عام 1961 كانت له أدوار سياسـية في إيـران والعراق، دخل في خصومـة مع الخميني بعد الثورة بسـبب اختلافهما في الرأي بشـأن ولاية الفقيه فحـدد الخميني إقامته ومنعه من مغادرة بيته إلى أن مات عام 1986 عن واحد وثمانين عامًا.

تصرفات أموزيجار دافعًا كبيرا للثورة عن طريق إثارة سلوك المتدينين ودفعهم للغضب، وكان أن أقال الشاه أموزيجار في أغسطس عام 1978 إلا أن هذه الإقالة لم تساعد على تهدئة الشارع ولا تهدئة الملالي وتسكين ثائرتهم.

كل ذلك كان مدعاة لتفجر السخط العارم، وقد بدا الشاه مع ذلك وكأنه غير مبالٍ بالبركان الذي ينشط على مقربة منه شيئًا فشيئًا، يكفيه اطمئنانًا أن صديق طفولته «حسين فردوست» هو الذي يدير جهاز المخابرات الإمبراطورية «السافاما» وقد كان قبلها وكيلاً للجهاز الأمني الخطير «السافاك» وفردوست رجل أمن من طراز رفيع، ومعه لا يمكن أن يخشى الشاه على ملكه، ولكن في عالم السياسة لا ينبغي لحاكم أن يثق في صديق طفولته ثقة مطلقة، بل ينبغي أن يسير معه بعيون مفتوحة، فالقلب قُلَّب، والنفس قلابة، إلا أن الشاه لم يكن عارفًا بعلوم النفس البشرية وخباياها، فظل على حاله يثق ثقة كاملة في جهاز السافاك، وجهاز السافاما، وكان ذلك هو أكبر أخطائه جميعًا، ولا شك أن آلام الشاه كانت مضنية إلى حد كبير، لم يكن ألم الجسد الذي استشرت فيه الأورام السرطانية هو الذي يقض مضجعه ويسهر لياليه، ولكن ألم الخيانة هو الذي يدوم ولا ينقطع، تهون آلام الجسد أمام آلام النفس، فآلام الجسد مهما كانت تخدرها المسكنات، ولكن آلام النفس لا مُسكِّن لها.

كان الخائن الآخر الذي اغتنم الفرصة وطعن الشاه هو صديقه «بهبهايان» الذي كان يستثمر له أمواله في أوروبا، كانت ثروة الشاه طائلة، وبهبهايان رجل تجارة حاذق، وتابع أمين للشاه، ولكن هذا الصديق المخلص انتهك صاحبه، إذ بعد الثورة – وفقًا لشهادة الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل –

قال للشـاه: لقد ضاع من ثروتك سبعين مليون دولار، صرخ الشاه: ويلك، أيـن ذهبت؟ هـل وقعت في بلاعـات المجـاري!! ولم يتلق الشـاه إجابة فقد هـرب صديقـه بهبهايان وسـكرتيرته وهو يحمل معه الملايـين والمجوهرات، وكأنـه وقـع على كنز «علي بابا» ولكننا لم نكن نعلم أن علي بابا لص، نعم كان علي بابا لصًّا ولكننا فرحنا بسرقاته لأنه كان يسرق من لصوص.

■ ■ ■

هـل التاريخ يكرر نفسـه؟ لا أظـن، ولكننا لانعتبر من أخطاء السـابقين فنقـع في مثـل مـا وقعـوا فيـه، فنكرر نحـن التاريـخ ولا يكرر هو نفسـه، في مسرحيـة يوليـوس قيصر لشكسـبير يقع قيـصر مضرجًا بدمائـه من طعنات المتآمريـن الذيـن دعـوه لاجتـماع في مجلـس الشـيوخ، وكانت لحظـة فارقة، ودهشـة مذهلـة أصيب بها قيـصر عندما تقـدم منه صديق عمـره «بروتس» ليطعنـه الطعنة القاتلـة، تحشرج صوت يوليوس قيصر وهو ينظر بأسـى وألم إلى صديق عمره، وأغمض عينيه حتى لا يرى الحقيقة وهو يقول: حتى أنت يا بروتس!! Even you, Brutus أراد بروتس أن يبرر لنفسـه فعلته فقال: إني أحبك ولكنني أحب روما أكثر، فارتسـمت ابتسـامة ساخرة على وجه قيصر الحزين وقال: إذن فليمت قيصر.

ليس قيصر فقط هو الذي تعرض للخيانة، بل ظل البشر يكررون قصص الخيانـة، ولا يزالـون يكـررون، فنظـن أن التاريـخ يُعيد نفسـه، ولكننا نحن الذين نسـتعيده ولا يسـتعيد هو نفسـه، فمنـذ ما يقرب من عشريـن قرنًا قام يهوذا الأسـخريوطي التلميذ المقرب للسـيد المسيح بالاتفاق مع اليهود على

تسليمه لهم مقابل صرة من المال، وفي العصر الحديث وفي مصر أرض الكنانة قام بدران الصديق المقرب من أدهم الشرقاوي بتسليمه للإنجليز، وغير هذه القصص كثير وكثير، حتى كأنك قد تظن أن في كل عصر المئات من النسخ المكررة من قيصر والمسيح وأدهم الشرقاوي، والمئات من النسخ المكررة من بروتس ويهوذا وبدران!

ترى هل كان حسين فردوست صديق العمر للشاه هو بروتس العصر الحديث؟ ولد فردوست عام 1918 في طهران من أسرة عريقة في المجال العسكري، إذ كان والده ضابطًا في قوات الدرك وكان هو مولعًا منذ صغره بالعسكرية، وعندما حل عام 1925 التحق فردوست ابن السبع سنين بمدرسة «نظام» الابتدائية، وهي مدرسة كانت مخصصة لأبناء الصفوة، وفي العام نفسه التحق الطفل الصغير محمد رضا بذات المدرسة، ولأن الطفل الصغير رضا لم يكن له أصحاب، وكان والده قد أصبح إمبراطورًا لإيران وأعطى لنفسه لقب «بهلوي» وابن الإمبراطور ينبغي أن يكون له أصدقاء من أبناء «طبقة النبلاء والعسكريين الكبار» فلذلك وقع الاختيار على الطفل حسين فردوست كي يكون صديقًا لابن الإمبراطور،وكان من ضمن معايير اختيار فردوست لكي يكون صديقًا لابن الإمبراطور أنه كان من أذكى تلاميذ المدرسة.

ومنذ ذلك الحين أصبح فردوست صديقًا لمحمد رضا ومخزنًا لأسراره، وعندما توجه محمد رضا إلى سويسرا عام 1931 من أجل الدراسة رافقه فردوست ليكون رفيق رحلته وتابعه الأمين ومساعده في تحصيل الدروس، وكانت العلاقة بينهما قد صارت وثيقة إلى حد كبير بحيث لا تستطيع على مدار تاريخ محمد رضا بهلوي أن تجد له صديقًا إلا فردوست هذا فقط، هو

الصاحب الوحيد المقرب المتفاهم المحب، وفي عام 1936 عاد الصاحبان من سويسرا ليلتحق فردوست بعدها بالكلية العسكرية ليستكمل مشوار أسرته العسكرية.

ولأنه لا شيء يبقى على حاله في هذا العالم، والله سبحانه وتعالى يُغيِّر ولا يتغير، جاء عام 1941 المؤلم للإمبراطور الأب رضا بهلوي، ففي هذا العام دخلت قوات الحلفاء إلى إيران فقامت هذه القوات بنفي الإمبراطور رضا خان بهلوي من البلاد، وحولت مسئولية الجيش الى الابن محمد رضا بهلوي، الذي قام بتشكيل لجنة عسكرية عليا لدراسة تقدم الحلفاء، وكان من الطبيعي أن يكون فردوست الصديق الصدوق لمحمد رضا عضوًا رئيسيًّا في هذه اللجنة العليا.

كان نفي الإمبراطور مقدمة لخلعه من الحكم وتولية ابنه الشاب الصغير، وحدث هذا بالفعل، وأصبح الابن محمد رضا إمبراطورًا لإيران، وحين نظر الإمبراطور حوله وقع في حيرة، بمن يستعين؟ وعلى من يستند في رحلة الحكم؟ إلا أن حيرته لم تدم طويلًا، فقد كان برفقته الصديق المخلص حسين فردوست فكان أن جعله مديرًا لمكتبه ومستشارًا له وأنيسًا لوحدته، ولم يخيب فردوست ظن الشاه الجديد فاضطلع بدور كبير في رفع معنوياته ودعم نفسيته، ثم ارتقى لدور أكبر من ذلك فكان أن أصبح بين ليلة أو ضحاها همزة وصل بين الشاه قليل الخبرات وبين البريطانيين.

ولم يمر عام على تولية الشاه الشاب الجديد حتى قام فردوست بتأسيس الحرس الملكي لحماية الشاه وقصوره، ومع مهام حراسة الشاه وقصوره

وحكمه كله وضح أن ثقة الشاه بفردوست أصبحت متنامية فوصلت إلى مدى لا سقف له، وكان من ناتج هذه الثقة أن أسند له الشاه ملفات أخرى فأصبح ممثلًا له إبان حركة تأميم النفط، وبعد انقلاب عام 1953 أدرك الشاه - بتوصية من بريطانيا - أن تأسيس جهاز أمني سري سياسي له أهمية قصوى للحفاظ على حكمه، فكان فردوست هو أحد الكبار الذين قاموا بتأسيس السافاك، وتلقى من أجل ذلك، هو وآخرون، تدريبات مكثفة في المخابرات البريطانية، ومن وقتها أصبح فردوست وكيلًا للسافاك وأصبحت المخابرات البريطانية هي المشرفة المباشرة على السافاك، وعندما استشعر الشاه أن الأمور في إيران سريعة التأزم فكر ودبر، ثم طلب من صديق عمره فردوست أن ينشئ جهازًا مخابراتيًا تكون سلطاته أعلى من السافاك نفسه، على أن تكون مهمته الرئيسية التجسس على الملالي والطبقات العليا في المجتمع بكافة أشكالها السياسية، فأنشأ فردوست جهاز «السافاما» الذي كان بمثابة السياج الأمني للشاه، كان هذا الجهاز هو أعلى قمة الهرم الإداري لجميع المؤسسات الأمنية والمخابراتية في البلاد بما في ذلك السافاك، لذلك كان السافاما هو عين وأذن محمد رضا بهلوي.

ولكن من الذي قال إن حسين فردوست كان بروتس الذي طعن قيصر العصر الحديث محمد رضا بهلوي؟

أدرك الشاه متأخرًا الدور الذي قام به صديقه فردوست في تأجيج الثورة، عرف متأخرًا أن فردوست كان يؤلب عليه كبار ضباط الجيش والمخابرات، وكان يقول لبعض من يثق فيهم من تلك القيادات «لقد قرر الأمريكان التخلص من الشاه، علينا أن ننجو بأنفسنا، أتراك تلحق بنا؟».

أدرك الشاه وأخته الأميرة «أشرف» بعد قيام الثورة أن الجنرال فردوست كان هـو الخائـن الأكـبر، كان هو يهـوذا الذي سـلمهم لثـورة الخميني، وقد ذكـرت الأميرة أشرف في كتابها «وجوه في المرآة» الذي سـجلت فيه أحداث الثـورة وأسبابها أن المسـاجد قبيل الثـورة مباشرة كانت هـي المسرب الذي تخـرج منه المظاهرات المناوئة للشـاه، ثم أضافت الأمـيرة أشرف وهي تبدي تعجبهـا: «الغريب أن السـافاك، وهو البوليس السـري الذي يعمل لمصلحة الشـاه - والمفترض أن يكون المصدر المخابراتي الذي على دراية ومعرفة بكل شيء فضلًا عن (السافاما) الذي كان تحت قيادة مباشرة من فردوست لم يعد أي منهما تقارير عن المدى والأسـلوب الذي اتبعه الملالي في اسـتغلال المنابر لتقويض العرش، وكان فردوست هو القناة التي تصل من خلالها المعلومات الحيوية العليا إلى أخي، وإنني على قناعة بأن فردوسـت كان يخفي معلومات حيوية عن الشـاه، وأنه بجانب ذلك كان يجري مداولات مكثفة مع الخميني خلال السنوات الأخيرة للنظام».

سـقط الشـاه، خرج من الرقعة، ومن سـقوطه عرفنا أنـه كان مجرد قطعة يحركها لاعب خارجي، وإذ خرج الشاه من اللعبة كان لابد أن يدخل «الفيل صاحـب اللحية» بدلًا منه ليحركه أيضًا اللاعـب ذاته ولكن بطريقة مختلفة، ففـي كل حين تتغير قواعد اللعبة وقوانينها، ومن لا يدرك تلك القواعد لابد وأن يخـرج، وقد يخرج حتى ولـو كان مدركًا ما دام دوره الذي كان يؤديه قد انتهى، وحين أتيحت الفرصة للشاه الذي سقط أن يقول للتاريخ رأيه ، كتب مذكراته «إجابة للتاريخ» وكان مما قاله فيها:

(أصبحـوا ضحايا الآن، لقد أراد لي الأمريكيون حقًّـا أن أزاح بعيدًا عن

السلطة، وهذا بالتأكيد ما كان يريده مناصرو حقوق الإنسان في وزارة الخارجية، وقد سبقهم إلى ذلك بوضوح السكرتير فانس، وأقول بوضوح: «لأنني لم أكن أخبَر بأي شيء على الإطلاق، فلم يبلغ علمي أي شيء مثلاً عن الشقاق الحاصل في إدارة كارتر بسبب السياسة الإيرانية، ولا أي شيء عن آمال بعض المسئولين الأمريكيين التي علقوها رهينة بقيام «الجمهورية الإسلامية» لتكون لهم حصنًا منيعًا أمام الغزوات الشيوعية).

لم يكن فردوست وحده هو أداة أمريكا والمخابرات البريطانية في تنفيذ خطة «بريجنسكي».

عرف الشاه وشقيقته القوية الأميرة أشرف أن بلاط الحكم كان قد امتلأ عن آخره بنسخ متكررة من بروتس، أو يهوذا، ولم يكن في طوق الإمبراطور أن يتجنب طعناتهم، حتى بهبهايان الصديق الذي كان يستثمر الأموال كان أحد الطاعنين، إذن فليمت القيصر رضا بهلوي.

■ ■ ■

يقول العرب إن المستحيلات ثلاث «الغول والعنقاء والخل الوفي» ولكن التاريخ والحوادث الإنسانية أثبتت أن الخل الوفي يسعى بيننا، فكيف تستقيم الحياة بلا خل وفي؟!

هذا هو سابع المستحيلات، الدنيا بغير الصديق الوفي تختفي، لذلك كان في التاريخ واحد فقط من كان خائنًا للمسيح، ولكن باقي التلاميذ كانوا أوفياء، وكان لموسى عليه السلام هارون، وكان لسيدنا محمد ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة أجمعون، وفي التاريخ أيضا تلك الصداقة العميقة التي جمعت

ما بين كاتبي ألمانيا العملاقين «جوته» و«شيللر» وقد وصلت حالة التفاهم بينهما فكريًّا وإنسانيًّا إلى حد مذهل، وكانت صداقة الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي بالدرويش الهائم «شمس الدين التبريزي» مثالًا للحب بين الصديقين إلى درجة التفاني، إذ عندما التقى الرومي بشمس الدين الدرويش الجوَّال بدا وكأن كل واحدٍ منهما استغنى عن الدنيا بالآخر، لذلك ولكي يكرر الناس التاريخ في أنفسهم كان للشاه «الصديق الوفي» ففي ليلة مظلمة بينما الشاه في منفاه أخبره أحد الأصدقاء بأن محكمة أمريكية قد تم استدعاؤها ليلًا - على عجل لتحكم بتسليم الشاه للخميني كي تساومه في قضية الرهائن، تحير الشاه، كيف يتصرف؟! هو الآن في بيت عتيق في بنما سمحت له به أمريكا، وبنما حليفة تابعة للأمريكان «الصديق الغادر» ألا يوجد صديق وفي في هذا العالم؟! برق في ذهنه خاطر، هناك أنور السادات رئيس مصر، هو رجل وفي وصديق مخلص، وله أخلاقيات نادرة في هذا الزمن، أظنه لن يتوانى عن مساعدتي.

توجه الشاه وأسرته إلى المطار فورًا، وركب الطائرة إلى القاهرة بعد أن كان قد اتصل بالسادات، وفي المطار التقى بالسادات وبكى في حضنه وهو يقول: هل تصدق أن أمريكا كانت تعتبرني خازوقًا؟ لقد عرفت هذا في الطائرة التي أقلتني إلى هنا، حيث أطلقوا على طريقة خروجي من إيران بعملية خروج الخازوق[1].

دخل الشاه مستشفى المعادي، وخصص له السادات قصر القبة الرئاسي ليقيم فيه وأسرته، ولكن القدر لم يمهله ليرى ما الذي سيحدث في بلاده،

---

(1) مقال محمد حسنين هيكل «عرش الطاووس وكل الدروس المنسية».

كان عمره قد انتهى في الموعد والطريقة التي حددها الله سبحانه وتعالى، وكان الفيل الأسود صاحب اللحية والعمامة قد دخل إلى الرقعة، ليحركه اللاعب الخارجي بالطريقة التي يشاء، وليثير أشد القلاقل في الخليج العربي، وليجعل القوس الخليجي في احتياج دائم لشرطي العالم الذي لا يتحرك إلا بالوقود والمال، ليحميه من بلطجي المنطقة الذي يرفع راية «الشيعة» فتقع قلوب العالم السني - ومركزه المملكة العربية السعودية - خوفًا من حيل الشيعة ودهائهم ورغبتهم العارمة في تشييع أهل السنة، وفي الخليج أدرك أهلها أن الجيش الأمريكي سيتخذ الخميني ذريعة لتوسيع تواجده في المنطقة، ولكن ما قيمة الإدراك وقواعد اللعبة لا تحفل بالشعوب ولا الحكومات؟ ما قيمة الإدراك وخريطة العالم لا تهتم إلا بالقوي؟ فالرأي رأي القاهر الغلاب كما قال أبو القاسم الشابي في قصيدته الرائعة «فلسفة الثعبان المقدس» والتي قال فيها أيضا:

كان الربيعُ الحيُّ روحًا حالمًا

غضَّ الشبابِ معطَّر الجلبابِ

يمشي على الدنيا بفكرةِ شاعرٍ

ويطوفُها في موكبٍ خلَّابِ

والكونُ من طهرِ الحياةِ كأنما

هوَ معبدٌ، والغابُ كالمحرابِ

والشاعرُ الشحرورُ يرقصُ منشِدًا

للشمسِ، فوقَ الوردِ والأعشابِ

شعْرَ السـعادة والسلام ونفسهُ

سَكْرَى بسِحرِ العالم الخلّابِ

ورآه ثعبانُ الجبالِ فغَمَّه

ما فيه من مرحٍ وفيضِ شبابِ

وانقضَّ مضطغنًا عليه كأنه

سوطُ القضاء ولعنةُ الأربابِ

بُغتَ الشقيُّ فصاحَ في هولِ القضا

متلفتًا للصائل المنتابِ

وتَدَفَّقَ المسكينُ يصرخُ ثائرًا

ماذا جنيتُ أنا فحقَّ عقابي؟!

لا شيء إلا أنني متغزلٌ

بالكائنات مغردٌ في غابي

أيُعدُّ هذا في الوجودِ جريمةً

أينَ العدالةُ يا رفاقَ شبابي؟

لا «أين» فالشرعُ المقدسُ ها هنا

رأيُ القويِّ وفكرةُ الغَلّابِ!

فتبسم الثعبان بسمةَ هازئٍ

وأجاب في سمتٍ وفرطِ كذابِ

يا أيها الغِر المثرثر إنني

أرثي لثورة جهلك الثلابِ

والغـــرُّ يعذره الحكيـــم إذا طغى
جهلُ الصِّـــبا في قلبه الوثـابِ
إنـــي إلـــهٌ، طالمـا عبـد الورى
ظِلّي،وخـافـوا لعنتي وعقـابي
وتقـدَّمـوا لـــي بالضحـايا منهمُ
فَرِحين، شـأن العـابـد الأوابِ
إني أردتُ لـــك الخلـــود مؤلهـًا
في روحي الباقي على الأحقـابِ
فأجابه الشحرورُ في غصص الردى
والموت يخنقــه: إليـك جوابي
لا رأيَ للحقِّ الضعيفِ ولا صدًى
والـــرَّأي رأيُ القاهـــرِ الغلَّابِ
فافعـل مشيئتَكَ التي قـد شئتَهـا
وارحَم جلالكَ من سمـاعِ خطـابي

ولكـن هل يجوز الاستسـلام لأصحاب اللعبة؟ أم ينبغـي مقاومتهم ولو بتبصير الشعوب بخطورة ما يجري في المنطقة، فالشعوب مهما كانت لها كلمة إذا اتحدت، وما تسيدوا علينا إلا بتفرقنا،وخطورة خطة why not التي ترمي إلى تحويـل المنطقـة كلها إلى كتلة ملتهبة شـديدة التمزق تعروهـا دُجى الفتنة والاحـتراب، بـدأت ويبدو أنها ستسـتمر، كانـت بدايتها بتنصيـب الخميني والملالي عـلى إيـران فقـد كانـت هـي أنبوبـة الاختبـار، كان في أفكارهم أن

الخميني سيؤدي إلى تفسخ الشرق الأوسط بأكمله، ومن بعده يأتي الإخوان في مصر - ودول ثورات الربيع - من السجن إلى القصر، فتستحيل المنطقة إلى حلبة مصارعة حرة دموية، فإذا ما تم لهم ذلك كان من السهل على الثعبان المقدس أن يبتلع الشحرور المغرد، ومن المفارقات الساخرة أنه عند خروج الشاه من إيران وحين بدأ السيد الأمريكي المتخم بالطعام في إعداد الوليمة، صرَّح كارتر بأن الخميني صديق لأمريكا وأن صداقة أمريكا لإيران ستستمر، وفي ذات الوقت وقف المبعوث الأمريكي في الأمم المتحدة ليصف الخميني بـ «القديس» وحيال هذا الترحيب صمت مندوبو العرب وكأنهم يقولون للثعبان المقدس «ارحم جنابك من سماع خطابي».

■ ■ ■

في عالم السياسة - وفي العوالم الأخرى أيضًا - لا تنخدع بالظاهر، لكن تمهل وانظر واستبصر وحلل واجمع المعلومات ما استطعت، وقتها ستعرف أن الظاهر ليس هو الحقيقة دائمًا، وكم خدعت المظاهر البراقة عيون وعقول الدهاة، ولكنها لابد أن تنكشف يومًا ما، فالظاهر الخادع يعيش دهرًا ثم يتبدد بددًا فتنكشف الحقائق خلف دخانه.

حين جاءت حقبة الثمانينيات كنا نسمع ونرى أفواجًا من الحجيج الإيراني وهم يتظاهرون في موسم الحج وعند الكعبة الشريفة ضد أمريكا وإسرائيل، وبقدر ما تعجبنا من مظاهرة سياسية تنطلق في موسم الحج وعند الحرم أكبرنا موقف هؤلاء الشيعة الذين يناصبون أمريكا وإسرائيل العداء، إيران هي العدو الأكبر لأمريكا شيطان العالم الرجيم، ولكن الشيطان كان يمد يده

في الخفاء لإيران يداعبها فتستنيم له ويلهج لسانها بالتسبيح له، ولمَ لا وهو الذي يمدها بالسلاح في حربها ضد العراق؟ ومن عجب أن العالم استيقظ ذات يوم ليرى تلك المظاهرات الإيرانية التي تهاجم أمريكا وإسرائيل، ثم انكشف له في ذات الوقت أن سيلًا من الأسلحة وقطع الغيار كان يشحن من أمريكا عبر إسرائيل إلى طهران.

ففي عام 1985، وأثناءالولاية الثانية للرئيس الأمريكي الممثل الكاوبوي راعي البقر رونالد ريجان، كانت أمريكا تسير في خطوات ثابتة نحو القضاء على أسطورة الاتحاد السوفيتي والمد الشيوعي، وكان حكم ميخائيل جورباتشوف للاتحاد السوفيتي يحث الخطى هو الآخر نحو القضاء على الاتحاد السوفيتي الذي كان قد أصبح هشًّا خاويًا، ولابد أن العمليات المخابراتية التي قام بها فريق العمل الذي يترأسه السيد «ويليام جي كيسي» مدير المخابرات الأمريكية كان له الدور الأكبر فيها تحقق بعد ذلك من انهيار للاتحاد السوفيتي وتفككه.

وقتئذ تم تنفيذ خطة أطلقوا عليها «إيران - كونترا» والتي أصبحت فيما بعد فضيحة كبرى أطلق عليها الإعلام العالمي «إيران كونترا جيت» تشبيهًا لها بفضيحة «ووترجيت» التي أطاحت بنيكسون من قبل من حكم أمريكا، كانت هذه الخطة - الفضيحة - عبارة عن مخطط سري يستهدف بيع أسلحة أمريكية لإيران التي تتظاهر ضد أمريكا وتغضب من إسرائيل، وتصب جام غضبها على الرعاية الأمريكية لإسرائيل خاصة رعاية التسليح، هل يصدق هذا أحد؟! القط سيعقد صلحًا مع الفأر ويقوم بتزويده بالأسلحة ليفرض سطوته على المنطقة كلها ويؤازره في حربه التي كانت تشحذ أسنتها ضد العراق،أما

الهدف الاستراتيجي الظاهر لبيع الأسلحة لإيران فهو أن يستخدم ناتج البيع في تمويل حركات «الكونترا» المحاربة للنظام الشيوعي في نيكاراجوا.

ومع توابع صفقة بيع الأسلحة هذه انكشفت أشياء أخرى؛ إذ ظهر أن العلاقات الوثيقة السرية بين إيران وإسرائيل كانت في أعلى مجاليها، وكان الشيخ صادق طبطبائي المقرب من الخميني هو حلقة الوسط بين إيران وإسرائيل، وكان قد نفذ إلى عالم المخابرات الإسرائيلية والتعاون معها من خلال شخص يدعى يوسف عازر وهو عميل مخابراتي تعامل مع المخابرات الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي كثيرًا ، وكانت الفضيحة الكبرى هي أن السلاح سيتم تسليمه لإيران عن طريق إسرائيل، أو بمعنى أصح أن إسرائيل كانت هي وسيط هذه الصفقة التي مهد لها طبطائي ويوسف عازر.

سقط القناع عن الصفقة وأكدها أبو الحسن بني صدر أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية بعد الثورة، فحين استعادت قناة الجزيرة تلك الأحداث لتوثيقها جلست مع الرئيس السابق أبو الحسن الصدر بعد أن انفض السامر عنه، كان البرنامج هو «زيارة خاصة» وكان التاريخ هو 10/ 1/ 2005 ، أما المذيع فهو الإعلامي سامي كليب اللبناني الأصل الفرنسي الجنسية.

سأل سامي كليب سؤالًا صريحًا يستعيد الفضيحة: «هل كنت على علم بوجود علاقات معينة مع إسرائيل لأجل الحصول على السلاح؟

فأجاب بوجه جامد القسمات: « في المجلس العسكري أعلمنا وزير الدفاع أننا بصدد شراء سلاح من إسرائيل، عجبنا كيف يفعل ذلك، قلت: من سمح لك بذلك؟! قال: الإمام الخميني، قلت هذا مستحيل!

قال: أنا لا أجرؤ على عمل ذلك وحدي. سارعت للقاء الخميني وسألته: هل سمحت بذلك؟

قال: نعم. إن الإسلام يسمح بذلك، وإن الحرب هي الحرب. صعقت لذلك، صحيح أن الحرب هي الحرب، ولكنني أعتقد أن حربنا نظيفة، والجهاد هو أن نقنع الآخرين بوقف الحرب والتوق إلى السلام، نعم هذا الذي يجب عمله وليس الذهاب إلى إسرئيل وشراء السلاح منها لحرب العرب، لا لن أرضى بذلك أبدًا. حينها قال لي: إنك ضد الحرب، وكان عليك أن تقودها لأنك في موقع الرئاسة».

لم يكن أبو الحسن الصدر مدركًا – رغم ثقافته وممارسته المحترفة للسياسة – أن هناك عدة عوامل مشتركة تتشابه بها إيران مع إسرائيل ، ويجتمع بسببها الشامي مع المغربي، فإذا ما أمعنَّا النظر في حالة «القوقعة» أي العزلة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها كل من إيران وإسرائيل ضمن المحيط العربي، سنلاحظ أنهما في حالة غربة ثقافية وسياسية وإثنية، الإسرائيليون «الغزاة» محاطون ببحر من العرب، و دينيًّا محاطون بالمسلمين الذين يرفعون شعارات دينية مثل « خيبر خيبر يا يهود .. جيش محمد سوف يعود».

وإيران الفارسية ذات اللسان الفارسي والعقيدة الشيعية والتاريخ المعادي للعرب والمسلمين، تعيش بجوار وفي معية أمة عربية عقيدتها هي «الإسلام» السني وحين تتشابه الظروف تجتمع المصالح، ومن بعد توثقت الصلات الإيرانية الإسرائيلية وانعقدت بينهما صفقات وصلات ، وما زالت تلك الصلات لا تنفك قائمة.

وحين كانت الدنيا تعلم بعمق العلاقات التي كانت قائمة بين شاه إيران رضا بهلوي وإسرائيل لم يكن هذا يثير استغراب أحد، بل كان يثير الحنق والغضب في دوائر عربية كثيرة حتى أن الزعيم المصري جمال عبد الناصر كان قد قطع العلاقة بين مصر وإيران بسبب صلتها ودعمها لإسرائيل، ولكن علاقة إسرائيل بإيران الثورة الإسلامية، إيران الشيعية، إيران التي تتظاهر ضد إسرائيل، كانت من الأمور المخفية، ولكن الله شاء أن تنكشف، لنعرف بعد ذلك أن جماعة الإخوان التي كانت تتظاهر ضد إسرائيل وتهتف ضدها، ويقف قادتها ليهتفوا «على القدس رايحين شهداء بالملايين» هي جماعة عقدت صلات قوية مع أمريكا وإسرائيل، ووصلت للحكم في مصر عن طريق أمريكا ومن خلال تعهدها بالحفاظ على مصالح إسرائيل، ثم شاء الله أن تنكشف جماعة الإخوان وينزل الستار على المسرحية التي كانت تقودها ضد إسرائيل، كانت مجرد حرب كلامية ومسرحية خادعة، وكان المشهد الختامي للمسرحية حين كتب محمد مرسي الذي أجلسوه على حكم مصر خطابًا مفعمًا بالمشاعر الجياشة قال فيه : عزيزي وصديقي العظيم شيمون بيريز رئيس دولة إسرائيل .

وفي دولة الإخوان سقط الحياء كما سقط من قبل من دولة إيران الشيعية الإسلامية .

■ ■ ■

كانت إيران هي أنبوبة الاختبار، وحينما نجحت التجربة هناك كان لابد من البدء في تعميمها، ولكن أمريكا قبل التعميم آثرت أن ترسل رسائل

مشفرة للمنطقة، فكانت تصريحات كونداليزا رايس عن شرق أوسط جديد، وعن فوضى منظمة، سمع الشرق هذه التصريحات وتساءل الخبراء عن تلك الفوضى المنظمة، ما هي؟ وهل ستسفر عن شرق أوسط جديد؟ الشرق الأوسط الجديد هو «جغرافية جديدة للمنطقة» ولكي تتغير الجغرافية، يجب أن تعم الفوضى، وحين تتغير الجغرافية سيتغير التاريخ.

لكن فلتنتظر أمريكا قليلًا قبل أن تعمم تجربة الفوضى الخلاقة: «يجب أن نتأكد من أن الأدوات التي في أيدينا ستؤدي إلى تحقيق مخططنا حرفيًّا دون أي نسبة من الفشل» ولتكن هناك تجربة معملية سابقة على «العرض الجماهيري الكبير».

وقع الاختيار على السودان، فهي دولة كبيرة المساحة، تقع شمال شرق إفريقيا، وجنوب مصر، وفي عام 1989 قامت هناك حركة انقلابية على الرئيس الصادق المهدي، أطلقت على نفسها اسم «ثورة الإنقاذ الوطني» وبعد حين عرف العالم أن هذه الثورة المصنوعة هي «ناتج إخواني» أشرف على إدارتها أحد كوادر الإخوان في جيش السودان هو «عمر البشير» الذي أصبح رئيسًا للبلاد، ومن بعد أن تولى البشير أخذ «السودان تحت حكم الإخوان» خطًّا قاتمًا أدى إلى حروب أهلية، وفتن، وقمع للحريات غير مسبوق، ومصادرة للحريات، وذات يوم عندما جاء البشير زائرًا لمصر في بداية التسعينيات كان من حظي أن قابلته مع مجموعة من الإخوان، حيث أتى لنا زائرًا في نقابة المحامين ثم خرج منها إلى مقر جماعة الإخوان، وفي مقر الجماعة لقي احتفاءً كبيرًا، واحتضنه المرشد حامد أبو النصر وقال له: الحمد لله أن جعلنا نصل للحكم في السودان، فهذه بشرى يا بشير الخير بالنسبة لنا في مصر.

ضحك الحاضرون وقال البشير: وسنحكم العالم إن شاء الله، ونحن ننتظر أوامر فضيلتك فأنت إمامنا ومرشدنا.

وجاءت الأوامر فعلًا ولكن كانت من أمريكا، فزاد الشقاق بين شمال السودان وجنوبها، وأصبحت الحرب الأهلية جريمة شارك الإخوان في صنعها، وحاصرت أمريكا البشير الذي وضعته على الحكم، ولكنها كانت محاصرة المتبوع للتابع، ونجحت التجربة وانقسم السودان إلى دولتين، وفي الطريق سيناريوهات انفصال آخر.

وفي شهر إبريل من عام 2013 جلس رئيسان ينتميان لجماعة الإخوان يقرآن القرآن في أحد مساجد الخرطوم، كان أحدهما عمر البشير، وكان الثاني هو محمد مرسي.. الذي وقع اختيار أمريكا عليه لكي يكون رئيسا لبلاده مصر بعد ثورة قامت فيها، لقد قامت أمريكا بتعميم التجربة.

الفصل الثاني

المطيـة

تحمـل السـير الشـعبية في كل الحضـارات حكمـة الشـعوب، وخبراتها المختزنـة في ضميرهـا، والسـير الشـعبية المصرية غنيـة بالحكايـات والنوادر، فالشـعب المـصري - وهو مـن أقدم الشـعوب - مـر بتجارب كثـيرة لا تعد ولا تحـصى، فأصبحـت لديه خـبرات متراكمة تظهـر عند اللين بشـكل، وفي الشـدة بشكل آخر، وكأننا أمام شعبين وبلدين متناقضين، ولكنهما في الحقيقة يكمـلان بعضهـما، ولا تقـوم مصر إلا بهما، وقـد تحار الألبـاب في فهم طبيعة هـذا الشـعب الصامت على طواغيتـه معظم التاريخ، فيظن الرائي أن شـعب مـصر يلين في موضع يجب أن يشـتد فيه، ولكن خبراتـه هذه أتاحت له فرصة أن يقـاوم من لا يسـتطيع مقاومته عـن طريق ابتلاعه، فإذا لم يسـتطع ابتلاعه لفظـه، تمامًـا مثل هـذا الكائن الخرافي الـذي هبط من السـماء كجرم صغير لا يكاد أحد يراه، فإذا بكائنات أرضية تراه فتظن أنه فريسة شهية لها فتحاول أن تبتلعـه، ولا تكاد تفعل ذلك حتى يبتلعها هو فتصبح بضعة منه، فيكبر رويدا رويدا، ومع اسـتمرار الغافلين في محاولات ابتلاعـه، وقيامه بابتلاعهم،إذا به ينمـو نمـوًّا مطردًا حتـى يصبح أكبر مـن كل الكائنات، ولكن مـع نموه ينوء

بهذا الحمل الثقيل فتصبح حركته بطيئة، ولكنها واثقة، وخذها مني حكمة «إنك لا تستطيع أن ترى الشعوب إلا من خلال سيرها الشعبية وأمثالها» فهي تحتوي على ملخص وافٍ لعلم نفس الشعوب والجماعات، فماذا عن الشعب المصري، هذا الشعب ينتظر ويرتقب، ويدون في ذاكرته، فإذا ما وثق في أحد رفعه إلى السماء، وإذا أدرك أنه كان يخدعه خسف به الأرض، وهكذا هو عبر التاريخ، وقد ورد في قصصه وأمثاله الكثير من الحوادث التي تناقلتها الأجيال واستخرجت منها كنوز الحكمة، ومن أمثاله العجيبة المثل القائل «إحنا دافنينه سوا» ولهذا المثل قصة عمرها مئات السنين، تروى بشكل واحد مع اختلاف بعض التفصيلات، أما القصة التي عرفتها نقلًا من الآباء والأجداد فهي أنه (كان هناك محتالان من عتاة النصابين والحرامية، واحد منهما اسمه نائل اللئيم، والثاني اسمه عطية أبو المفاهيم، ضج الناس من أفعالهما اللئيمة، وخصالهما الذميمة، ولما كان أمرهما قد ذاع واشتهر، والتحذير منهما في كل مكان قد انتشر، فقد وجدا أنه لا مفر من الهرب، فسرقا حمارًا وحفنة من الذهب، وخرجا من المدينة في الليل البهيم، وحملهما الحمار إلى قرية بعيدة، اسمها قرية البرسيم، كان أهل هذه القرية من أطيب الناس خلقًا، وأكثرهم تدينًا، وعلى أعتاب القرية نفق الحمار ومات، فقد أهلكاه في المسير دون طعام أو شراب، حزن اللصان حزنًا شديدًا، فقد كان لهما هذا الحمار سندًا وقيمة، فكرا في تركه والسير على الأقدام، ولكن برق لنائل اللئيم بارق، وخطر في عقله خاطر، فقال لصاحبه عطية: لقد صبر معنا هذا الحمار أميالًا كثيرة، وحملنا دون شكوى أو اعتراض، ومن حقه علينا أن ندفنه هنا، فقال عطية: ولِمَ نكلف أنفسنا المشقة؟ رد نائل: هذا حقه، لقد كان هذا الحمار صابرًا

معنا، فهو أبو الصبر، وعندما ندفنه هنا، سندبر أمرًا يجعلنا في ثراء وغنى، وقد نحكم هذه القريـة في الحال أو في الاسـتقبال، ونملك أراضيها بلا جدال، ثم همس في أذن صاحبه بكلمات وهمهمة، فانفرجت أسـاريره، وأخذ الصاحبان يحفران الأرض بهمة عالية، ثم دفنا الحمار في الحفرة العميقة، وأقاما على الحفرة سورًا من طوب الطين، وبعد أن انتهيا من الدفن، سمعا من بعيد أصواتًا آتية، فجلسـا يبكيـان ويقولان «لا إله إلا الله، أبو الصبر حبيـب الله، لا إله إلا الله، أبـو الصبر حبيب الله» اقترب الناس منهما وقالوا لهما ما هذا، ومن أنتما، وماذا تفعلان؟ قال اللص نائل اللئيم وهو يبكي، نحن من أتباع الشـيخ أبو الصبر، وهو من أولياء الله، وقد كانت له كرامات وكرامات، يشفي المريض، ويزوج العانس، ويفك الأعمال، وقد مات هذا الصباح، وكان قد أوصانا أن ندفنه في هذا البلد، وقال لنا إنها قرية الخير والمدد، وأهلها من أهل الجنة، وقال إنه يريد أن تمتـد كراماته لأهلها، فسـافرنا من بلدنا البعيـدة ونحن نحمله على ظهرنا، وعندمـا حط بنـا الرحال في هذا المكان على حـدود قريتكم، وقف النعش ولم يتحرك، فعرفنا أنه اختار مكان دفنه في هذه البقعة، فدفناه، وقرأنا عليه القرآن، ثم أخذنا في الذكر والنواح.

صـدق الناس الطيبون قصة المحتالين، وقالوا لهما سـنبني معكما مقامًا كبيرًا يليق بالشـيخ أبو الصبر، وبالفعل تم بناء المقام، ثم اتسع البناء وأصبح مسجدًا والمقـام في أوسـطه، وحوله سـور جديد من حديـد، وعندمـا كان أهل القرى المجـاورة يأتون لهذه القرية فيسـألونهم عن هـذا المقام الذي له قبـة عالية، كان أهـل القرية يقولون لهم: «تحت القبة شـيخ» فذهبت مثـلًا، وجاء الرزق الحرام يسـعى للصاحبين، فهذه نـذور، وتلك صدقات، وأخرى هبات لفك السـحر

والأعمال، وزواج العانسات، وشفاء المرضى، وبين ليلة أو ضحاها أصبحت بركة القرية في هذا القبر، وزاد مال اللصين بلا حصر، وأصبح لهما هيمنة على شئون القرية، وعلى العمدة والأعيان والخفراء والأغنياء والفقراء والرجال والنساء، بحيث أصبح القرار قرارهما، والقول قولهما، ومن أجل إحكام السيطرة ارتديا ثياب الدراويش، وأصبحا لا يسيران في القرية إلا وهما يرتديان أسمالًا بالية، دليلا على الزهد والتنسك، وأمام الناس كانا لا يفتر ثغراهما عن ذكر الله، والحديث عن كرامات الشيخ الولي أبو الصبر، وفي يوم من الأيام قال نائل اللئيم لصاحبه عطية أبو المفاهيم: سأتركك بضعة أسابيع، وأسافر إلى أهالينا، لأعطيهم ما يكفيهم من المال والذهب ويكفينا، وسأودع عندهم صكوك الأراضي التي اشتريناها من القرى الأخرى، وغاب المسافر أكثر من شهر، ثم عاد من مهمته وقد ظهرت النعمة عليه من تورد وجهه، وزيادة وزنه، فسأل صاحبه: كم أتى لنا من المال في غيابي؟ قال عطية أبو المفاهيم: لم يدخل لنا دانق ولا خردلة، فبحلق فيه صاحبه غير مصدق، وهم أن يبطش به، فناح عطية وهو يقول: أقسم لك على صحة كلامي بحياة سيدي الولي أبو الصبر، فرد عليه نائل اللئيم، وقد نفد منه الصبر، سيدي أبو الصبر! «احنا دافنينه سوا» فذهبت هذه العبارة مثلًا من الأمثال العامية المصرية، لم تنته الحكاية عند هذا الحد، فقد انكشف أمر اللصين، إذ استيقظا صباح يوم الجمعة، فأفطرا جبنًا وفجلًا من البصل والثوم، ثم ارتديا ثياب الدراويش للذهاب إلى مسجد القرية الكبير، وفي الطريق بال الاثنان أمام شجرة، فارتد البول إلى ثيابهما وترك فيهما رائحة الصنان القذرة، ثم دخلا إلى المسجد لصلاة الجمعة، وفي المسجد شم المصلون رائحة كريهة تنبعث منهما، فقد اختلطت رائحة البول مع البصل

والثوم، فأدركوا أنهما غير طاهرين، وفهموا بهذا أنهما من الدجالين، فقام الناس بضربهما، فناح عطية ونائل اللئيم من أثر الضرب، وقالا للمصلين: ما الذي فعلناه؟ ألا تدركون أننا من أتباع سيدي أبو الصبر، قال الناس لهما: رائحتكما كريهة، وهذا يخالف السنة الشريفة. فأقسم نائل اللئيم أن رائحته زكية، فقال لهما إمام المسجد وهو يوبخهما: «أبوك البصل، وأمك التوم، منين تجيك الريحة الحلوة يا مشئوم» فذهبت مثلًا، وعندما اشتد الضرب عليهما، هربا من المسجد، وركب نائل على حمار كان ينتظر صاحبه على جانب الطريق، وقال وهو يضرب برجليه بطن الحمار، يبغي الفرار «اركب المطية يا عطية» فصارت مثلًا.

■ ■ ■

في أحد مساجد الخرطوم بالسودان في الأيام الأولى من شهر إبريل عام 2013 جلس الرئيس المصري محمد مرسي مع رئيس نصف السودان عمر البشير يقرآن القرآن، نعم نصف السودان فقد أصبح السودان دولتين في ظل حكم الإخوان له، كانت بعض الروائح قد تصاعدت تؤكد أن السودان قد يتفرع منها دولة ثالثة، وكان قارئ القرآن بالمسجد قد أكد لعمر البشير أن مصر ستمنح السودان منطقة «حلايب وشلاتين». لا تثريب على مرسي حينما قرر منح البشير هذه العطية، فهما أخوان في تنظيم واحد يجتمعان معًا فيه، والتنظيم الأم لهما هو «التنظيم الدولي لجماعة الإخوان» وتحت راية القرآن من الممكن أن يفعل الساسة ما يريدون، وبالقرآن يستطيع بعضهم خديعة الأمم، وقد كانت جماعة الإخوان أكبر خديعة تعرض لها الشعب المصري عبر تاريخه، ولكن الخديعة لا تدوم.

نعم قد يخدعك بعض الناس بعض الوقت، ولكن ليس في إمكان أحد أن يخدعك كل الوقت، وحين ظهرت جماعة الإخوان على ظهر الأرض ظن الناس أنهم من أهل الله وخاصته، فالمظهر قد يخفي حقيقة الجوهر، وكلنا ننظر في الوهلة الأولى للشعارات دون أن نبحث عن المحتوى، فنظن أن فئة من الفئات أو طائفة من الطوائف هم من أولياء الله وهم يخفون في نفوسهم أمرا ويظهرون أمرًا آخر كأنه قبة عالية مزخرفة بالنقوش، فنقول كما قال أجدادنا «تحت القبة شيخ» وما هو بشيخ ولكن مسخ مشوه، نظرتنا السطحية هذه قد تقودنا إلى التهلكة إن لم نكتشف الخداع مبكرًا، أمعن النظر في الأقوال، ثم راقب الأفعال، ولا تبحث عن مبرر إذ زاد انفلات الأفعال على الحد وبلغ السيل الزبى، واعلم أنه - «ليس كل من ركب الحصان خيّالًا» وليس كل من أطلق لحيته وقرأ القرآن ورفع الأذان وصلى أمام الناس، مؤمنا حقا، ولنا في رسولنا ﷺ أسوة حسنة، فقد علمنا أن العبادة الفارغة من مضمونها مردودة على صاحبها فقال «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» ولعل أبا يزيد البسطامي هو الذي قال: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يسير على الماء فلا تركنوا له حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، وتجنبه الحرام، والكذب أعلى الحرام.

فما هي قصة الإخوان، وما موضعهم من الحكاية التي أوردتها؟ تبدأ قصة الإخوان مع حسن البنا الذي ولد عام 1906 في قرية المحمودية التابعة لمديرية البحيرة القريبة من مديرية الإسكندرية، وكان أبوه يعمل في تصليح الساعات بعد أن وفد إلى مصر من بلده الأصلي «المغرب» وعبر تاريخي كله قرأت، وأزعم أنني فعلت، كل ما أخرجته المطابع عن حسن البنا، ولكنها

كانت قراءة بعين واحدة، وقراءة العين الواحدة لا تبصر الحقيقة إذ هي قراءة متحيزة، تحذف وقت الاستقبال ما تريد، وتثبت في القلب ما تريد، لا تثبته فقط ولكن الحب يثبته ويضخمه، وقد أحببت هذا الرجل وشغفت به، وفتتت كبدي نهايته المأساوية، إلا أنني بعد سنوات من القراءة والبحث كنت أمج مغالاة الغالين،ولا أنزه نفسي عن أنني كنت في الفترات الأولى من حياتي قد وضعت الرجل في مكانة أولياء الله الصالحين الصديقين الذين لم يقترب الخطأ من حياضهم أبدًا، بهرني بذاكرته وفراسته وهمته العالية، حتى قلت في نفسي إن هذا رجل لم يقع في هفوة قط وكأنه أرقى من الصحابة أجمعين، ولعل الحب ومراتب الهوى هي التي جعلتني من المشدودين للبنا والمشدوهين به،إلا أنني بعد أن استقام عودي أدركت أن الإنصاف للرجل إنما يكون بتأديمه أي رده إلى آدميته فقد خلقنا الله من طين؛ لذلك لا ينبغي أن نحوِّل أنفسنا أو نحوِّل من نحبهم إلى ملائكة نورانيين، وتنزيه البشر إنما يكون بتعديد معايبهم وإبعادهم عن الكمال لأن الإقرار بنقائصنا هو في ذاته الإقرار بكمال الله .

انضم حسن البنا في بداية شبابه إلى إحدى الطرق الصوفية وهي الطريقة الحصافية وظل منتسبًا لهذه الطريقة طوال حياته، ومن هذه الطريقة أخذ نقطة الانطلاق، حيث تعلم من شيخها، وأخذ من شيوخها حلمي زكريا وحسن خزبك وغيرهما، ومنهم عرف السمع والطاعة والثقة في الشيخ، وأدرك أن وسيلته في إقامة تنظيم قوي محكم يدين له بالولاء لا تكون إلا بطاعة الأعضاء كما يطيع المريد شيخه، ففي الصوفية يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي من يغسله يقلبه كيف يشاء، وهكذا أصبح البنا في مقتبل أيامه وهكذا أصبح الإخوان بين يدي البنا.

استمر البنا في الطريقة الحصافية لم يغادرها بروحه أبدا، وإن كان قبلها قد انقطع عن استكمال حفظ القرآن، إذ توقف عن هذا وهو في الرابعة عشرة من عمره رغم أنه كان يتمتع بذاكرة لاقطة قوية، وكان من أثر ذلك أن فشل البنا في الالتحاق بالأزهر الشريف، فقد كانت شروط الالتحاق توجب حفظ القرآن كاملًا، وهو لم يكن كذلك، فالتحق بمدرسة دار العلوم المتوسطة التي كانت تشترط أيضا ذات الشرط، ولكن حسن البنا قال في مذكراته إنه وجد واسطة توسطت لدى مدير المدرسة فتم قبوله بها على وعد أن يحفظ القرآن كله بعد ذلك.

وتخرج الشاب حسن البنا في مدرسة دار العلوم المتوسطة بتفوق، ولسبب ما لا نعرفه ولم يكتب أحد عنه ولم يرد في مذكرات البنا، لم يستطع استكمال تعليمه في مدرسة دار العلوم العليا، فعمل كمدرس للخط العربي في مدرسة ابتدائية بمدينة الإسماعيلية، وكان اختيار حسن البنا لهذه المدينة غريبا، وكان الأغرب أن أحدًا من الباحثين لم يبحث عن سبب هذا الاختيار! إذ كان من المتبع وقتها أن الطالب الذي يتخرج بتفوق يكون صاحب الحق في اختيار المحافظة التي يعمل في مدارسها، وكان من المألوف أن يختار هذا المتخرج مدرسة في المدينة التي يسكن فيها، فالاغتراب يباعد بينه وأهله، كما كان يقتطع من راتبه ولا يوفر له حياة كريمة، خاصة أن حسن البنا وفقا للرسائل التي كان يرسلها لأبيه وهو في الإسماعيلية، والتي جمعها شقيقه جمال البنا في كتاب، كان يشتكي من الفاقة، لا شك أن هذا الاختيار يضعنا أمام علامات استفهام محيرة، فهل كان اختيار هذا المكان متفقا عليه مسبقا مع جهات ما؟ خاصة أن مدينة الإسماعيلية كانت مقرا لشركة قناة السويس وإدارتها الأجنبية، علم ذلك عند الله!

وبدأ البنا في الإسماعيلية عام 1928 بناء جماعته، جماعة الإخوان، كان حسن البنا يحمل ذكاءً فطريا يعرف أن المصري متدين بطبيعته يرتجف قلبه عند ذكر الرسول ﷺ ويحب آل البيت حبا جما، فلم يتجه البنا للذين يذهبون للمساجد، وإنما ذهب أول ما ذهب إلى من لا يذهبون إلى المساجد، وفي المقاهي كانت غزوته الدعوية الأولى «غزوة المقاهي» فقد فوجئ البسطاء - من الحرفيين وصغار التجار الأميين - من رواد المقاهي البلدية برجل من الأفندية يرتدي ملابس أفرنجية يقف متكئًا على أحد المقاعد يخطب فيهم خطابا دينيا بسيطا،واستمر على ذلك أياما حتى اشتهر أمره بين الناس وتحدثوا عن «خوجة» الخط العربي الذي يعظهم في المقاهي، ومن المقاهي إلى المساجد الصغيرة كان مراحه ومغداه،وبعد أيام معدودات نجح البنا في أن يجمع حوله عددا من رجال الإسماعيلية من أصحاب الحرف البسيطة، ظل يتزاور معهم ويبثهم خواطره الإيمانية فترة، ثم آن الأوان لتكون البذرة الأولى للجماعة.

كان الاقتراح اقتراحه وكانت الفكرة فكرته: علينا أيها الإخوة أن نُنشئ جمعية لنا، فلتكن جمعية الإخوان المسلمين،واستقبل الجمع الذي معه اقتراحه باستحسان، فهو قائدهم وهم رجاله، فكان عام 1928 هو عام التأسيس الرسمي لجمعية الإخوان المسلمين،كان كل غرضها الظاهر هو الدعوة لله، وكان الداعية هو الشاب حسن البنا، وحين بدأ البنا في إنشاء مسجد بالمدينة يعلوه مقر للجماعة (وقبل أن يتم بناء المسجد بقليل وقد أوشكت النقود المجموعة أن تنفد، وأمامنا بعد مشروع المسجد مشروع المدرسة والدار وهي من تمامه بل كلها مشروع واحد تصادف أن مر البارون دي بنوا مدير شركة

القنال ومعه سكرتيره المسيو بلوم فرأى البناء فسأل عنه وأخذ عنه معلومات موجزة، وبينما أنا في المدرسة إذ جاءني أحد الموظفين يدعوني لمقابلة البارون بمكتبه بالشركة فذهبت إليه فتحدث إلي عن طريق مترجم بأنه رأى البناء وهو يود أن يساعدنا بتبرع مالي وهو لهذا يطلب منا رسمًا ومذكرة للمشروع، فشكرت له ذلك وانصرفت ووافيته بعد ذلك بما طلب ومضى على ذلك شهور كدنا ننسى فيها البارون ووعده.ولكني فوجئت بعد ذلك بدعوة ثانية منه إلى مكتبه، فذهبت إليه فرحب بي ثم ذكر لي أن الشركة اعتمدت مبلغ خمسمائة جنيه مصري للمشروع، فشكرت له ذلك، وأفهمته أن هذا المبلغ قليل جدًّا ولم يكن منتظرًا من الشركة تقديره لأنها في الوقت الذي تبني فيه على نفقتها كنيسة نموذجية تكلفها 500000 خمسمائة ألف جنيه أي نصف مليون جنيه تعطي المسجد خمسمائة جنيه فقط، فاقتنع بوجهة نظري وأظهر مشاركتي فيها ولكنه أسف لأن هذا هو القرار، ورجاني قبول المبلغ، على أنه إذا استطاع أن يفعل بعد ذلك شيئًا فلن يتأخر. وشكرت له مرة ثانية وقلت إن تسلم المبلغ ليس من اختصاصي ولكنه من اختصاص أمين الصندوق الشيخ محمد حسين الزملوط الذي تبرع وحده بمثل ما تبرعت به الشركة وسأخبره ليحضر لتسلمه، وقد كان. وتسلم أمين الصندوق المبلغ)[1].

والذي يلفت النظر في هذه الفقرة التي رواها لنا حسن البنا، أن مبلغ التبرع كان قدره خمسمائة جنيه مصري، أي ما قيمته وقتها خمسمائة وخمسة جنيهات من الذهب، هل تعلمون كم يوازي هذا المبلغ الآن وفقا لسعر

(1) مذكرات الدعوة والداعية لحسن البنا.

الذهب؟ يسـاوي مليونًـا ونصف مليون تقريبًا! في الوقـت ذاته فإن ما ذكره البنـا عن قيمة تبرع الشركة لبناء كنيسـة هو من الأمور التـي بثها في مذكراته حتى يُسـيغ لنفسه - أمام الناس في الحال والاستقبال - قبوله هذا التبرع من محتـل وضع يده على البلاد قهرا،إلا أنه وقـع في مبالغة ممجوجة حينما ذكر أن الشركة تبرعت لكنيسـة بنصـف مليون جنيه، وهو مبلغ تُبنـى به وقتها مدن كاملـة، ويبـدو أنه عقد هذه المقارنة ليهون بها من قيمة المبلغ الذي تلقاه وقلة أثـره، حتـى إنه ذكر أن أحد المتبرعين تبرع للمسـجد بخمسـمائة جنيه أيضًا، وكأن هـذا المبلـغ كان متوافـرا لـدى عمـوم النـاس يدفعونه لأنـه من فضل أموالهـم! إذن ما الذي دعاه إلى ذكر قصة هذا التبرع «المشـبوه»؟ لم يذكر البنا هذه القصة إلا لأنها كانت حديث السـاعة في مدينة الإسماعيلية، تحدث بها كل الناس، وحدث بين الإخوان بسببها شقاق أدى إلى انشقاق بعض الإخوة الذيـن انضموا للجماعة، فـكان على البنا أن يكتبها - مـا دامت قد أصبحت معروفة - بطريقة تبرئه، فكانت طريقة سرده تبدو وكأنه يدافع عن نفسه.

ولكـن السـؤال المهم هو: من الذي عرض التـبرع؟ هل الشركة هي التي عرضته من تلقاء نفسها حبًّا في فعل الخير؟! أم أن حسن البنا هو الذي طلب ذلك وقدَّم من أجل هذا رسما هندسيًّا شفعه بالطلب؟

الإجابـة نلجـأ فيهـا للمنطق والاسـتقراء، فـإذا كانت الشركـة هي التي بـادرت بالتـبرع دون أن يقـدم لها البنـا طلبا بذلك لـكان عليه وفقـا للخلق القويـم أن يقبـل التبرع دون أن يعاتـب المتبرع بقلة التـبرع، ودون أن يعايره بأنـه تـبرع في موضع آخـر بمبلغ أكبر، هذا أمر لا يحدث أبـدا في هذا الظرف الإنساني، ولكن المساومة التي حدثت لا تكون إلا عندما يكون هناك عرض

يتدارسه طرفان، يقول أحدهما للأول سأدفع لك مبلغًا قيمته كذا، فيقول الثاني للأول هذا مبلغ بخس لا يكفي للمطلوب الذي سأقدمه لك، وتنتهي المساومة بوعدٍ بدفع مبلغ آخر في المستقبل، وقبولٍ من المساوم للمبلغ، إلا أنه لكي يوضح أنه غير راضٍ عن القيمة قال للمتبرع إنه سيرسل له المختص كي يستلم المبلغ! وقد حدث!! مع أن البنا كرئيس للجمعية، وكشخصية عُرف عنها أنها شخصية مركزية، ظل عمره في إدارته للجماعة يجمع كل الخيوط في يده، لذلك كان في إمكانه ومن حقه أن يستلم المبلغ بنفسه، خاصة أن الجمعية وقتها لم يكن لها لائحة تضبط ما يتعلق بالاختصاصات.

تثير هذه القصة فروضًا كثيرة متشابكة؛ إذ إن البنا حين كتبها لم يقم بصياغتها بشكل منطقي، ولكنك، لركاكة العرض، تشعر أنك أمام تلفيق في تلفيق، ومن التلفيق الواضح هذه الفقرة الأخيرة من قصة هذا التبرع، تعوَّد البنا في حياته أن يقذف حجرا واحدا ليجني به أكثر من ثمرة، لذلك فإن رفضه استلام المبلغ بنفسه يأتي في سياق إظهار الغضب من قلة قيمة التبرع، إلا أنه أيضا كان حريصا على أن يكون خبر هذا التبرع في أقل عدد ممكن من جماعته حتى لا يحاجه به أحد، فالمفروض أن المسجد قد انتهى تشنييده، وقد يظهر في المستقبل أحد السياسيين ويتهم البنا بتلقي تمويل من الإنجليز والفرنسيين، ويُظهر من أجل ذلك إيصال استلامه للمبلغ، لذلك يجب أن يوقع شخص آخر غيره على إيصال الاستلام، ولكن الله أراد أن تشيع قصة التبرع عند الإخوان وغيرهم، لذلك بحث البنا عن طريقة يبرر فيها سبب هذا التبرع وقلة قيمته وعدم جدواه، وأنه كان من تلقاء الشركة لا بناء على طلب منه، وكان من أجل الخير وبناء مساجد للعبادة، وقتها من الممكن أن نستسيغ القصة.

ولنا أن نسـأل أنفسـنا: هل الشركات التابعة للاسـتعمار الباغي تبادر إلى التبرع لأشـخاص في الدولة المستعمَرة لفعل الخير؟! التاريخ المصري يجيب علينا قائلا: «لم يسـبق لشركة قناة السويس التي كانت تابعة للإدارة الأجنبية أن تبرعـت في الإسـماعيلية أو غيرها لأي عمل من أعـمال الخير، وإنما كانت هـذه الجهات تقوم بالاتصـال بالعملاء وتكليفهم بمهام، وسـداد مكافآتهم وفقا للمهام المسـندة إليهم وقد تعيدنا هذه الإجابة إلى السـؤال الأول الذي طرحناه وهو: لماذا اختار البنا مدينة الإسماعيلية ليعمل في مدرستها الابتدائية بدلا من أن يعمل في مدرسة المحمودية التي هي بلده! أظن الإجابة واضحة، ولعلنا نتوسـع ونقول إن عدم اسـتكمال البنا تعليمه في المدرسة العليا - رغم تفوقه - قد يكون في الغالب الأعم لهذا السبب، وكأن هناك من كان كامنا في مكان لا نراه ولم يسـجله التاريخ قال للشاب الصغير حسن البنا: كفى تعليما فقد بدأ وقت الجد ، هذا وقت عملك المرسوم لك!

ولسنوات قليلة ظلت الجمعية في حضن مدينة الإسماعيلية إلى أن قيض الله للبنا أمرا وتم نقله إلى القاهرة، فانتقلت الجماعة معه وإن ترك في الإسـماعيلية إخوانه الذين بدأ معهم، تركهم وهم يشتجرون فيما بينهم أيهم يكفل الجماعة ويكون مسئولًا عنها في تلك المدينة الصغيرة؟

وفي القاهـرة كانـت أيام حسـن البنا وجماعته في مرحلتهـا الثانية،كان كل همه هو أن يُنشئ شُعَبا لجماعته في كل أنحاء البلاد،وتفرعت الجماعة وتشعبت حتى تشبعت بها الأقاليم، وبطريقته الدمثة الحماسـية نجـح البنا في أن يضم إلى جماعتـه أقطابـا من العلماء مثل الشـيخ «طنطاوي جوهـري» أحد عباقرة المصريـين في القـرن العشرين،وفي القاهـرة أيضا كان من اليسـير على البنا أن

يلتقي يوميا بالشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب،ومعهما التقى بحافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز آل سعود، ثم سافر إلى الحج، ويحكي رفاق البنا في هذه الرحلة أنه التقى فيها بالملك السعودي ملك المملكة الناشئة، ومن بعد هذا اللقاء أصبح شعار الجماعة هو «المصحف والسيفين» وشعارها الآخر هو «الله أكبر ولله الحمد» وكأن البنا عهد على نفسه أن ينتقل إلى كل الأشجار ليقطف من كل شجرة ثمرة.

وشيئا فشيئا اتجهت بوصلة البنا الدعوية إلى طريق آخر، فمع مؤتمرات الإخوان ورسائل البنا كانت السياسة، وكانت شمولية الجماعة،فمع اختلاط مفهوم الجماعة عند البنا مع مفهوم الدعوة والإسلام والدعوة كان ولابد أن يتجه البنا بجماعته ناحية الشمول فالإسلام الشامل لا يقيمه في ظنه إلا جماعة واحدة على شرط أن تكون هي الأخرى شاملة ،مع أن الإسلام ليس هو الجماعة!

ولأن للسياسة طرقها ووسائلها، حاول البنا أن يقترب من الملك فؤاد، وحين مات نعاه البنا، وكتب في صحيفته يمهد الطريق للملك الجديد عبارة كررها التاريخ كثيرا هي: «مات الملك عاش الملك» ثم قام هو وجماعته بتنظيم استقبال حافل للملك الجديد فاروق، هتفوا بحياة المليك الجديد، وبايعوه، وكتبوا في مجلتهم عن المجد الذي ينتظر الإسلام من خلاله،واستمرت علاقة البنا بالملك طيبة فترة ثم سرعان ما تعكر الماء بينهما ثم دخل الوفد في دائرة الخلاف،وراهن البنا حينا من الدهر على رئيس الوزراء إسماعيل صدقي الملقب «عدو الشعب» فناصره ووقف معه ضد رغبة الشعب كله، وسرعان ما أصبحت كل الأحزاب في خلافات مع البنا وجماعته، فأصبح يمج الحزبية

ويكره الأحزاب فلا حزب عنده إلا جماعته التي من شأنها أن تقيم شرع الله، وتعود لنا بدولة الخلافة ولا حزبية إلا للإسلام.

يقول البعض إن الخطأ الأكبر للبنا هو أنه دخل في أتون السياسة، أما أنا فأقول إن الخطأ الأكبر له هو تأسيسه للنظام الخاص عام 1939، فبعد وفاة الشيخ طنطاوي جوهري الذي كان يرفض العمل المسلح، أنشأ البنا تنظيما مسلحا لجماعته المدنية،كان هذا التنظيم سريا لا يعرف أحد عنه شيئا حتى من قيادات الجماعة.. وأطلق عليه النظام الخاص، ولا أظن أبدا أن شخصية مركزية مثل شخصية حسن البنا، تمرس على أن تكون كل الخيوط في يده، يترك الحبل على الغارب للنظام الخاص يفعل ما يشاء دون علمه، بل إن تحقيقات الإخوان أنفسهم في حضرة البنا وفقا لما أورده عبد العزيز كامل في مذكراته، وهو من هو قُربا لحسن البنا وحبا له، أثبتت مسئولية البنا عن اغتيال المستشار الخازندار الذي كان قد أصدر حكما على بعض الإخوان، وكان اغتيال النقراشي باشا رئيس وزراء مصر هو الرصاصة التي انطلقت فيما بعد إلى قلب حسن البنا فأودت به.

■ ■ ■

قبل أن أدخل إلى قلب جماعة الإخوان، وبعد أن دخلت، وإلى اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، وحلم الخلافة واستعادتها هو الذي يسيطر على قلب الجماعة، عشنا في هذا الحلم وانغمسنا فيه حتى النخاع، رسمنا في ضمائرنا صورة وردية له، ما أجمل هذه الصورة وما أبهاها، أمن الممكن أن يتحول الحلم إلى حقيقة؟ الحلم الذي استولى على قلبي وقت أن كنت صغيرا وأنا أحث الخطى

للدخول إلى تلك الجماعة، هو أن ننشئ خلافة مثل الخلافة الراشدة، ولكن أحيانا تكون أحلام الصغار كبيرة، وأحلام الكبار صغيرة، أحلام الصغار غالبا طاهرة خالية من المنافع والمصالح والدنيا، ممتدة بلا حدود، لا تعرف المستحيل، فهم في سنهم هذا في أوج العاطفة الدينية البريئة، أما أحلام الكبار سدنة المعبد ففيها مآرب أخرى، ولكي يستمر ركب الصغار في مسيرتهم وراء السدنة يجب أن يظلوا على حلمهم الوردي، لا تبديل له، لذلك يظل الكبار على تصدير ذلك الحلم بصورته النقية إلى الأذهان وإلا انفض الجمع من حولهم.

وبعد سنوات وحين يكبر الصغير أو يقترب من دائرة الكبار يجد أن الأمور كانت مختلفة، ويكتشف أنه كان يعيش في حلمه الخاص، أسطورته الذاتية، وأن السدنة لهم رؤية أخرى وعالم آخر ليس من السهل أن يلج فيه الصغار، فإذا كبروا ذات يوم ودخلوا عرفوا، وإذا عرفوا إما أن يقبلوا الواقع الذي كانوا يجهلونه، وإما أن يتمردوا عليه، فإذا تمردوا عاشوا زمنا على وهم، أن يكون حلمهم هو حلم الجماعة كلها بصغارها وكبارها، ولكن ذات يوم يطولهم اليأس.

الحقيقة التي تظل مخفية زمنا هي أنهم لا يريدون خلافة إسلامية، ولكنهم يريدون خلافة إخوانية، الخلافة التي يريدها كبار الإخوان هي خلافة على شكل الخلافة الأولى ورسمها، دون أن تكون على منهاج النبوة، ويالها من مسافة شاسعة تلك التي بين الشكل والمنهج!

لم تكن عقولنا حين كنا صغارا قد استوت على سوقها ونضجت، فلم نر إلا حلمنا ولم نر العالم كله، لم ندرك أن الواقع الآن غير واقع العصور الأولى، والأحكام تتغير بتغير الزمان، وشكل أنظمة الحكم في العالم في زمن

الخلافـة يختلف عن شـكل أنظمة الحكـم في واقعنا، فـإن كان لا ضير من أن ننشـد توحدا للأمة «واعتصموا بحبل الله جميعا» إلا أن هذا الاعتصام ينبغي أن يكـون أول ما يكون في مقاصد الشريعة، فكيف تعود الخلافة على شـكل الخلافـة الأولى وهـي تخاصمها في العدل والمسـاواة والحرية، سـتكون آنذاك كبيت العنكبوت، أو سـتصبح «خلافة ضرارا» كمسـجد الضرار، ستعود بنا إلى خلافة «الرجل المريض».

ولأننـا وقعنـا تحت دائـرة اسـتخدام المصطلحات في غـير موضعها، فقد أطلقنـا عـبر تاريخنـا مُـسـمى الخلافة عـلى شيء آخـر لا علاقة لـه بالخلافة، الخلافة فقط كانت هي الخلافة الراشـدة، وانتهت بقتل سـيدنا علي رضي الله عنـه، أما ما جاء في واقـع الأمة بعد ذلك فلم يكن خلافة، ولكنه كان «حُكم أسَر» حيـث حكمـت الأسرة الأموية ثم العباسـية وكانت نهاية حكم الأسر عـلى يد الأسرة العثمانية، ولكننا كنا نطلق عـبر تاريخنا على حكم الأسر هذا، دولة الخلافة! لذلك فإن حلم السدنة هو أن ننشئ حكم «الأسرة الإخوانية» التي سـتكون اسـتعادة لا للخلافة الراشدة ولكن لحكم الأسر التي حكمت تحـت راية الخلافة، ولكي نكون أسرة ونحـن لا يجمعنا أصل واحد، فيجب أن تكـون هناك رابطة تجمعنا، ولتكن رابطـة الأخوة في الله، وما أعظمها من رابطـة، وللأخوة في الله أحـكام، لذلك فإن البناء القاعدي الأدنى في الجماعة هـو «الأسرة» فنعيـش ردحا من الزمن على أننا فعلا أخوة، وأننا في أسرة هي أقـرب إلينا من حبل الوريد، أخي في الأسرة أفضل عندي من أخي في الدم، ولكن أخوة الإخوان لا تدوم لأنها في حقيقتها ليست أخوة في الله، ولكن في التنظيم، بحيث إذا خرج واحد من التنظيم خرج من دائرة الأخوة.

عندما نشأت جماعة الإخوان عام 1928 كان حكم الأسرة العثمانية قد انقضى، إذ كان مصطفى أتاتورك قد فصم عراها، وساعده في ذلك الضعف الذي اعترى الدولة العثمانية، وحين أنشأ حسن البنا الجماعة وضع لها «خارطة طريق» تغيرت الدنيا ولم تتغير الخارطة، زالت دول وقامت حروب عالمية وظهرت دول جديدة تسيدت العالم ونشأت «عصبة الأمم» ومن بعدها «الأمم المتحدة» وظهرت منظمات اتحادية كجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ولم يتطور فكر الإخوان المسلمين، لا يزالون يتحدثون عن دولة الخلافة التي ستصل إلى أستاذية العالم، يصنعون منها كعبة، وما كانت كعبة ولكنها هي «الوعاء الإنساني والمجتمعي» الذي من شأنه إقامة معاني الإسلام ومقاصده، بدّلوا الوعاء وغيروا شكله كما شاء لكم الاجتهاد، ولكن لا تهدموا المقاصد من أجل الأوعية، فما قيمة الوعاء إذا كان خاليا إلا أن تتزين به الموائد.

وعاء الإخوان الخالي احتوى في داخله على اسم المُنتَج، لا تظن أن المُنتَج هو «نبحث عن حكم من أجل إقامة الدين واستعادة الخلافة» ولكنه كان ولا يزال «نرفع شعار الدين والخلافة من أجل الحكم»؟ لذلك فإن رحلتهم لم تكن من أجل الدين والخلافة الإسلامية الراشدة أبدا، ولكنها كانت من أجل الحكم وإقامة الخلافة الإخوانية، وفارق كبير بين هذا وذاك، وذات يوم وصلوا إلى الحكم!

رحلة الوصول للحكم لم تكن سهلة ولا هينة، بل كانت طويلة وشاقة، وأشهد أن الجماعة كانت دءوبة، لم تتوان عن استخدام كل الطرق من أجل مبتغاها، ولكنها في كل مرة قبل أن تصل إلى القمة إذا بصخرة الحكم تنزلق من على ظهرها إلى أسفل الجبل، فتهبط هبوطا اضطراريا لتتحمل الصخرة

مـرة أخرى وتصعد إلى قمة الجبل، وقبل أن تضع صخرة الحكم في موضعها وتجلس متكئة عليها تعود الصخرة للانزلاق، تماما مثل سيزيف في الأسطورة الإغريقية، ولكن سيزيف ظل في عذابه هذا إلى الأبد بسبب غضب آلهته منه، بينـما آلهة الإخـوان أخذت موقفا مختلفا ورضيت عنهـم فمهدت لهم الطريق ليكونوا على رأس الدولة المصرية وبعض دول عربية محددة.

كانـت رحلـة الوصـول للحكم التـي قطعها الإخوان مكلفة لا شـك في ذلـك، ولكنهـا أيضا كانت بمثابة فترة اختبار، فقد وضعتهم آلهتهم سـنوات طويلة تحت اختبارات عديدة، وفي كل مرة كانت علاماتهم أقل من المتوسط، ولكنهم كانوا يكتسبون خبرات عديدة مرة بعد الأخرى، إلى أن حان الحين، ولكـن هـل كانت بداية الإخـوان حقيقة قد بدأت عـام 1928 أم أن البداية كانت قد بدأت سرا في مكان ما؟

ذات يـوم مـن الأيـام الأولى من عـام 1920، طـرأت فكرة عـلى خاطر «ألفرد ملنر» مدير المسـتعمرات البريطاني، كان هذا الرجل شـخصية محورية في بريطانيا، وكان قد عمل في مصر في نهاية القرن التاسع عشر مساعدا لوزير الماليـة الـذي كان وقتهـا إنجليزيًّا، اسـتمر ملنر في مصر أربع سـنوات كاملة أصبح خلالها عارفا بخريطة مصر الجغرافية والسياسية، وحين قامت الثورة المصرية الأولى عام 1919 تُطالب بالاسـتقلال، رأت إنجلترا أن ترسل هذا الرجل - الذي كانت له مكانة سياسـية كبيرة هناك، إلى مصر على رأس وفد إنجليـزي كي يدرس أسـباب الثـورة وكيفية تجنبها، هبط ملنـر وهو يرتدي بزتـه الإنجليزية الأنيقة من سـفينته إلى أرض مصر كـي يقوم بمهمته هذه في ديسـمبر من عام 1919، وظل بها إلى آخر مـارس 1920، تقابل خلالها مع

عـدد محدود من القيادات التنفيذية والسياسـية في مصر كان منهـم عدلي يكن باشـا رئيـس الوزراء؛ إذ إن سـعد زغلول أرسـل من منفـاه إلى كل القيادات السياسية في مصر طالبا منها أن تقاطع لجنة ملنر، المقاطعة هي الحل، يجب أن ينقطع كل الشعب عن مقابلة هذا الرجل حتى نُجبر الإنجليز على إعادة سعد زغلول من منفاه، لا تفاوض إلا مع سعد، كل من كان يقابله ملنر كان يقول له: اسـأل سعد، سعد هو من يمثلنا، وحين ظن بعض الساسة والمؤرخين أن لجنة ملنر قد باءت بالفشـل الذريع، كان ملنر قـد حقق نجاحا مدويا إذ كان المثل القائل «كل الطرق تؤدى إلى روما» هو خط سيره في مصر.

حينما كان ملنر في مصر جلس مع اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني، وتداولا، وتشـعب بهما الحديث، ويبدو أن الفكرة اختمرت في ذهنيهما آنذاك «فليكن لهما الاستقلال الذي يريدون» ولكننا سنخفي أمرا!

عـاد ملنـر إلى بريطانيا، وتقابل مع رئيـس الوزراء «ديفيـد لويد جورج» وأفضى إليه بما حدث له في مصر من إعراض، وأسر له بالفكرة التي اعتملت في ذهنـه بعدمـا التقى مـع «اللنبي» وعندمـا خرج من مقابلـة رئيس الوزراء أجرت معه جريدة «مانشستر جارديان» حوارا قصيرا، قال فيه: «إنه لا يمانع من منح مصر الاسـتقلال بشرط عدم تعريض مصالـح بريطانيا للخطر» ثم أضـاف: «إن اللـورد اللنبـي وافقنـي على رأيـي حتى ولو كنا سـنمنح مصر استقلالا كاملا فإن هذا لا يضيرنا في شيء»[1].

سألته الصحيفة: «وما هي خطتكم في الحفاظ على مصالح بريطانيا؟»

(1) جريدة مانشستر جارديان يوم 25/ 4/ 1920.

أجـاب: «تكمن خطورة المصريين في وحدتهم، ولذلك كانت ثورة سـعد زغلـول ورفاقـه قويـة لأن مصر أصبحت الـكل في واحد، هـم يريـدون بناء دولـة حديثة لها اسـتقلال كامل، وليكن ولكننا لـن ندعهم يكررون الكل في واحد.»

قالت الصحيفة: «كيف ؟».

رد ملنر: «هناك من قال إن الدين أفيون، ولكنني أؤكد أن الدين قنبلة».

الصحيفة: «لم نفهم شيئا من إجابتك سيدي!».

ملنر: «ملكوت الله في السـماء هكذا نعرف، وملكوت الناس في الأرض، فلننزل لهم الرب ليحكم الأرض، ولكنه سيفرقهم».

الصحيفة: «هذا كلام فلسـفي لكننا لا نفهم منه شـيئا، كيف سـتنزل لهم الـرب مـن السـماء؟ وماذا سـيفعل لهـم الرب؟ وهـل الرب يعمـل لمصلحة الملك؟»

ملنر: «لا أسـتطيع الإيضاح أكثر من ذلـك ولكن ليعلم الجميع أن الرب يعمل لمصلحة بريطانيا وسـيكون له دور في استمرار وصايتنا على مصر حتى ولو حصلت على استقلال كامل».

انتهى كلام ألفرد ملنر لصحيفة مانشسـتر جارديان، وقد أخرج صحفي اسـمه «جورج هيلر» هذا الحوار في كتاب طبعه عام 1932 اسـمه «بريطانيا والعالم» تحدث فيه عن سياسـة بريطانيا في مستعمراتها ومنها سياسة بريطانيا تجاه المملكة المصرية.

الآن نستطيع إكمال المعلومات استقرائيا، فكما في عالم كرة القدم مهنة قديمة اسمها «الكشاف» يقوم فيها هذا الكشاف بالترحال في البلاد للبحث عن شاب صغير موهوب في لعبة الكرة، فهناك في عالم السياسة والمؤامرات والمخابرات كشاف يجوب العالم للبحث عن موهوب ينفذ خطة المدرب الأجنبي.

الآن نستطيع الإجابة عن الأسئلة التي أوردها البنا في مذكراته ولم نجد لها إجابة منطقية من قبل ، وهاك الأسئلة التي ظلت تبحث عن إجابة:

1- لماذا قرر البنا عدم إكمال تعليمه العالي رغم تفوقه وقرر العمل بالتدريس بشهادته المتوسطة التي لا تبيح له إلا العمل كمدرس للخط العربي؟
2- لماذا قرر البنا أن يعمل في مدينة الإسماعيلية التي كانت مقرا لشركة قناة السويس وإدارتها الأجنبية؟ ولماذا فضل أن يبتعد عن أهله ومدينته أو حتى مدينة القاهرة التي كانت طموح الريفيين من أصحاب الهمم العالية والرغبة في البذوخ؟
3- من الذي وجهه لهذا الاختيار؟
4- لماذا تبرعت الإدارة الأجنبية لشركة قناة السويس لحسن البنا بمبلغ خمسمائة جنيه وهو مبلغ ضخم بمعايير العشرينيات؟ ولماذا اعترض البنا على قلة قيمة هذا التبرع رغم ضخامته؟!

ولنعد إلى ثورة 1919 وما تلاها لنعرف كيف فكر ملنر، ولماذا وافقه رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج.

كانت مصر قد بدأت تأخذ خطواتها في طريق المدنية الحديثة، وتعالت الأصوات من رجالها تطالب بالاستقلال الكامل، وخرجت النساء لأول

مرة في تاريخ مصر في مظاهرات تشارك فيها الرجال في المطالبة بالاستقلال ذلك الحلم المنشود لمصر، وها هو الشاعر الكبير حافظ إبراهيم يكتب قصيدته الشهيرة عن ثورة النساء:

خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهن

كانت كل مصر وكأنها قد تجمعت على قلب واحد يقول: إن مصر دولة ذات حضارة ضاربة في أعماق التاريخ، ولا ينبغي أبدا أن تظل رهينة في يد الاحتلال،حتى ولو كانت إنجلترا إمبراطورية عظمى، فإن مصر بتاريخها وعمقها الحضاري أعظم، ولكن موازين القوة لا تعترف بالماضي، هي تعرف الحاضر فقط.

ومع الرغبة الجارفة في الاستقلال عن إنجلترا، كانت هناك رغبة أخرى كامنة في الضمير المصري بالاستقلال من الدولة العثمانية، ولكن كان هناك أنصار للدولة العثمانية باعتبارها دولة خلافة إسلامية، والإسلام هو الحل، والخلافة فريضة.

انتهت فاعليات الثورة وقبلت الحكومة البريطانية آراء ملنر، وأصدرت الحكومة البريطانية تصريح 28 فبراير 1922 الذي أعلن من طرف واحد استقلال مصر، إذ لم يكن هناك في مصر وقتها من وافق على توقيع معاهدة مع الإنجليز، لذلك جاء بيان الاستقلال هذا على شكل تصريح، وينص التصريح على:

إلغاء الحماية البريطانية على مصر والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة.

إلغاء الأحكام العرفية.

تهيئة البلاد لحياة دستورية برلمانية عن طريق وضع دستور للبلاد وانتخاب أعضاء برلمان مزدوج أي بمجلسين.

ولكن مع تحفظات أربعة:

- تأمين المواصلات البريطانية في مصر.
- الدفاع عن مصر ضد أي هجوم عليها.
- حماية المصالح الأجنبية و حماية الأقليات.
- تستمر أوضاع السودان على ما كانت عليه.

نـزل هـذا التصريـح على قلب السـلطان فؤاد بردا وسـلاما، الآن يسـتطيع أن يتخذ لنفسـه لقب «جلالة الملك» ويصبح كجـورج الخامس ملك إنجلترا، فليس وحده هو الملك ولكن فؤاد أيضا كذلك، وفي 31 مارس 1923 خرجت أنفـاس المصريين من صدورهم وهي تحمل زفير الفرحـة، فقد تم في هذا اليوم الإفراج عن سـعد زغلول و رفاقه، فسافر سعد إلى فرنسا، ثم سُمح له بالعودة إلي مصر فعـاد في 18 سـبتمبر 1923، وخـرج المصريـون في كل المدن والقرى يغنون أغنية سيد درويش التي لحنها احتفالا بعودة سعد - ولكنه قد مات قبل عودة سعد بثلاثة أيام - وهي «سالمة يا سلامة رحتي وجيتي بالسلامة».

وسـط هذه الأحداث صدر دسـتور 1923، وضح فيـه أن مصر أخذت طريقهـا لبنـاء دولتهـا الدسـتورية الحديثـة التي لها خلفيـة مرتبطـة بالوطن والتاريخ، وقد جاء في ديباجة هذا الدستور:

(نتطلب الخير دائما لأمتنا بكل ما في وسعنا ونتوخى أن نملك بها السبيل التـي نعلم أنها تفضي إلى سـعادتها وارتقائها وتمتعها بـما تتمتع به الأمم الحرة

المتمدينـة، ولمـا كان ذلـك لا يتـم على الوجـه الصحيـح، إلا إذا كان لها نظام دسـتوري كأحد الأنظمة الدسـتورية في العـالم وأرقاها تعيش في ظله عيشـا سـعيدا مرضيا وتتمكن به من السير في طريق الحياة الحرة المطلقة، ويكفل لها الاشتراك العملي في إدارة شئون البلاد والإشراف على وضع قوانينها، ومراقبة تنفيذها، ويترك في نفسها شعور الراحة والطمأنينة على حاضرها ومستقبلها، مع الاحتفـاظ بروحها القومية والإبقاء على صفاتها ومميزاتها التي هي تراثها التاريخي العظيم، وبما أن تحقيق ذلك كان دائما من أجل رغباتنا ومن أعظم ما تتجه إليه عزائمنا حرصا على النهوض بشعبنا إلى المنزلة العليا التي يؤهله لها ذكاؤه واستعداده وتتفق مع عظمته التاريخية القديمة وتسمح له بتبوُّء المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين وأممه).

انحاز الدسـتور لدولة يتم تنظيم مؤسسـاتها على النسـق العالمـي الحديث، لها جهات تشريعية تملك الحق في التشريع لنفسها وإصدار القوانين، لها سلطة قضائية، تراقب تطبيق القانون وتعمل على تنفيذه على الوجه الصحيح، ولها سلطة تنفيذية تضبط كل ما يتعلق بإدارة البلاد، مصر الحديثة في هذا الدستور قوميتها عربية.

أجريـت انتخابـات البرلـمان والشـيوخ عـام 1924 وحلف الملـك فؤاد اليمين الدسـتورية أمام المجلسـين في دور الانعقـاد الأول، وكان رأي بعض من عاصروا هذه التجربة أن (بدأت انقسـامات المصريين فبدلا من أن نكون يدا واحدة ضد الإنجليز الذين أعطونا اسـتقلالا منقوصا، انشـغلنا بالمنافسة والنزاع والخصام لاكتساب مقاعد بالمجلسين)[1].

---

(1) الكاتب الكبير فكري أباظة في كتابه «الضاحك الباكي» طبعة سنة 1933 وقد كان فكري أباظة واحدا من أصغر أعضاء برلمان 1924 سنًّا.

وفي عام 1925 خرج للوجود كتاب فَجَّرَ مصر من الداخل، هو كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق[1] - أثار الكتاب ضجة كبرى في مصر والعالم العربي كله حيث جاء فيه «إن الإسلام لم يضع لنا شكلا للحكم، ولم تكن الخلافة فريضة ولكنها كانت تناسب عصرها فقط، ليس المهم عندنا شكل الحكم ولكن المهم هو أن يحقق نظام الحكم الذي نتخيره مقاصد الشريعة» كانت الطامة الكبرى عند البعض أن الشيخ علي عبدالرازق تطرق للخلافة، ونفى فرضيتها أو فريضتها، فقام الأزهر الشريف بسحب شهادة العالمية منه عقابا له على رأيه، وكتب عشرات الكتاب منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا عشرات الكتب التي تحاول تفنيد رأي علي عبدالرازق، وكتب العشرات أيضًا كتبًا تؤيده فيما ذهب إليه.

وضح من هذه المعركة أن مصر انقسمت فعلا إلى فريقين، فريق يقول: إن الخلافة فريضة، وهي فريضة حتمية، ولا خيار لنا فيها ولا حق لنا في تبديلها ويجب أن تكون على شكل الخلافة الراشدة، وهي خلافة ممتدة لا حدود لها ولا أرض ولا وطن، إذ المستهدف منها الوصول إلى غاية واحدة هي السيطرة على العالم كله، فحيثما كانت أي أرض يصدح فيها الأذان فهي تابعة للخلافة الإسلامية، لا فرق بين عربي ولا أعجمي، وطننا في السماء، وطننا هو لا إله إلا الله، ولا عبرة بالأرض ولا الحدود، وكان هذا الفريق يقوده كبار علماء الدين مع بعض الوزراء والشخصيات العامة التابعة للملك فؤاد الأول الذي كان طامحا إلى الخلافة بعد أن انقضت الدولة العثمانية.

---

(1) الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الأزهر الكبار ولد عام 1888 وتوفي عام 1966 وقد كان الشيخ علي عبد الرازق من تلاميذ الإمام محمد عبده ومن أصدقاء قاسم أمين.

أمـا الفريق الآخـر فيقول: «ليس هناك شـكل للحكـم، ونحن نعيش في وطن عربي له أصول فرعونية، نستمد عاداتنا وتقاليدنا من تاريخنا ومجتمعنا، ولنـا الحـق في أن ننشـئ لأنفسـنا نظـام الحكـم الـذي يتوافق مـع مصالحنا، فالرسـول ﷺ قال «أنتم أعلم بشئون دنياكم» وهذه هي دنيانا لنا أن نضيف لها ما يتناسـب مع العصر، ولسـنا تابعـين ولا ينبغي أن نكـون تابعين لدولة أخـرى تحـت أي مسـمى، بلادنا ليسـت في السـماء ولكنهـا في الأرض ذات الحـدود المعروفـة لنا والتـي ندب عليها بأقدامنـا، ندافع عنهـا بأرواحنا، أما موعدنا في السماء فسيكون بعد الدنيا».

انشـغلت مصر سـنوات بهذا الصراع، وما زالت، وبعد سنوات قليلة من احتـدام هـذا الصراع، ومن اتجـاه جمهرة مـن المتدينين بالفطـرة والعاطفة إلى «وجوب دولة الخلافة» ظهر شـاب درعمي صغير في طور الشـباب الأول، ولـد في مدينة المحمودية، وسـافر إلى مدينة الإسماعيلية البعيدة عن مدينته، ليعمل بها مدرسـا وفقا لرغبته واختياره، وهناك حيث مجتمع يضم الموظفين الإنجليـز والفرنسـيين الذين يعملـون في شركة قناة السـويس، ويضم أيضا أغلبيـة مصرية من الحرفيين وصغـار التجار وصغار الموظفين، في هذه البقعة المتنوعة يعلن الشـاب الذي كان في بداية العقد الثالث من عمره إنشاء جماعة دينية اسـمها جماعة الإخوان المسـلمين، هدفها الأسـمى هو «اسـتعادة دولة الخلافة» لا تعترف بالوطن الذي نعترف به، وتريد أن يكون وطنها هو الدين، وليس الطين، وكان لهذه الجماعة الدور الأكبر في قسمة المجتمع المصري على خلفيـة عقائديـة، لم تكن هذه الجماعة بعيدة عن يـد المخابرات البريطانية، بل كانـت في قبضتها وملك يمينها، كانت كقطعة من قطع الشـطرنج تحركها يد اللاعب، ليس هذا الكلام من عندياتي ولكنه كلام «كيرتس الرهيب!».

الفصل الثالث

إشعال النار في القط

(في الريف يعرف المحترفون أنهم لا يحتاجون إلى بذل مجهود لإشعال الحرائق، يكفي فقط أن يصب هذا المحترف الخبير قليلا من الزيت على قط في عنفوان شبابه وقوته، ثم يشعل فيه النار ويطلقه سريعًا وسط الحقل المستهدف، وسيقوم القط المشتعل بعمله خير قيام).

اليوم: الثامن والعشرون من شهر مارس.

العام: 2008.

الشخص: كين لفنجستون.

الوظيفة: عمدة لندن وأحد أقطاب حزب العمال البريطاني وأحد الأسماء البارزة في سماء اليسار الأوروبي الداعم للعديد من القضايا العربية والإسلامية.

المشهد: خرج كين لفنجستون من مكتبه ليقف أمام عشرات من الصحفيين، وبعد أن تحدث معهم عن بعض الشئون الخاصة بالعاصمة لندن سأله أحد الصحفيين عن خطر الجماعات الإسلامية الأصولية، فقال لهم

مطمئنًا: جماعة الإخوان كبرى هذه الحركات تربطنا بها علاقة جيدة، وقد كانت تتلقى تمويلاً ماليًا من الخارجية البريطانية منذ بداية نشأتها، فهي ليست بعيدة عنا إذن، وقد استخدمنا هذه الجماعة لسنوات طويلة وكانت مخلصة لنا، فقد كان نظام عبد الناصر خطرًا علينا، وعلى الجانب الآخر مثلت هذه الجماعة خطرًا كبيرًا على عبدالناصر ونظامه.

ورغم أن هذا التصريح كان بمثابة قنبلة فإن أحدًا عندنا في الشرق لم يلتفت كثيرًا لهذه التصريحات، كانت التبريرات التي خرجت من بعض قيادات الجماعة في موقعهم الإلكتروني تذهب إلى أن «هذا العمدة رجل موتور حاقد كاره للإسلام وهو شيوعي قح فماذا تنتظرون منه؟ كما أن كلامه لم يكن موثقًا، وهذا وحده كفيل بهدم كلامه».

النتيجة: لم تلقَ تصريحات لفنجستون العناية الكافية من الباحثين في المنطقة العربية، ولم يصل صداها إلى الجماهير.

يكتب الكاتب الأمريكي روبرت دريفوس في كتابه الشهير «لعبة الشيطان» عن دعم الولايات المتحدة الأمريكية للجماعات الأصولية وفي القلب منها جماعة الإخوان، ويقول فيه: (تأسست حركة الإخوان المسلمين على يد حسن البنا بمنحة من شركة قناة السويس البريطانية، وخلال ربع القرن التالي تتلقى تلك الجماعة الدعم الكامل من الدبلوماسيين البريطانيين والمخابرات البريطانية)[1].

ثم يقول أيضًا: (كانت هذه الجماعة هي القوة الوحيدة في الشرق الأوسط

---

(1) لعبة الشيطان للكاتب روبرت دريفوس طبعة 2010 صـ 60

التـي تمثل ثقلًا كبـيرًا في عملية تحقيق التوازن ضد القـوى المناهضة لبريطانيا وهي القوميون واليسار العلماني)[1].

استـمر دريفوس في الكتاب قائـلًا: (كان الدبلوماسي الأمريكي هيرمان إيلتـس صديقًـا لحسـن البنا وقد التقى بـه كثيرًا) وينقل دريفوس على لسـان إيلتس: (أعرف أحد زملائي في السـفارة الأمريكية كان يلتقي بشكل دوري مع حسن البنا وذلك لأغراض التقارير)[2].

قـد يكـون دريفوس مبالغًا، فلربما كانت في نفسـه موجـدة من الإخوان، ولربـما كان حاقـدًا عـلى حسـن البنا، ولكـن الوثائق لا تحقـد، ولا تميل، ولا تحمـل موجدة إنما تحمل حقائق وتروي تاريخًا، لذلك كانت هناك أهمية بالغة لكيرتس، الذي أطلقت عليه كيرتس الرهيب.

يقـول الكاتـب الصحفـي عـلاء عزمي في بحث لـه منشـور في مجلة آخر سـاعة عـدد 16/ 8/ 2010 (مـارك كيرتس كاتـب بريطاني مثـير للجدل، ارتبط اسـمه بالكشـف عن العديد من الفضائح السياسـية والتاريخية لبلاده وقد بدأ مارك كيرتس دراسته في مدرسة لندن للاقتصاد، ثم عمل باحثًا لدى المعهد الملكي للشـئون الدولية، كما سـبق له العمل كمدير بـ«الحركة الإنمائية العالميـة» وأيضـاً كمدير ومشرف عـلى إدارات الشـئون السياسـية بعدد من المنظمات غير الحكومية المعروفة، مثل كريسـتيان إيد وأكشـن إيد، وعين من قبـل باحثاً زائراً بالمعهد الفرنسي للعلاقات الدولية في باريس والمعهد الألماني

---

(1) المرجع السابق صـ61.

(2) المرجع السابق صـ80

للسياسة الخارجية ببون، وهو مصنف كأحد كبار الباحثين في شئون الشرق الأوسط، ويعيش الآن كصحفي حر وله العديد من الإسهامات الصحفية والبحثية التي تجد نوافذ للنشر في عدد من المجلات والصحف العالمية والعربية كالجارديان، وريد بيبر، والإندبندنت، وزنيست، وفرونتلاين، والشرق الأوسط، والأهرام).

ذات يوم وأثناء بحث كيرتس في وثائق وزارة الخارجية البريطانية وقع على مجموعة من الوثائق أذهلته وغيرت مسار تفكيره، كان كيرتس مهتمًّا بالشأن العربي والجماعات الإسلامية، وكان يعرف وفقًا للظاهر أن الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان هو داعية مصري أنشأ جماعة الإخوان التي أثارت جدلًا كبيرًا واشتبكت مع كل الحكومات التي حكمت منذ عهد الملك فاروق حتى عهد حسني مبارك، ولكن نهمه للبحث والتقصي وعقليته البحثية قادته إلى أروقة هيئة الأرشيف الوطني البريطاني، ظل كيرتس يتردد على هذه الهيئة أربع سنوات كاملة عثر فيها على كنز من الأسرار يصعب أن يقع عليه باحث، وهناك وهو جالس وسط «الكنز المعلوماتي البريطاني» كان قراره: سأكتب كتابًا أضع فيه عشرات من هذه الوثائق، يجب أن يعلم العالم الصورة الحقيقية المختبئة في الأرشيف، فليس كل ما كان يحدث في العالم عفويًّا أو من وحي خاطر أصحابه، ولكن صناعة الحدث كانت هي لعبة المخابرات في عشرات الحوادث التي مرت على العالم».

فكان أن كتب كتابه الأشهر «العلاقات السرية.. تواطؤ بريطانيا مع الأصوليين الإسلاميين المتشددين».

كان هـذا الكتـاب كارثـة وقعت عـلى رأس الإخوان ولكنهـم تجاهلوها ودفنـوا رءوسـهم في الرمـال، وكأن شـيئًا لم يحـدث عـلى الإطـلاق، وكيف يعقبـون على هـذا الكتاب وقـد احتوى عـلى «وثائق الحقائق» التي تكشـف التعـاون الكبـير بينهم وبـين وبريطانيـا، وكيف يكذبونها وهـي تحمل أخبار الأموال التي كانت تدفع بالتنسـيق مع القصر لمؤسـس الجماعة الشيخ حسن البنا بغرض السيطرة عليه وعلى أتباعه.

إنـك لا تسـتطيع أن تضع كتابًا في كتاب، ومن الظلـم للحقيقة أن تجتزئ منه فقرات وتترك باقي الفقرات، ولذلك كان من الأصوب أن نلجأ للترجمة التي قام بها البعض - ومنهم الكاتب والباحث علاء عزمي - لننقل ملخصًا عن الكتاب:

(لسـنوات عدة ظـل كتاب «الخـداع الأكـبر.. القوة الأنجلـو - أميركية والنظـام العالمـي» هـو أشـهر أعـمال كيرتس عـلى الإطـلاق، لاسـيما أنه قد كشـف سر العلاقـات الأمريكيـة البريطانية في حقبة ما بعد الحـرب الباردة، حيـث ظلت المملكـة المتحدة (بريطانيا) شريكًـا محوريًّـا في جهود الولايات المتحـدة لتعزيـز هيمنتهـا عالميًّـا، إلا أن كتابـه الجديد «العلاقـات السرية..» بـات هو الأهـم والأخطر بـين كل ما كتب، وفيـه يؤكد كيرتس مسـتندًا إلى قائمة طويلة من الوثائق السرية التي اطلع عليها (تم إيداعها بهيئة الأرشيف الوطنـي البريطاني) أن صناع القرار السـياسي في بريطانيا قد اعتادوا التعاون مـع مجموعة من الحركات الإسـلامية الراديكالية مـن أمثال جماعة الإخوان، ورغـم علـم لندن أن هذه المجموعات معادية للغـرب على طول الخط، فإنها تعاونـت معها مـن أجل تحقيق أهـداف تكتيكية قصيرة المـدى، مثل الحفاظ

على المصادر والثروات الطبيعية كالنفط أو الإطاحة بالحكومات القومية التي كانت تمثل تهديدًا للإمبراطورية البريطانية وكذا للمشروع الغربي الرأسمالي ككل في حقبة زمنية ما، لافتًا إلى أن التركيز البريطاني على مد يد العون والدعم لمثل هذه المجموعات والتيارات ذات الطابع الديني المنغلق لم يعد مقتصرًا على منطقة الشرق الأوسط، وإنما تخطاها لمناطق أخرى دون أخذ العواقب طويلة المدى لمثل هذا التعاون في الاعتبار، مؤكداً أن التهديد الإرهابي الحالي لبريطانيا هو نكسة إلى حد ما ناجمة عن شبكة من العمليات البريطانية السرية مع الجماعات الإسلامية المتشددة ممتدة عبر عقود.

فبريطانيا هي التي دعمت آية الله سيد كاشاني، مُعلم رمز الثورة الإسلامية في إيران آية الله الخوميني، في إطار سعيها للتخلص من حكومة الدكتور مصدق التي كانت تحظى بشعبية جارفة وقامت بتأميم صناعة النفط في إيران في الخمسينيات، أما بخصوص علاقة بريطانيا بجماعة الإخوان المسلمين فإن وثائق الكتاب التي وقع عليها كيرتس خاصة بالفترة التي تبدأ من عام 1942 لا قبلها وإن كان هناك العديد من الوثائق السابقة على هذه الفترة يقول كيرتس: إنه يعكف عليها حاليًا لإتمام بحثه وإفراغه في جزء آخر للكتاب.

يكشف كيرتس عن وثيقة مؤرخة عام 1942، حيث جاء في تقرير بريطاني رسمي ما نصه: «سيتم دفع الإعانات لجماعة الإخوان المسلمين سرًا من جانب الحكومة المصرية، وفقًا للاتفاق بيننا وبين القصر، وسيطلبون بعض المساعدات المالية في هذا الشأن من السفارة البريطانية، وستقوم الحكومة المصرية بالزج بعملاء موثوق بهم داخل جماعة الإخوان للإبقاء على مراقبة

وثيقة لأنشطتها، ما يجعلنا (السفارة البريطانية) نحصل على المعلومات من هؤلاء العملاء، ومن جانبنا، سنجعل الحكومة مطلعة على هذه المعلومات التي تم الحصول عليها من مصادر بريطانية».

وقبل منتصف خمسينيات القرن الماضي، حسبما يوثق الكتاب، اتخذت المعاملات السرية بين البريطانيين والإخوان منحى آخر. إذ نظرت بريطانيا للجماعة باعتبارها معارضة مفيدة لسياسة الرئيس جمال عبدالناصر ذات التوجهات القومية العربية، وأنها أفضل وأقل ضررًا من التيارات القومية رغم أصوليتها الشديدة، ومن ثم عقد مسئولون بريطانيون اجتماعات مع قادة الإخوان المسلمين من أجل العمل كأداة ضد النظام الناصري الحاكم أثناء مفاوضات إجلاء القوات العسكرية البريطانية من مصر، وكذا من أجل خلق موجة من الاضطرابات تمهد لتغيير النظام في بلاد النيل).

وعند هذه الجزئية أجدني مضطرًا للتوقف عن نقل الملخص والانتقال إلى مكان آخر، حيث أنقل لكم، لا من عندي، ولكن من مذكرات كبار قادة الإخوان، وذلك من أجل إجراء مطابقة بين ما ذكره كيرتس عن طلب المخابرات البريطانية من الإخوان الوقوف ضد اتفاقية الجلاء، وما حدث فعلًا في هذه الفترة وفقًا لمذكرات الإخوان أنفسهم، وقد كتب العديد من الإخوان مذكراتهم عن تلك الفترة ولكنني فضلت أن أنقل من مذكرات الدكتور يوسف القرضاوي الذي قال عن توتر العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر (كما وجد عنصر جديد زاد العلاقة توترًا، والنار اشتعالا، وهو الاتفاقية الجديدة التي عقدها عبد الناصر مع بريطانيا، ولم يرها الإخوان محققة لكل آمال البلاد، بعثوا مذكرة مفصلة إلى حكومة الثورة برأيهم في

الاتفاقية وملاحظاتهم عليها، وقد أغضب ذلك عبد الناصر، وزاد من تدهور الوضع.. كان أثر نقد الهضيبي الجريء الصريح لموضوعات الاتفاق مزعجًا ومقلقًا، وساءت الأمور إثر بيان طويل مفصل يحتوي على نقد الاتفاق أُرفق بخطاب بعث به حميدة نائب المرشد باسم مكتب الإرشاد في الثاني من أغسطس إلى عبد الناصر. وقد نُشر كذلك عن طريق جهاز النشرات السرية «منشورات»؛ فكان ذلك توثيقًا لحق الإخوان في إعلان رأيهم في الاتفاق، علاوة على كونه نقدًا له. وقد زاد من تعكير الجو إصدار نشرتين أخريين «منشورين»: إحداهما نقد للاتفاق، أمضاها محمد نجيب، ذكر فيها عدم صلته بالاتفاق، والثانية بإمضاء وزير سابق عُرف فيما بعد أنه «سليمان حافظ» الذي كان وزيرًا للداخلية في وزارة نجيب الأولى. وقد انتقد فيها الحكومة بوجه عام. وكانت النشرتان صادرتين بأحرف مشابهة للمنشورات الأخرى ومطبوعتين على نفس الشاكلة وعلى ورق مشابه؛ مما يدل على أن مصدر النشر واحد، وهو مطابع الإخوان المسلمين، وقد سلمت النشرتان إلى عبد القادر عودة لنشرهما.. وكانت هناك صحف نظمت حملة ضد الهضيبي قالت فيها إنه تفاوض مع الإنجليز.. وفي اليوم التالي كان اجتماع الثلاثاء الأسبوعي، وكان آخر اجتماع من نوعه، وقد ساده التوتر. وقف الهضيبي أمام جمع غفير، مبديًا تفاصيل رحلته وتفسيره للمحادثات مع تريفور إيفانز التابع للسفارة البريطانية وأن هذا تم بعلم عبد الناصر وتشجيعه، وكان الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم عضو الهيئة التأسيسية والحائز على رضا الطرفين، وغير المحسوب على أي منهما قد اتخذ مبادرة إيجابية، واتصل بعبد الناصر عن طريق رجليه إبراهيم الطحاوي وأحمد طعيمة، وكتب مذكرة في التقريب والمصالحة بين

الطرفين، قبلها في الجملة عبد الناصر بشروط، وعرضها الأستاذ محمود على حشد إخواني كبير في منزل الأستاذ محمد جودة عضو الهيئة التأسيسية والتاجر المعروف، وصديق عبد الناصر، وتبنى الحشد الإخواني هذه المذكرة، وإن كان للأستاذ البهي رأي ذكره ودافع عنه أمام هذا الحشد، وهو اقتراح خلع المرشد الأستاذ الهضيبي، والاستعاضة عنه بلجنة تدير الجماعة، حتى تختار مرشدًا آخر، ورأى أن هذا هو الذي ينقذ الموقف. وعارضه الأستاذ محمود في هذا، وأنه ليس من الصواب ولا الحكمة أن نعرِّض الجماعة في مثل هذا الوقت لهذه الأزمة، وأن هذا سيحدث فتنة كبيرة، وفتقًا قد لا يستطاع رتقه في الظروف الحالكة الحاضرة.

واختار الحاضرون وفدًا يمثل الإخوان للقاء عبد الناصر مكونًا من: خميس حميدة، وعمر التلمساني، ود.عثمان نجاتي، ومحمد حلمي نور الدين، والشيخ أحمد شريت، ومحمود عبد الحليم، والتقوا مع عبد الناصر في بيته وعرض عبد الناصر موقفه من الإخوان، وموقف الإخوان منه منذ قامت الثورة في حديث طويل سرده في الجلسة المشتركة بينه وبين محمود عبد الحليم وعدد من الإخوان؛ مما دل على قوة ذاكرة الرجل، واستحضاره للأحداث، وتماسك شخصيته، كما يقول الأستاذ محمود، الذي يحسب أن العوامل النفسية كانت من أسباب هذه الأزمات، وأن الإخوان لم يفهموا نفسية عبد الناصر كما ينبغي. ولم يتعاملوا معه بالطريقة التي يمكن بها كسبه إلى صف الجماعة، ولا تؤلبه وتثير حقده عليهم، وأود أن أذكر هنا ما كتبه الأخ محمود عبد الحليم عن هذه الجلسة التاريخية وما تم فيها، قال رحمه الله:

في نهاية هذه الجلسة الطويلة المضنية كان لا بد لنا من الوصول إلى اتفاق

محدد، وكان أملنا جميعًا – نحن الإخوان – أن يكون اقتراحي الذي ذيلت به مذكرتي هو الذي يتم عليه الاتفاق. وتكون مهمتنا – نحن المجتمعين – أن نبحث تفاصيل تنفيذه، ولكن جمال فاجأنا في نهاية الجلسة برفضه هذا الاقتراح بل برفضه أي اقتراح للصلح قائلًا: «إن الدعوة إلى إجراء صلح بيني وبينكم فات أوانها. ولم تعد الثقة التي هي أساس الصلح موجودة». وتناقشنا معه حول هذه النقطة نقاشًا طويلًا غير أنه أصر على الرفض، وما كنا نملك شيئًا بعد أن صار هو يملك كل أوراق اللعب في يده ونحن لا نكاد نملك منها شيئًا.

قلنا: إذن لم كان هذا الاجتماع؟ ولو علمنا أنك ترفض الصلح لما أتعبنا أنفسنا. ولكن الأستاذ الطحاوي والأستاذ طعيمة أبلغانا أنك قرأت المذكرة ووافقت على ما جاء بها.. وعلى هذا حضرنا، فقال: أنا وافقت على المذكرة كمبدأ. فالصلح هدف، ولكنه الآن ليس الهدف المباشر. لكن الهدف المباشر الآن سيكون مقدمة للصلح؛ وإذا استطعتم أن تقوموا بأعباء الهدف المباشر انتقلنا إلى الصلح.

قلنا: وما هو الهدف المباشر؟

قال: كل الذي أستطيع أن أبذله لكم الآن أن أعقد معكم هدنة؛ فإذا نجحتم فيها كان لكم أن تطالبوا بصلح.

قلنا: وما شروط هذه الهدنة؟

قال: هما شرطان: أن توقفوا حملتكم على اتفاقية الجلاء وأن توقفوا إصدار النشرات.

قلنـا: ولنـا شرطـان مقابلان همـا أن توقـف الاعتقـالات والتشريد وأن توقف الحملة الصحفية.

قال: أنا موافق على شرطَيكم إذا وافقتم على شرطيَّ.

قلنا: إننا موافقون.

قال: إذا نفذتم الشرطين فلنا اجتماع آخر بعد اجتماع الهيئة التأسيسية، أما إذا لم تستطيعوا تنفيذ الشرطين فلا اجتماع، ولا تلوموني بعد ذلك.

وهنـا ختمـت الجلسـة، وخرجنـا، وكلنا أمـل في الوفاء بما اشـترط علينا لنخرج بالدعوة من هذا المأزق الخطير الذي وضعت فيه.

يقـول محمود عبد الحليـم: كان مبيتي عادة حين أكون في القاهرة أن أبيت عنـد الأخ الحبيب - رحمه الله - الدكتور جمـال عامر زميلي القديم في الدعوة وعضـو الهيئة التأسيسـية وصاحـب صيدلية الصليبية بالقاهـرة، فلما ذهبنا في تلك الليلة إلى البيت وجدنا في انتظارنا الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل، الذي ابتـدرني قائـلًا: إنني كنـت في انتظارك على أحر من الجمـر؛ لأنني أقدر أهمية هذه الجلسة، وأؤمل فيها خيرًا للدعوة، وقد قدمت لأعرف منك ما تم فيها، وأعرف رأيك شـخصيًّا في جمال عبد الناصر، فحدثته بكل ما تم في الجلسـة، كما شرحت له وجهة نظري في شـخصية جمال عبـد الناصر على الوجه الذي أجملته في هذه المذكرات، ولكنني أقرر أن ما حدثت به الأخ عبد العزيز لا بد أنه كان أوفى وأشـمل، لا سـيما وأنا أثبت ما أثبته في هذه المذكرات بعد مرور اثنين وعشرين عامًا على هذه الأحداث.. وأذكر أنني أنهيت حديثي إلى الأخ عبد العزيز بقولي: إنني أرى أن شخصية جمال عبد الناصر كانت تستحق منا دراسة أكثر، وعناية في التعامل معها أكثر مما كنا نوليها.

ويبدو من سير الأحداث أن الأمور جرت في مسار آخر غير المسار الذي كان ينشده الأخ محمود عبد الحليم ومن وافقه من الإخوان فيما سماه (محاولة للإنقاذ). فقد كان الجو في داخل الإخوان متوترًا ومشحونًا ضد الثورة وعبد الناصر، ولهذا باءت هذه المحاولة للتقريب أو المصالحة أو الهدنة -التي قد تؤدي إلى مصالحة- بالإخفاق والفشل؛ نتيجة لتصلب القيادات في مواقفها، وتغليب التشدد على المرونة، والمواجهة على المقاربة؛ لأمر قدره العزيز العليم.

وقد عُرضت مذكرة الأخ محمود عبد الحليم على الهيئة التأسيسية، ولكن جرت الأمور على غير ما أراد صاحب المذكرة؛ فقد أخذ رأي الهيئة بالتصويت: أتعرض المذكرة عليها أم لا؟ فكانت الأغلبية مع عدم عرضها،كان هذا الانقسام في الصفوف العليا للإخوان، أما قواعد الإخوان بصفة عامة؛ فكانت مع المرشد، وذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: أنها لا تدري شيئًا عما يدور وراء الكواليس، ولا تعرف عن العلاقات الخاصة بين الإخوان والثورة ما يمكنها من الحكم، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

والثاني: أن النشرات السرية التي كانت تصدر في تلك الأيام كانت تعبئ الإخوان تعبئة شعورية عدائية للثورة ورجالها، ولا تسمح بأي تقارب أو مهادنة)[1].

---

(1) مذكرات الدكتور القرضاوي، منشورة في موقعه بالكامل وفي كتابه المنشور عن دار الشروق.

انتهى النقل من مذكرات الدكتور يوسف القرضاوي ونشير فقط إلى أن قواعد الإخوان لم تكن وحدها التي لا تدري عما يدور في الكواليس، ولكن الدكتور القرضاوي نفسه لم يكن عارفًا بما يدور في كواليس أخرى، ولكي نعرف هذه الكواليس يجب أن نعود من جديد للنقل من كتاب كيرتس.

يقول كيرتس: «ومع اندلاع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 قامت بريطانيا باتصالات سرية مع بعض قيادات من الإخوان «كانت هاربة خارج مصر ومع قيادات أخرى كانت في مصر ولم تمتد لها الاعتقالات، أو كانت قد خرجت من الاعتقالات مثل المرشد حسن الهضيبي الذي كان رهن الإقامة الجبرية وقتها» وكانت هذه الاتصالات تتم كجزء من خططها للإطاحة بعبد الناصر أو اغتياله، وأن المسئولين البريطانيين كانوا يعتقدون -وربما يخططون أيضًا- أن هناك إمكانية أو احتمالية أن يقوم الإخوان بتشكيل حكومة مصرية جديدة بعد الإطاحة بعبد الناصر على أيدي البريطانيين.

بعد ذلك بعام، وعلى وجه الخصوص في ربيع عام 1957 كتب تريفور إيفانز، وكان مسئولًا بالسفارة البريطانية وقاد اتصالات سابقة مع الإخوان في خطاب رسمي لحكومة بلاده: «إن اختفاء نظام عبد الناصر ينبغي أن يكون هدفنا الرئيسي».. بينما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن الخطط البريطانية السرية للإطاحة بالأنظمة القومية في سوريا بين عامي 1956 و1957 كانت ترتكز أيضًا علي تعاون كبير مع جماعة الإخوان المسلمين هناك. وعليه ولأسباب مشابهة أيضًا انحازت الحكومة البريطانية باستمرار إلى جانب الإخوان المسلمين بمختلف أرجاء الشرق الأوسط.

وبناءً على كافة المعلومات السابقة فلا يمكن فصل المخططات البريطانية في تلك الفترة للتخلص من عبدالناصر عن المحاولة الإخوانية الفاشلة لاغتياله بالإسكندرية في 26 أكتوبر 1954 والمعروفة بحادثة المنشية، والتي شهدت إطلاق النار عليه أثناء إلقاء خطاب في ميدان المنشية بالإسكندرية، ويكشف الكتاب عبر الكثير من الوثائق معاملات المخابرات البريطانية مع قادة الإخوان وعن اجتماعات متكررة ضمت حسن الهضيبي، وصالح أبورقيق، ومنير الدلة مع (تريفور إيفانز) مستشار السفارة، وعرضهم عليه في منزل (محمد سالم) بقاء جيش الاحتلال في القناة، مقابل دعم انقلابهم ضد الثورة، والاشتراك في حلف عسكري ضد الشيوعية، «مُحذرين» من أنه لن يرى النور ما دام عبدالناصر حيًّا «لأنه يرفض الأحلاف ويصفها بالاستعمارية». ثم يرصد الكتاب تصريح الهضيبي في يوليو 1953 لوكالة (الأسوشيتدبرس): «الغرب سيربح إذا حكمنا مصر، سيفهم مبادئنا المعادية للشيوعية وسيقتنع بمزايا الإخوان». ولذلك كان طبيعيًّا أن يسجل أنتوني إيدن، وزير خارجية بريطانيا وقتها، في مذكراته: «الهضيبي كان حريصًا على علاقات ممتازة معنا، بعكس ناصر».

وفي النهاية فإن أهمية الوثائق التي أوردها الكتاب، تتمثل في أنها انتصرت للعديد من الكتابات والشهادات التي تم نشرها من قبل حول التعاون السري بين الإخوان والبريطانيين وسارعت الجماعة إلى نفيها).

انتهى النقل من كتاب مارك كيرتس، ولكن الفصل لم ينته بعد، فإذا كنا قد وضعنا الدلائل شيئًا فشيئًا، ونقلنا من مذكرات حسن البنا عن الدعم الذي تلقاه من الإنجليز لتأسيس جماعته حين كان في مدينة الإسماعيلية، وكشفنا

عن طبيعة هذا الدعم واستمراره من خلال كتابات روبرت دريفوس ومارك كيرتس، فإن خط سير الجماعة بعد ذلك قد كشف عن أشياء كثيرة، وكان من المحطات الهامة التي يجب أن نتوقف عندها ما كان يحدث من مقاومة مصرية للإنجليز في مدن القناة الأعوام من 1950 إلى 1953، حيث كانت أعمال الفدائيين المصريين وقتها تبهر العالم، كان المشهد رائعًا، قوافل من الفدائيين تتحرك في سرية تامة إلى مدن القناة لتحيل معسكرات الإنجليز هناك جحيمًا، كان الفدائيون ينبضون بالعاطفة الوطنية الصادقة وهم يسعون من خلال عملياتهم إلى إقلاق الإنجليز، وجعل تواجدهم في المنطقة يكاد يكون مستحيلًا، وكانوا يحتاجون إلى تشجيع القوى السياسية لهم، كانت كتائب المجاهد المصري «أحمد حسين» رئيس جمعية مصر الفتاة تقوم بالجهد الأكبر، ويقول الإخوان عبر مذكراتهم الشخصية إنهم كانوا من المجاهدين في القناة ضد الإنجليز، ولكن هل هذا الأمر كان حقيقيًّا، المرشد الثاني حسن الهضيبي ينكر ذلك، ويسخر من الفدائيين هناك، فيقول ساخرًا لمجلة (الجمهور المصري) عدد مارس 1952: هل العنف سيخرج الإنجليز؟!

ثم قال: قلت لشباب من الإخوان طلبوا الانضمام للفدائيين ضد الإنجليز: اذهبوا واعكفوا على تلاوة القرآن.

فيتلقى المرشد حسن الهضيبي سخرية من المفكر الكبير الراحل خالد محمد خالد في روزاليوسف، مطمئناً المُحتل: أبشر بطول سلامة يا جورج.

ولكن خالد محمد خالد لم يكن يعلم أن جورج متواصل مع الإخوان بشكل دائم، ومن بعد جورج كان العم سام هو الذي يمد يده للإخوان،

فقد انتقلت الراية من بريطانيا العظمى إلى أمريكا أكبر إمبراطورية حكمت العالم.

■ ■ ■

في كتابي السابق «سر المعبد» نشرت خطابًا وثيقة، لم يستطع أحد من الإخوان تكذيبه، أو المجادلة بشأنه فأصبح حقيقة «مسكوتًا عنها» وقد كان لهذا الخطاب قصة، حيث كان قد وقع تحت يدي عن طريق أحد أعضاء مكتب إرشاد الإخوان - كنت مقربًا منه - وأبدى لي رفضه لعلاقة نسجت خيوطها بين الإخوان وأمريكا، ولكنه برر هذه العلاقة بأن الشاطر يقودها هو وعدد محدود من مكتب الإرشاد دون علم الباقي الذي لا حول له ولا قوة، فنشرت هذا الخطاب وقتها في مجلة «المصور» المصرية في ديسمبر من عام 2005 ولم ينبس وقتها أحد من الإخوان بشفة بخصوصه، وكان الخطاب كالآتي:

Dear B

السلام عليكم ورحمة الله.

تحياتي وأشواقي لجميع الإخوة، أما بعد.

كان للجهود التي بذلها دكتور برونلي أثر طيب في تقريب وجهات النظر إلى حد كبير إلا أنه ما زالت بعض الاختلافات في وجهات النظر، وقد ظهر لي أن مستر إيرلي متعنت إلا أنني أوضحت للأصدقاء الآتي:

1. لن نغير خريطة المنطقة السياسية.

2 - نتعهد بالحفاظ على كل المعاهدات والاتفاقيات (أبدى الأصدقاء

سعادتهم بتصريحات المرشد عن إسرائيل وقالوا عنه (He is a respectable man).

3 - نقبل وجود إسرائيل بالمنطقة (وقالوا إنه ينبغي ألا ننظر إلى إسرائيل كما تنظر الحكومة إلينا فلا هي محظورة ولا نحن محظورون).

4 - أوضحت لهم إصرارنا على أن تقوم الإدارة الأمريكية بدعم التحول الديمقراطي بالمنطقة - وقد ظهر لهم من نتائج المرحلة الأولى أننا أصحاب الرصيد الجماهيري - وقد أوضح الأصدقاء.

5 - سعادتهم بجرأتنا في تناول قضية الحوار مع أمريكا وأن التناول كان واقعيًا إلا أنهم أبدوا استياءهم من مسألة أن الحوار ينبغي أن يتم عبر وزارة الخارجية المصرية وقالوا: إننا ينبغي ان نتخلص من هذه النغمة.

6 - أوصوا بطرح مسألة الحوار مع أمريكا على أوسع نطاق حتى تصبح أمرًا واقعيًا، وقتها لن يبحث الناس عن شرعية الحوار ولكنهم سيبحثون عن نتائج الحوار.

7 - يجب أن يقدم الإخوان الحزب وأن يكون هذا في خلال عام وسيمارس الأصدقاء ضغوطًا على الحكومة للموافقة عليه.

8 - تدعيم الحوار مع الحزب الوطني والتنسيق معه في القضايا الكلية ولا مانع من الاختلاف في الفرعيات.

9 - ضرورة الحفاظ على الكيان الحاكم وعدم خلخلته دستوريًا أو

شعبيًا وعدم المساعدة في أي تجمع يسعى إلى إحداث خلخلة للنظام. وينتظر الأصدقاء سفر د.العريان إلى بيروت في النصف الأول من ديسمبر لإكمال الحوار، وإن لم يتم فسيحضر إليكم صحفي أمريكي سيقدم نفسه تحت اسم «جون تروتر» بوكالة «s.o.m» مطلوب أن يجلس مع الشاطر وعزت.

حامل الخطاب الأخ حسان وهو من السودان.

أرجو عدم الثقة بأي شخص من c a t r

والسلام عليكم ورحمة الله. أخوكم

H . a

■ ■ ■

أظن أن هذا الخطاب كافٍ لإلقاء الضوء على علاقة قوية ربطت بين الإخوان وأمريكا، ورغم أن الإخوان كان بإمكانهم تكذيب هذا الخطاب الوثيقة وقت نشره في «المصور» عام 2005 أو تكذيبه وقت أن نشرته في كتابي سر المعبد، إلا أن أحدا لم يفعل، فقد كانت الاتصالات قائمة وقتها بقوة بين الإخوان وأمريكا، والجماعة حالمة بوعود أمريكية أكيدة بأنها ستصل بهم إلى بر الأمان الكائن عند كرسي الرئاسة، الذي كان جالسا عليه «مبارك أبو المصريين جميعًا» على حد قول المرشد محمد بديع، ولكن هل يقف مبارك الأب عائقا أمام بديع وإخوانه في رغبتهم المحمومة للوصل إلى الحكم؟

في عهد مبارك كشف أحد الدبلوماسيين الأمريكان عن حوار سري تم بين القيادي الإخواني سعد الكتاتني وأحد كبار الدبلوماسيين الأمريكان،

فخرج علينا الإخواني الإعلامي محسن راضي من نافذة الجماعة لكي يضع لنا ملامـح حوار الإخوان مع الأمريكان، فيقـول والكلمات تتقاطر من فمه كما تتقاطـر عربات قطار النقـل: هم - أي إخواننا الأمريـكان - يريدون معرفة موقفنـا من المرأة ووضع الأقليات وتداول السـلطة والديمقراطية، والموقف بالنسـبة للعلاقة مع حماس وايـران واتفاقية كامب ديفيـد، وكل هذه الأمور التـي سـبق أن أعلـن الإخـوان رأيهـم فيهـا - أي أن اللقـاءات والحوارات تحصيـل حاصـل - ثـم يسـتطرد الأخ راضي وهـو يزين للأمريـكان أطايب الطعـام الشـهي الذي طبخه الإخـوان فيقول: إن الوضع المـزري للأقلية في البحرين لم تمنع الولايات المتحدة من جعل أرض هذه الدولة مقرًّا لأسطولها الخامس!

وكأن محسـن راضي يقـول بتصريحـه هذا أهلا وسـهلا بالأمريـكان وإن تغاضـوا عن حقوق الأقليـات طالما أنه وأننا وأنهم، بكل أنَّات اللغة العربية، في الإمكان أن نجعل من بلادنا محلا مختارا لأسطولهم.

سنصم الآذان عـن كلـمات الأخ راضي، وسـنتظر إلى الناحيـة الأخرى سنجد أن كفاح اللسـان في عهد مبارك أصبح هو السـمة الرئيسـية للجماعة حيـث إنـه هو الكفـاح الرخيـص الذي ليس لـه كلفـة عالية، لذلـك ارتفع الصوت الإخواني منددًا بالسياسة الأمريكية التي ترعى المصالح الصهيونية، ومظاهـرات طلابيـة يسـتغلون فيهـا طلابهم السـذج الذين تربوا عـلى الثقة في القيـادة، وأعـلام أمريكية يتم حرقهـا تحت الأقدام الإخوانيـة، ومقاطعة للبضائع الأمريكية، وعويل وصراخ، ولعن الله أمريكا الكافرة الزنديقة.

ولأن اللسان غير الأنف ووظيفتهما تختلف فإنه لا تثريب على أنوف الإخوان إن أدمنت شم التبغ الأمريكي، فقد ذهبت أنوفهم تعدو صوب دخان السيجار الأمريكي الفاخر الذي يتصاعد من السفارة الأمريكية وهي غير مدركة أن كل دخان سيتبدد ذات يوم، ولكن الأخ محمد عبد القدوس، مبعوث الإخوان للقاءات الدبلوماسية وقتها، عرف طريق السفارة الأمريكية، يذهب إليها في الأعياد القومية الأمريكية مهنئا ومصليا «حتى لا يطير الدخان» وكان يصطحب معه الأخ عصام العريان الذي أخذ يرسل رسائل الطمأنة للحكومة الأمريكية وللحكومة الإسرائيلية قائلا في كلمات ألقاها في السفارة الأمريكية وفي حوار له مع جريدة الشرق الأوسط منذ سبع سنوات تقريبا العديد من التصريحات قائلا: على الحكومة الإسرائيلية أن تطمئن فسنحافظ على كامب ديفيد، ولأن رسائل الإخوان كانت وردية فقد تعودت السفارة الأمريكية أن تدعو أعضاء جماعة الإخوان إلى ولائم السفارة من باب «أطعم الفم تستحي العين» ومع الفم الإخواني الذي يلوك الطعام الأمريكي، كان اللسان الإخواني المجاهد يصرخ في المظاهرات والتصريحات البطولية: لعن الله أمريكا وإسرائيل، احرقوا أعلام أمريكا إنهم قوم لا يتطهرون.

وإذا بالدكتور سعد الدين إبراهيم يخرج من سجنه فجأة بضغوط أمريكية، فيكشف الرجل بصراحته الأمريكية عن أنه كان عراب الاتفاق بين الإخوان والأمريكان بل والمجتمع الغربي كله، قال سعد الدين إبراهيم في حوار صحفي عام 2004 (حقيقة الأمر أن حوارًا بدأ بيني وبين الإخوان المسلمين في سجن «مزرعة طرة» وكان أساسه: لماذا اهتم العالم بي ولم

يهتم بالإخوان. وضاعف من حرارة الحوار وقوع أحداث كونية جسيمة أهمها الهجوم الانتحاري على مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية. وكانت إجاباتي عن أسئلة الإخوان المسلمين هي أن العالم يدافع عني لأنه اعتبرني صاحب رؤية ومشاركًا معه في قيم إنسانية عالمية، بالإضافة إلى أنني أحترم الآخر. فقالوا ونحن أيضاً نشارك في هذه القيم العالمية، وسأل «الإخوان» كيف نوصل وجهة نظرنا للعالم الغربي، فقلت لهم أضعف الإيمان هو الكلمة وأقواه هو الفعل، فردُّوا أن الكلام نحن نقوله ونقرّه الآن، أما الفعل فلا بد من انتظاره حتى خروجنا من السجن.

وخرجت من السجن والتقى بي بعضٌ من تحاورت معهم داخل السجن وآخرون لم يكونوا في السجن،وطلبوا مني مواصلة الحوار الذي بدأناه داخل سجن طرة بالإضافة إلى الحوار مع الغربيين.

فنقلت رغبتهم لبعض السفراء الغربيين الذين كانوا يزورونني بالسجن ويعرفون بحواري مع الإخوان، وكان في مقدمة هؤلاء السفراء السفير الكندي في مصر الذي بدوره طلب الحوار معهم، خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر ولكن السلطات المصرية رفضت رفضاً باتًّا ذلك الحوار.

ولكن الأمر اختلف بعد الخروج من السجن، واجتمعنا أنا وبعض أعضاء الجماعة الإسلامية أمثال عصام العريان ومحمد عبد القدوس وبعض الغربيين وجلسنا في النادي السويسري بإمبابة في مصر،واستمر الحوار يومًا كاملًا ثم تركتهم معًا لاستكمال الحوار وهذا كان دوري).

ومع اللقاءات الحميمية ظلت مظاهرات طلاب الإخوان ترفع راية

«أمريكا عدوة الله» وأخذ مجاهدو الإخوان يلقون بحمم ألسنتهم البركانية على أمريكا ومن والاها، ولعن الله من والاها.

يُجرمونها ويعاقرونها، يلعنونها وينامون في مخادعها، ونظرا لأن الإخوان لا يعترفون بالزواج العلني فقد أنكروا - وهم يشتمون أمريكا - أن اللقاءات مع الأمريكان تخصهم فقال متحدثهم الرسمي عندما انكشف كل شيء: هذه اللقاءات لا علاقة لنا بها، ومن حضر من الإخوان فيها حضر بصفته الشخصية!

وكان أن قامت الثورة المصرية، ثورة الخامس والعشرين من يناير 2011، وما كان دائرًا في السر قبل الثورة أصبح دائرًا في العلن بعدها، فبعد الثورة مباشرة وقبل أن يصبح «الحكم قبل الدين أحيانا» لم يعد هناك أي مبرر إخواني لإثارة مظاهرات ضد أمريكا الصهيونية، فقد كان هذا الكلام أيام الجهاد الرخيص، أما الآن فنحن أمام الجهاد الأكبر، جهاد السعي نحو أريكة الحكم، وبالتالي لم يعد هناك ما يستحق الإخفاء، أو الخفاء، أو التنديد والتهديد، ومع ذلك فإنه عندما قالت السيدة هيلاري كلينتون في مؤتمر صحفي لها في بودابست: إن الإدارة الأمريكية تواصل سياسة إجراء اتصالات محدودة مع جماعة الإخوان المسلمين، وهي اتصالات مستمرة - على حد قولها - منذ ما يقرب من خمس أو ست سنوات، ثم قالت: سنعاود الاتصال بالإخوان، كان مفهوم الكلام أنه كان هناك اتصال «على الهاتف الدولي» ثم انقطع ومن ثم ستقوم الإدارة الأمريكية بإعادة الاتصال، ثم أكدت الوزيرة الأمريكية أن هذه المحادثات كانت قد بدأت منذ بضع سنوات!! وكشفت عن أهم الموضوعات التي يتم بحثها مع الإخوان وهي: استمرار الإخوان في سياسة

عـدم اللجـوء للعنف، واحترام حقوق الأقباط والنسـاء، حسـن جدًّا، ليس في هـذا شيء؛ إذ إن مـن حق جماعـة الإخوان في ظل حكم مبارك المسـتبد أن تسـتقوي بمن يمكن أن يخفف الضغوط الأمنية التي تواجهها، ولكن قامت الثورة، وذهب مبارك إلى المكان الذي يسـتحقه، ولم يبق إلا الشـعب الذي لا يجـوز أن يسـتقوي أي أحد إلا به بعد الله سـبحانه وتعـالى، وفي هذه اللحظة الفارقـة التـي تختبر فيها الـرؤى الوطنية للأفراد والجماعـات والأحزاب، إذا بجماعـة الإخوان تمد حبالها إلى أمريكا، أو بمعنى أدق، تقبل الحبال الممدودة لهـا من أمريكا، عملًا بوصية كلينتون التي وجهتها للإخوان من بودابسـت، والحبال في السياسة ليس لها إلا فائدة أو نهاية، أما الفائدة فهي أن يصعد بها من يسـتلم طرفها فيرتقي، وأما النهاية فهي أن يضعها من يستلم طرفها في رقبته كمشـنقة فينتهي، جاء الحبل الأمريكـي إلى مقر جماعة الإخوان، وكان الحبل الأمريكي الأول هو وليم بيرنز مسـاعد وزيـرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتـون، وجلس مع قيادات الإخوان في جلسـة سرية، لم نعرف ما دار فيها وما حـدث خلالها، حتى إن قيـادات الجماعة منعـت الصحفيين من حضور اللقـاء، أو كلفت خاطرهـا في إلقاء بيان بما حدث مـن مباحثات، ومع ذلك فـإن لقـاء الإخوان مع وليم بيرنـز في حد ذاته كان لقاءً مسـتغربًا، وظهر من خلاله أن قيادات الإخوان ترغب في لقاء أي شخصية أمريكية حتى ولو كان من شأنها تلويث البحر المتوسط، فوليم بيرنز هو أحد الأعمدة الصهيونية في الحكومة الأمريكية، وأحد أكابر الداعمين لكل الاعتداءات الإسرائيلية التي حدثت ضد الشعب الفلسطيني، ويعتبر نفسه مبعوث العناية الأمريكية لحماية أمن إسرائيل، لدرجة أنه سبق أن صرَّح بأنه لا يريد تحقيق أمن إسرائيل فقط

ولكنه على حد قوله: «أنا أبحث عن رفاهية إسرائيل» ومن فرط تصريحاته العنصرية اعتبرته منظمات حقوق الإنسان واحدًا من أعداء الإنسانية، وبعد أن التقى بيرنز بقيادات الإخوان أصدر تصريحات بأنه بحث مع الإخوان كل ما يتعلق بالمصالح الأمريكية وبأمن إسرائيل والمعاهدات التي عقدتها مصر مع إسرائيل وقال إن الإخوان تعهدوا بالحفاظ على هذه المعاهدات، ولأن هذه التصريحات تعني - بطريق الاستدلال - أن الإخوان تحدثوا مع وليم بيرنز عن رغبتهم في خوض انتخابات الرئاسة، وأنهم يريدون معرفة موقف أمريكا منهم في حالة تنفيذهم رغبتهم، فلذلك كانت الحوارات ومن أجل هذا كانت التطمينات والتأكيدات، صحيح أن الإخوان أنكروا صحة تصريحات وليم بيرنز، وكأنه كان يزور مقر الإخوان من أجل أن يصلي الظهر خلف المرشد الدكتور محمد بديع، ولكن وزارة الخارجية الأمريكية أصدرت بيانًا تفصيليًّا باللقاء وما تم فيه وأكدوا حصول الحكومة الأمريكية في لقاء بيرنز مع الإخوان على تطمينات وتطمينات .

بعد هذا اللقاء مباشرة التقى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق مع وزير الخارجية المصري السابق محمد العرابي، وكان اللقاء في إسطنبول، وفي هذا اللقاء قال كيسنجر للعرابي: الإخوان المسلمون قادمون في مصر، وأنا متأكد تمامًا أن الإخوان سيحكمون مصر قريبًا، وإذ سأله العرابي: وما موقف أمريكا من هذا؟ قال كيسنجر - وفقًا لما نشره العرابي - ليس لدى أمريكا مشكلة لأن كل ما يهم الإدارة الأمريكية ثلاثة أمور مفصلية في مصر، هي: الالتزام باتفاقية السلام مع إسرائيل، وضمان سلامة الملاحة في قناة السويس، وأن تستمر الولايات المتحدة مصدرًا لتسليح الجيش المصري،

تصريحات كيسنجر هذه كانت عقب لقاء بيرنز بالإخوان، وظهر منها أن النظام الأمريكي يرغب في جعل تفصيلات الحوارات مع الإخوان علنية .

وتوالت اللقاءات الإخوا أمريكية، مرة مع جون ماكين عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، وجون كيري منافس جورج بوش في انتخابات 2004، وخرج هذا الأخير من لقائه مع الإخوان سعيدًا مبتسمًا، ثم بعد أيام وهو في واشنطون وبعد سفر المتهمين الأمريكان في قضية التمويل الأمريكي إلى بلادهم خرج جون كيري ليوجه الشكر الجزيل للإخوان لمساعدتهم رعايا أمريكا في «السفر الآمن» والهروب من قضية التمويل!

ما يعنيني هنا أن جسد جماعة الإخوان كله كان يسير في اتجاه، وكانت رأسه تسير في اتجاه آخر، إلا أن الجسد لم يشعر بهذا الانفصال، فقد كان سادرًا في نشوة «أكثرية البرلمان» والانتصار المرتقب، ودولة الإسلام التي على وشك أن تعلن عن نفسها في مصر، لم يستشعر الجسد خطورة اللقاءات مع الأمريكان التي من الممكن أن تحرق من يقترب منها، بل كان يتيه فخرًا بها معتقدًا أن إمبراطور العالم في سبيله إلى أن يخضع لإمبراطورية الإخوان، وأنه أتى إليها صاغرًا، لم يدرك الجسد الإخواني أن أمريكا دولة نفعية، لا تدور إلا حول مصالحها، ولا تبحث إلا عن الغنائم، منطق الشركات التجارية هو الذي يحركها، فحيثما كانت المصلحة فثم وجه أمريكا، ولذلك فإن أمريكا لا تمانع من التعامل مع القديس وإغوائه، أوالتحالف مع إبليس لإرضائه، لا يهمها من قاطع بضائعها وحرق أعلامها وأهان كرامتها، المهم أن يحقق مصالحها، وأمريكا السياسية التي يديرها دهاقنة الصهاينة لا تبكي إلا على إسرائيل، أما مصر فلا بواكي لها.

ويعد هذه اللقاءات الحالمة دوّن الإخوان في دفاترهم الجهادية، أن المظاهرات أصبحت موضة قديمة، يتم محاصرة غزة، قطع الكهرباء عنها، عمل غارات صهيونية على أهلها، والإخوان أذن من طين وأذن من عجين، فالمظاهرات لا تليق بأهل الحكم، وأيضا المواقف السياسية الوطنية لا يجوز أن يفارقها أهل الحل والعقد، ولتستمر المفاوضات والحوارات والغزل الرفيع تحت لافتة «يتمنعن وهن الراغبات».

وجاءت لحظات التمكين، وهي لحظات لو تعلمون مقدسة، ولحظات التمكين يسبقها في العرف الإنساني، حالة ارتفاع روحي، أو حالة غرور إنساني، والغرور يعمي البصر ويطمس على البصائر، وبدأت الاتصالات والاتفاقات، والوعود والتعهدات، ثم أخذ الفصل الثاني من حلقة الضغوط يعلن عن نفسه، فأمريكا التي قتلت وأبادت وارتكبت أكبر وأفظع جرائم إبادة في تاريخ البشرية، أمريكا التي لا تبحث إلا عن حرية إسرائيل، وديمقراطية نفسها، إذا بها تصبح راعية للديمقراطية والحرية في مصر، خرجت كلينتون تطالب الإدارة المصرية - قبل إعلان النتيجة رسميًا - بضرورة أن تعلن النتيجة وفقًا للكشوف التي تسلمتها جماعة الإخوان من رؤساء اللجان العامة، أي طالبت أن تعلن اللجنة الرئيسية للانتخابات بإعلان فوز الدكتور محمد مرسي، بغض النظر عن الطعون التي كانت تنظرها اللجنة!! وعلى نفس السياق خرج الرئيس الأمريكي أوباما موجهًا نفس الطلب للمجلس العسكري، وكاثرين أشتون مفوضية الاتحاد الأوروبي لم تترك الساحة خالية للأمريكان، بل كانت أشد حسمًا من الأمريكان مطالبة لجنة الانتخابات

بإعـلان فـوز الدكتور محمـد مرسي، ومـع هذه المطالبـات التي يعـرف أهل السياسـة ما وراءهـا، كانت لقاءات الإخـوان المتعددة مع المشـير طنطاوي، فقـد التقـى بـه خيرت الشـاطر، الـذي ليس لـه أي موقع سياسي أو حزبي، فقـط هـو نائب مرشـد جماعة لا تطبق القانون على نفسـها ولم تشـهر جمعيتها معتبرة أنها فوق القانون وفوق الدسـتور، بل فوق الدولة كلها! وكانت هذه اللقاءات في فترة حاسـمة قبل إعلان النتيجة بساعات، ومع هذا وذاك وبعد إعلان النتيجة خرج الكثير من الصحف الأمريكية ليكشف عن أن الحكومة الأمريكية كان لها الدور الحاسم في إعلان النتيجة بفوز مرسي، معلنة عن أنه لولا أمريكا لكان للنتيجة شأن آخر، وبذلك نجحت أمريكا في إطلاق القط المشتعل في الحقل المصري.

وكان أن أرسـل القط المشـتعل رسـالة شـكر إلى سـيده الأمريكي، ظهر هـذا الشـكر في مواقـف كثيرة، ففـي تجربة معمليـة دارت رحـى معركة بين إسرائيل والجانب الفلسـطيني، وأطلقت حمـاس ومنظمات جهادية صواريخ عـلى إسرائيل، فأسرع الرئيس المصري الجديد محمد مرسي في السـفر إلى غزة للتدخـل ووقف إطـلاق الصواريخ من الجانب الفلسـطيني عـلى أن توقف إسرائيل قصف غزة، وكان التوفيق حليفًا للرئيس الجديد.

سافر أوباما إلى إسرائيل دون أن يمر على مصر، وهناك عند أبناء صهيون قـال «إن القـدس عاصمـة أبديـة لإسرائيل» فلم نسـمع حسًّـا ولا خبرًا من جماعة الإخوان بل كانت في صمتها مثل صمت القبور، إنك لا تسمع من في القبور، ومن في المقطم، ومن يجلسـون على كراسي الحكم، وكان الأغرب أن

كل أفراد الجماعة بشبابها وشيوخها سكتوا، بعد أن كان هتافهم المفضل هو «على القدس رايحين شهدا بالملايين» فأصبح صمتهم رسالة تقول إن الشعار تغير وأصبح «على القدس رايحين، مهنئين مباركين».

وأخيرًا خرج وزير الخارجية الأمريكي على أجهزة الإعلام ليقول: لقد أخذنا تعهدات على جماعة الإخوان قبل وصولهم للحكم بمد يدها لكل القوى السياسية، وأرجو أن يلتزموا بما تعهدوا به.

المهم أن الإخوان وصلوا للحكم، فأصبحت هناك دولة مصرية لها خلفية عقائدية، تنظر للآخرين على أنهم مفارقون للإسلام، فتدخل في صراعات معهم، وتتحزب البلاد، وتنقسم، تخرج مظاهرات الإخوان هاتفة: بالروح والدم نفديك يا إسلام، وكأن القوى السياسية المتنوعة ترغب في القضاء على الإسلام! يحدث استفتاء على تعديل للدستور فيصبح الصراع دائرًا على خلفية دينية لا سياسية، حيث يقول دعاة الإخوان ورجالهم: هذه غزوة الصناديق، من سيكون معنا فهو مع الإسلام، ومن سيكون ضدنا فهو ضد الإسلام! وتزيد رقعة الخلاف والاختلاف، وتشتعل معارك شبيهة بمعارك الحروب الأهلية لأول مرة في تاريخ مصر كله، وإذا بسيناء تتحول إلى دولة داخل الدولة، حيث أصبحت مأوى لجماعات تطرف مجهولة النسب، خرجت سيناء بجماعات التطرف هذه من تحت سيطرة مصر، وأصبحت مرتعًا للعابثين، وفي سيناء يتم قتل مجموعة من الجنود المصريين، وتظهر الأخبار مؤكدة أن القتلة كانوا يهتفون الله أكبر وهم يصوبون الرصاص في صدور الجنود، وتتوالى الأخبار فنعرف أن القتلة جاءوا من غزة وأنهم يتبعون حركة

إسـلامية قريبـة من حماس، ولكـن الرئيس المصري وجماعته يعيشـون في واد آخر غير وادي سيناء.

ثم كان يجب بعد ذلك أن يلتقي الصنمان، صنم الشـيعة وصنم الإخوان، ومن وراء السـتار كان هناك من يحرك الصنمـين بحبل لا يظهر للرائي، تمامًا كـما يحـدث على مسرح العرائـس، وحين تحرك - أو حُرِّك - الصنم الشـيعي أحمـدي نجـاد، جيء بـه إلى مـصر الواقعة رهينـة تحت يد الإخـوان، ودخل الصنـمُ الأزهـر وهو يبتسـم، كانـت الابتسـامة موحية وكأنه يقـول: في هذا المكان كانت لنـا أيام، وأظن أن شريطًـا من الذكريات التاريخية مر سـاعتها على ذهنه، فظهرت أمامه صورة حسـن البنا، وتقي القمي، وآية الله كاشاني، ونـواب صفـوي، وآيـة الله الخميني، أبطال غزو الشـيعة للعالم السـني، وقد كانت تلك الغزوة من أعجب الغزوات في التاريخ.

الفصل الرابع

الجذور

تمر السنوات وتتعاقب الأحداث ويُمسي الحاضر ماضيا، ومع ذلك يظل هذا الماضي شاخصًا أمام أبصارنا حين يضبطه التاريخ، ولكن ترى هل ضبط التاريخ له يماثل ضبط «الكاميرا» للصورة فتصل لنا الأحداث كما هي بلا رتوش ولا حذف ولا إضافات؟ أم أن قلوب البشر تنقل لنا ما وقر فيها وما استقبلته مضمخًا بالمشاعر فنعجز عن معرفة التاريخ المجرد إلا بالتقريب؟

كم هي مهمة شاقة تلك التي نتعهد أنفسنا بها حينما نسرد ما يحدث في زمننا لتقرأه الأجيال القادمة، فذات يوم سيصبح واقعنا تاريخًا، ولكن زمننا يختلف عن الأزمان السابقة، فسهولة توثيق الأحداث اليومية في العصر الحالي تجعل مهمة رصد التاريخ للوقائع مهمة هينة بالمقارنة بما كان يحدث في الماضي، ولكن تظل الصعوبة قائمة حينما نحاول رصد تاريخ جماعة سرية، تخفي أفكارها والأحداث التي تمر بها أو تنتويها، تحيط نفسها بأسوار عالية بحيث لا يستطيع أحد تسورها أو الولوج في دهاليزها، تضع أوراقها السرية في توابيت مغلقة بحيث لا يستطيع أحد أن يقرأها أو يقترب منها، فالاقتراب من «الأوراق المخفية» لدى أي جماعة من الجماعات السرية يعد

بمثابة الاقتراب من منطقة ملغومة شديدة الخطورة، إذ لا تسعى أي جماعة إلى إخفاء بعض أوراقها وجعلها في «طيات النسيان» إلا إذا كانت هذه الأوراق تشير إلى حقائق ترغب الجماعة في إخفائها عن الأنظار إما لخطورتها، وإما لأنها قد تكشف عن توجهات فكرية أو حركية تمثل منهجاً حقيقيًّا للجماعة غير منهجها أو خطابها المعلن.

وكما تفعل بعض الدول تفعل جماعة الإخوان السرية، فإذا كانت الدول تخفي وثائقها وتحيطها بالسرية وتضع عددًا من السنوات للكشف عنها، فإن جماعة الإخوان تسعى دائمًا إلى إخفاء جميع وثائقها، إلا أنها – كعكس الدول – لا تسمح أبدًا بالإفراج عن هذه الوثائق.

والباحث في علم نفس الجماعات يعرف أن الجماعة – أي جماعة – عندما تشعر أنها مهددة بالزوال أو التلاشي فإنها تدافع عن نفسها عبر عدة وسائل، إذ تسعى أولاً إلى وأد أي حركات تجديدية داخلية ومحاربتها بشتى الطرق (فيما يعرف في العلوم الطبية بمرض «الذئبة الحمراء» وهو مرض يصيب الجسم ينتج عن خلل في الجهاز المناعي للجسم تجعله بدلًا من أن يحمي الجسم من البكتريا والفيروسات فإنه يهاجم الجسم الذي يحميه) كما أنها تسعى في ذات الوقت إلى الانكماش والتقوقع على ذاتها كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس، بحيث تبقى بمعزل عن البناء الحضاري للمجتمع، إلا أن أبرز ما تقع فيه الجماعة التي تشعر بالاضطهاد هو مسارعتها للاحتماء بقوى خارجية، خارج الجماعة أو خارج الدولة، بغض النظر عن أي اعتبارات وطنية، وقد يتداخل مع الرغبة في الاحتماء بالقوى الخارجية شعور الجماعة بالاستعلاء والتفرد وإحساسها بأنها «حامل أختام الحقيقة» وأن ما لديها من صواب

يجب أن ينتصر على «أصحاب الضلالة» وأنه في سبيل الانتصار للحقيقة يحق للجماعة أن تسلك الوسائل التي ترى أنها قد تحقق لها هذا «النصر المنشود» حتى لو كان هذا الطريق هو مخالفة ثوابت الأمة العقائدية والوطنية.. فلا رأي إلا ما يرى القادة.. وهذا هو منطق الطغاة في كل العصور، وهو نفسه منطق الفراعين الذي حدثنا عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر:29) وتبرير كل فرعون لطغيانه هو أنه صاحب الرأي والمُلك والقيادة - ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: 51) - ولأن قادة الإخوان مثلهم مثل كل الفراعين الطغاة، فلا اختلاف عندهم في الرأي لأن الاختلاف ينهض بسبب تنوع الأفهام، أما في الإخوان فلا تعدد للأفهام ولكن معظمهم، إلا من رحم ربي، يتماهى في عقل رجل واحد هو من تحكم في مقاليد أمورهم.

وفي تاريخ الإخوان القديم ورقة ظلت مخفية لا يعرف أحد عنها شيئًا، ورقة أذهلتني حين عرفتها، كانت مختبئة في أحد دهاليز الجماعة دون أن يلتفت إليها أحد أو يشعر بقيمتها التاريخية، كانت هذه الورقة تحتوي على خبر زيارة لمقر الإخوان في مصر قام بها سيد روح الله مصطفى الموسوي الخميني عام 1938، وتشير هذه الورقة إلى أن ثمة لقاء خاصًا تم بين المرشد الأول للجماعة الأستاذ حسن البنا والسيد روح الله مصطفى الخميني الذي أصبح فيما بعد الإمام آية الله الخميني مفجر الثورة الإيرانية، ولكن مما يؤسف لـه أن أحدًا من الذين عاصروا هذه الواقعة لم يدوِّن أحداثها ووقائعها، رغم أن زيارات أخرى قامت بها شخصيات شيعية شهيرة لمقر الإخوان بمنطقة الدرب الأحمر وصلت إلينا أخبارها وبعض تفصيلاتها.

فذات يوم من أيام 1992 وبمحض المصادفة وقعت تحت يدي بعض تفصيلات تلك الزيارة المجهولة التي قام بها الخميني للإخوان عام 1938، لم تصل لي أخبار الزيارة فحسب ولكن وقعت تحت يدي ورقة تحمل خبر هذه الزيارة، كانت هذه الورقة مطوية ومنسية مثلها مثل عشرات بل مئات من الأوراق التي بعثرها قادة الإخوان في كل مكان، دون اهتمام وكأن وثائق الجماعة عورة ينبغي التخلص منها!

ما قصة هذه الورقة وما هو محتواها؟ في غضون عام 1992 كان قسم المهنيين في الإخوان قد قرر خوض انتخابات نقابة التجاريين، وقام القسم باختياري وأحد المحامين من الإخوان للإشراف القانوني على هذه الانتخابات ومتابعة المخالفات القانونية وتقديم الطعون، وكان لابد أن نتخذ لأنفسنا مقرًا ثابتًا لنتابع من خلاله «يوم الانتخابات» وكان هذا المقر هو مقر الجماعة الرسمي الكائن بشارع سوق التوفيقية القريب من نقابة التجاريين.

ذهبنا إلى المقر بعد صلاة الفجر بقليل وتقابلنا مع فريق العمل من المحامين وكلفناهم بالمهام وأعطيناهم رقم التليفون الخاص بالمقر لإبلاغنا بكل التطورات والأحداث، ورتبنا كل الأمور قبل أن تطأ قدم إخوانية أرض المقر، ثم فرغنا بعد ذلك لقراءة أذكار الصباح وبدأت الأقدام تتوالى على المكان.

كانت المكالمات الهاتفية التي تلقيناها من فريق العمل قليلة، واليوم يمر بلا مشاكل تقريبًا، وكعادتي اتجهت إلى رفوف المكتبة أبحث فيها عن كتاب أقضي معه وقتي، إلا أن عيني اتجهت صوب «رزمة» من المجلات القديمة، فحملت بعضًا من هذه الرزمة وجلست على أحد المكاتب أتصفحها، كانت

هذه الرزمة تحتوي على أعداد متفرقة من مجلة النذير الإخوانية القديمة التي أصدرها الإخوان عام 1938، وأثناء تصفحي بعض الأعداد دخل علينا الأخ الذي يقدم الخدمة للمترددين على المكان وقال لنا إن المرشد الأستاذ حامد أبو النصر حضر إلى المقر وهو بحجرته الآن ويريد أن يرانا ويعرف منا تطورات انتخابات التجاريين.

حين دخلنا عليه وجدته جالسًا على أريكة بجوار مكتبه، أقبل عليه الأخ الذي معي وانكبَّ على يديه مقبلًا إياها، ووقعتُ في حرج، هل أفعل كما فعل الأخ؟ أم أتبع سنة النبي ﷺ إذ كان الصحابة عندما يقابلونه يسلمون عليه مصافحة؟ وبسرعة وجدت حلًّا وسطيًّا إذ قمت بالسلام عليه مصافحة وقبلت رأسه فابتسم الرجل وأخرج من جيبه بعض قطع من الحلوى وأعطاها لنا وهو يقول إنه اعتاد «تحلية» فم زواره حتى يحلي الله فمه يوم القيامة، جلسنا بجواره نتكلم ونتضاحك وقصصنا عليه أحداث انتخابات نقابة التجاريين وأفهمناه أن التصويت سينتهي في الخامسة مساء وبعدها يبدأ الفرز، وقبل أن ننصرف من حجرته أخبرته أنني رأيت في المكتبة بعض أعداد من مجلة النذير واستأذنته أن آخذ ثلاثة أعداد منها إلى بيتي لأستكمل القراءة فأذن لي، على أن أستأذن من الأخ المسئول عن المقر.

وبعد عدة أيام وفي بيتي جلست أتصفح أحد أعداد المجلة ذات مساء،كانت المقالة الأولى التي وقعت عليها عيني تتعلق بإيران وتشرح وتحلل لتاريخها وكيف أنها درة من درر الشرق وأنها دولة هادئة مسالمة، وأثناء القراءة إذا بورقة تقع من المجلة، أمسكتها فوجدتها صفراء قديمة يبدو أنها ظلت داخل صفحات هذا العدد من المجلة سنوات وأحقابًا عديدة حتى

بهت لونها، كانت هناك بعض كلمات في الورقة، قرأت النص المكتوب ثم التفت عنه بل كدت أن أرمي الورقة في سلة المهملات إذ لم يقع في خاطري أنها ذات أهمية ولكن هاجسًا انتابني دفعني إلى طي الورقة ووضعها في مكانها بالمجلة، كان النص المكتوب في الورقة الصفراء هو (الأخ الكريم محمود عبد الحليم رعاه الله رجاء سؤال الأستاذ المرشد عن زيارة رجل الدين الشيعي روح الله مصطفى الموسوي لفضيلته في المقر، هل من المناسب أن نكتب في العدد القادم من المجلة عن تفاصيل هذه الزيارة أم أن فضيلته ليس له رغبة في ذلك؟ عن نفسي، فإنني أحب أن أكتب مقالة بنفسي عن هذا الأمر وعن الذي قاله الأستاذ في خصوص أن نعمل في المتفق عليه وأن نعذر بعضًا في المختلف فيه، وعلى العموم الرأي محال لفضيلته ولكنني أحببت فقط أن أشارك في الرأي، مع رجاء الرد سريعًا لارتباطنا مع المطبعة يوم الجمعة القادم.. توقيع: صالح مصطفى عشماوي).

من هو روح الله مصطفى هذا؟ وهل هو من الشخصيات العابرة التي لا تعلق في الأذهان حتى إن الزيارة لم تلق الاهتمام الكافي إعلاميًّا، بل إن مؤرخي الجماعة لم يكتبوا عن هذا اللقاء وما تم فيه، كانت هذه أسئلة جالت بخاطري ودفعتني إلى الاحتفاظ بالورقة لعلي أجد بعد ذلك إجابة وافية عنها.

وبعد أيام ذهبت لمقر الجماعة لبعض شأني، فتقابلت مع الحاج «عباس السيسي» رحمة الله عليه، والحاج عباس السيسي هو أحد القيادات التاريخية للجماعة وكان قد تتلمذ إخوانيًّا على يد المرشد الأول حسن البنا، كما كان في هذا الوقت، وقت لقائي به، أحد الأعضاء البارزين في مكتب الإرشاد،

وقبل أن ينتهي لقائي معه سألته عن روح الله مصطفى، من هو، وما هي قصة زيارته للمرشد الأول عام 1938؟

أومأ الحاج السيسي برأسه وظهر البشر على وجهه الطيب وقال: من الذي أخبرك عن هذه الزيارة؟ فقصصت عليه القصة وأنبأته بخبر الورقة الصفراء فقال لي: اجعل هذه الورقة معك، لا تعطها لأحد من الإخوان فهم لا يهتمون بالتاريخ ولا بالتوثيق، ولو أعطيتها لهم فستضيع فهذه ورقة مهمة.

استرسل الشيخ في الشرح وتحولت أنا إلى أذن صاغية فقال: روح الله هذا هو الإمام الخميني رحمه الله، لم يكن معروفًا وقتها، كما لم يكن من المقبلين على التقريب بين الشيعة والسنة، ومع ذلك تقابل معه الإمام الشهيد ليحاول إقناعه بالتقريب، أما الذي كان مقتنعًا بالتقريب فهم أفراد آخرون من علماء الشيعة مثل الكاشاني والقمي وغيرهما، وهؤلاء تقابل معهم الإمام الشهيد وأنشأ معهم دارًا للتقريب.

فسألته: ولكن اللقب الذي كان مكتوبًا بالورقة التي عثرت عليها هو «الموسوي» وليس الخميني؟

رد قائلًا: لقبه كان الموسوي نسبة لعائلته على الأرجح، وكان أيضا «الخميني» نسبة إلى البلد الذي ولد فيه، وفي الوقت الذي زارنا فيه كان مشهورًا بـ «الموسوي».

عدت أسأله: قرأت في الورقة مقولة الإمام الشهيد الشهيرة أن نعمل في المتفق عليه بيننا وأن نعذر بعضًا في المختلف فيه، هل هذه العبارة كانت من أجل التقريب بين السنة والشيعة؟

قال: هذه عبارة الأستاذ رشيد رضا رحمه الله وقد استعملها الإمام الشهيد في مواضع كثيرة، منها تلك اللقاءات التي جمعته بالشيعة، وقد قالها للقمي وللكاشاني بعد ذلك... ثم استطرد: ويبدو أن الخميني تأثر بحسن البنا تأثرًا كبيرًا وقد قال لي هذا شخصيًّا.

سألته: وهل قابلت الخميني؟

قال: نعم، قابلته فقد زارته بعض وفود من الجماعة أكثر من مرة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وكنت في إحدى هذه الزيارات، وأخونا يوسف ندا كان على رأس الوفد الأول، وقد ذهب ندا وفقًا لأوامر صدرت له شخصيًّا من الأستاذ التلمساني، أما أنا فقد كنت في وفد آخر، وأظنه الوفد الثاني، وتحدثنا مع الخميني رحمه الله عن ضرورة أن يكون للإخوان جمعية في إيران، فوافق بسماحة وقال إنه تأثر بحسن البنا تأثرًا كبيرًا، وأخبرنا عن زيارته لنا في مصر ومقابلته للإمام الشهيد، وقال إنه أطلق على نفسه لقب «المرشد» تأثرًا وتيمنًا بلقب المرشد الذي كان لحسن البنا.

عدت أسأله: هناك أمر استلفت نظري، لماذا لم يكتب الإخوان عن زيارة الخميني الأولى للإمام الشهيد وما حدث فيها؟! ولماذا لم يكتب الإخوان التفصيلات الكاملة لخبر زياراتكم للخميني في إيران وتفصيلًا؟

قال عن زيارة الخميني لنا: أظن أنه وقتها لم يكن شخصية مشهورة، وكانت الزيارات التي نستقبلها لوفود من الشباب المسلم من كل العالم هي من الأمور الدورية الاعتيادية وبالتالي لم تلق هذه الزيارة اهتمامًا إعلاميًّا وقتها من أي أحد، لا من الجماعة ولا من غيرها، ولكن زيارات أخرى كانت

محـل اهتمام من الجماعـة مثل علاقتنا بالإمـام تقي القـُمي والإمام الكاشـاني لأنهما كانا يعملان مع الإمام الشهيد في التقريب بين السنة والشيعة، والإمام الشهيد كان صاحب فكرة إنشاء دار التقريب، بل هو صاحب هذه التسمية، كما أن أحدًا لم يكن يعلم أن هذا الشـاب «الموسـوي» سيصبح فيما بعد الإمام «الخمينـي» ذائع الصيـت والتأثير، أما عن عـدم قيامنا بالكتابة عـن زياراتنا للخميني بعد الثورة الإسلامية فلاحظ أن نظام السادات كان قد أخذ موقفًا عدائيًـا من تلك الثورة، فالسـادات كان يخاف من مسـألة تصديـر الثورة إلى مصر، فضلًا عن ذلك فإن علاقتنا بالسادات كانت قد تأثرت في نهاية حكمه فلم نرد أن نزيد الطين بلة، وقد استمر مبارك على نفس نهج السادات فآثرنا الصمـت، وخـذ بالك لا تتحـدث بإفاضة عن هذه المعلومـات مع أحد لأن الجماعة من الممكن أن تصاب بأضرار بسبب هذه القصة.

قلت: ولكن الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله أشاد بالثورة الإيرانية!

قال: هذه نقرة وتلك نقرة، المرشد يقول رأيًا، أما أنت فلديك معلومات، والمعلومات التي قدمتها الجماعة للرأي العام محدودة، وليس لك أن تتحدث في هـذه الشـئون لأن هذا ليس من اختصاصك، هـذه معلومات لك وحدك لعلـك تكتبهـا ذات يـوم في ظروف تسـمح بذلك، وأظنك قـرأت في كتاب المرشـد التلمسـاني رحمـه الله «ذكريات لا مذكـرات» أن علماء الشـيعة كانوا ينزلـون ضيوفًا على الإخـوان في المركز العام فى القاهرة، وأن الإمام الشـهيد كان على علاقة محبة وصداقة مع آية الله كاشاني.

انتهـى الحديث بيننا وانتهت الزيارة وبقيـت تلك القصة عالقة في ذاكرتي

وبقيت الورقة الصفراء معي شاهدة على فترة من تاريخ الجماعة وصفحة من صفحاتها.

■ ■ ■

كان الشيخ محمد تقي القُمِّي علامة فارقة في تاريخ العلاقة بين حسن البنا والشيعة، ولمحمد تقي القمي قصة تقود إلى عالم سري لم يتطرق إليه الإخوان إلا نادرًا، ما هي قصة محمد تقي القمي؟ وما هي علاقته بالبنا؟

ولد محمد تقي الدين القمي في طهران عام 1908 لعائلة شيعية ثرية، وكانت عائلته ذات باع طويل في المذهب الشيعي، حتى إن سلسلة أجداده لسابع جد كانت ذات مكانة دينية كبيرة بين الشيعة، وكان والده «حجة الإسلام»، وهو أعلى لقب ديني وقتها، أقام أحمد القمي كبير القضاة الشرعيين بطهران، فكان أن نشأ الابن محمد تنشئة دينية ونهل المذهب الشيعي من المنبع، ويكبر الصبي ويصل إلى مدارج الشباب ويقرر أن يدرس اللغة العربية وآدابها وكأنه كان يصوب نظره نحو مستقبل يبتغيه، وبرع الشاب الصغير في علوم اللغة العربية في فترة قصيرة، وفي ذات الوقت ظل يواصل دراسته الدينية على يد بعض علماء الشيعة الكبار، حتى استقام عوده وأصبح صاحب منهج وهدف، وعندما اقترب عمره من الثلاثين قرر أن يخرج من إيران ويجوب العالم في رحلة شبيهة برحلات «جليفر» الأسطورية، فكانت رحلة القمي في بلاد أهل السنة. تلك الرحلة التي قضى فيها الجزء الأكبر من حياته.

ترك «القمي» إيران عام 1937م وبدأ رحلته الطويلة التي أسماها رحلة

التقريب بين السنة والشيعة! هل من الممكن أن يحدث هذا؟ هل من الممكن أن يلتقي الشتيتان بعد أن ظنا كل الظن ألا تلاقيا؟! وهل كان التقريب هو هدف القمي أم كانت له أهداف أخرى؟ فكرة التقريب هذه قد تبدو خلابة آسرة مبهرة، فما أعظم أن تتوحد الأمة! ولكن كيف تتوحد؟ أسيتخلى أهل السنة عن عقيدتهم الراسخة ويندمجون في المذهب الشيعي؟ أم سيحدث العكس ويتخلى الشيعة عن تشيعهم وعن نظرتهم التكفيرية لكبار الصحابة؟ هل سيعيد الشيعة الاعتبار للسيدة عائشة رضي الله عنها؟ هل سيصبح الإمام الغائب محمد بن الحسن المهدي أسطورة من أساطيرهم أم سيظل عقيدة راسخة رسوخ الجبال؟ هل الفروقات الضخمة بين العقيدتين ستصير إلى زوال؟ أم أن هذا التفرق هو من أقدار الله لهذه الأمة؛ لذلك قال سبحانه في الكتاب الكريم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: 118) ثم قال: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ (هود: 119) ولذلك أيضًا قال الرسول ﷺ: **«ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين شعبة»**.

حطَّ القمي رحاله في العراق ثم لبنان، وفيهما تشاور مع علماء الشيعة، وأبدى لهم رغبته في تقريب أهل السنة للشيعة، والغريب أن علماء الشيعة الذين تحدث معهم القمي وافقوه على رغبته وكأن هذا الأمر متفق عليه من قبل، وكأنه خطوة مرسومة ظاهرها هو تجميع الأمة تحت راية واحدة ولكن باطنها هو تمييع عقيدة أهل السنة!! أو بالأحرى كانت بوابة التقريب هي البوابة التي راهن الشيعة عليها في نشر المذهب الشيعي في مصر بحسب أن أهل مصر يضعون آل البيت في منزلة كبيرة، لذلك كانت مصر هي المحطة الثالثة للشيخ محمد القمي، وضع القمي نصب عينيه أن مصر هي قلب العالم

الإسلامي، وفيها الأزهر الشريف الذي كان في بدايته مركزًا شيعيًا فاطميًا، ولعلنا نتذكر دخول الرئيس الإيراني أحمدي نجاد إلى الأزهر الشريف أثناء زيارته لمصر في فبراير عام 2013، وقتها رفع نجاد إصبعيه علامة النصر وكأنه غازٍ جاء يعيد مجد أجداده الفاطميين، بما يذكرنا بمقولة الجنرال الفرنسي «هنري جورو» الذي دخل إلى دمشق غازيًا بعد معركة ميسلون فتوجه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ووقف على القبر متشفيًا حاقدًا وظهر حقده في عبارته الشهيرة التي قالها وقتئذ: (ها قد عدنا يا صلاح الدين).

كان الأزهر هو المستهدف الأول للشيخ محمد القمي، فمن خلاله قد يستطيع الشيعة نشر المذهب الشيعي في مصر مستغلين في ذلك حب المصريين وشغفهم بآل البيت وأضرحتهم. ورد في بال القمي وقتئذ أن الأزهر كان هو المهبط الذي هبط عليه رجل الدين الشيعي «جمال الدين الأسد آبادي الشهير بجمال الدين الأفغاني» أثناء تجواله في بلاد أهل السنة، ومن خلاله تعرف على الشيخ محمد عبده وعلى كثير من علماء الأزهر الكبار، ومن خلال الأزهر قد يستطيع القمي التغلغل وسط أهل السنة وإقناعهم بالتعبد لله وفقًا لمذاهب الشيعة!

وإذ وصل القمي إلى مصر توجه أول ما توجه إلى حسن البنا الذي استقبله وأحسن وفادته، ثم استطاع بعد أيام قليلة، عن طريق البنا، الاجتماع بشيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغي، عرض القمي على المراغي فكرة أن تجتمع الأمة تحت راية واحدة وأن ننسى خلافاتنا العقائدية، فاستقبل المراغي هذه الفكرة استقبالًا حسنًا ووقع في خاطره أن أهل الشيعة من الممكن أن ينتقلوا من تشيعهم إلى «التسنن» فكان أن مد له يد المساعدة وهيأ له فرصة الاتصال

بعلماء السنة الكبار كالشيخ عبد المجيد سليم، كانت الفرصة سانحة فطلب القمي من شيخ الأزهر إتاحة الفرصة له للتدريس في الأزهر كوسيلة من وسائل التمازج النفسي والمشاعري والفكري، فوافق المراغي وأصبح القمي محاضرًا في الأزهر للفلسفة الإسلامية!! وحين اشتعلت الحرب العالمية الثانية عاد القمي إلى إيران حيث ظل فيها سنوات قليلة وفيها تقابل مع أكبر رجل دين شيعي هو «آية الله العظمى الإمام البروجردي» وفي هذا اللقاء تلقى القمي دعمًا معنويًّا كبيرًا من إمامه الشيعي الكبير، إذ كانت الفكرة التي اختمرت في ذهن رجل الدين الكبير هي أنه من خلال فكرة التقريب هذه سينجح الشيعة في «تشييع أهل السنة» وكما يقولون في المثل «كل يغنِّي على ليلاه».

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، عاد القمي إلى مصر ليستكمل رحلته التي ظاهرها «التقريب» وباطنها «التشييع» والتقى القمي بعد عودته أول ما التقى بصديقه الحميم حسن البنا، وكان البنا عند حسن ظن القمي به فقد جعل من إحدى حجرات المقر سكنًا ومقرًّا له، أسرَّ القمي للبنا بسر عودته ومشروعه الذي يسير فيه فبارك البنا له ما فكر فيه: «نِعم الرأي ما رأيت يا قمي».

ومع عدد من علماء السنة كانت لقاءات وحوارات، وفي غضون شهر فبراير من عام 1947 قام القمي بتأسيس «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» ونجح الرجل الدءوب في ضم عدد لا يستهان به من أصحاب القامات العلمية السنية الكبيرة إلى جمعيته هذه، كان منهم الشيخ محمود شلتوت الذي أصبح شيخًا للأزهر فيما بعد، والشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ عبد العزيز عيسى، ووسط هذا الجمع كان حسن البنا المرشد الأول

للجماعة، لا شك أنها كانت صداقة وطيدة تلك التي جمعت بين هذين الرجلين حتى إن تاريخ جماعة الإخوان كان ولا يزال يشيد بهذه الصداقة ويعتبرها من فتوحات البنا.

فتحت دار التقريب أبوابها فضمت لاستكمال الشكل العالم الشيعي الكبير الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والعالم الشيعي العراقي الكبير «السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي» وغيرهم، وبعد إشهار الجمعية صار الشيخ محمد القمي سكرتيرها العام ومؤسسها الأول وفقًا لما ورد في المادة السادسة من النظام الأساسي للجمعية، وكان من نشاط جمعية القمي هذه إصدار مجلة أطلقوا عليها اسم «رسالة الإسلام» وظلت هذه المجلة تصدر ردحًا من الزمن اقترب من عقد ونصف، وفي أعداد هذه المجلة تم نشر الفتوى الشهيرة للشيخ محمود شلتوت والتي كانت مفاجأة كبرى لأهل السنة، أصدر الشيخ شلتوت فتواه في إبريل 1960 وذهب فيها إلى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية ومنها مذهب الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية).

وهذا هو نص الفتوى:

1- إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين، بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره أي مذهب كان ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

2 - إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية

مذهـب يجـوز التعبـد بـه شرعًـا كسـائر مذاهـب أهـل السـنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهـب، فالكل مجتهـدون مقبولون عند الله تعالى، يجـوز لمن ليس أهلاً للنظـر والاجتهـاد تقليدهم والعمل بما يقررونـه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.

توقيع

محمود شلتوت

وبذلك نجح القمي في استخلاص فتوى من أكبر قامة علمية سنية بجواز التعبد بمذهب الشـيعة الإمامية الإثنـا عشرية، في الوقت الذي لم يبح فيه أي عـالم من الشـيعة، للشـيعة، بجـواز التعبد لله بـأي مذهب مـن مذاهب أهل السـنة، ويبدو أن تأثر الشيخ شلتوت رحمه الله بفكرة التقريب هي التي دعته إلى إصـدار هـذه الفتوى، إذ قال في أحد أعداد مجلـة التقريب (وكنت أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي الإمام المصلح محمد تقي القمي ليسـتطيع أن يتحدث عن ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسـه ولا عما لاقاه في سـبيل دعوته وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة وهاجر من أجلها إلى هذا البلـد، بلـد الأزهـر الشريف، فعـاش معهـا وإلى جوارها منذ غرسـها بذرة مرجـوة على بركـة الله، وظل يتعهد بالسـقي والرعاية بما آتـاه الله من عبقرية وإخلاص وعلم غزير وشـخصية قوية وصبر على الغير وثبات على صروف الدهر، حتى رآها شـجرة سامقة الأصول باسقة الفروع تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون في هذا البلد وفي غيره).

علاقة القمي بالمرشد الأول حسن البنا كانت ظاهرة أمام العيان غير خفية ولا خافية على أحد، ذكرها الأستاذ محمود عبد الحليم المؤرخ الأول للإخوان في كتابه (الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ، الجزء الأول) وقال عنها المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني[1] «كان البنا حريصًا على توحيد كلمة المسلمين، وكان يرمي إلى مؤتمر يجمع الفرق الإسلامية؛ لعل الله يهديهم إلى الإجماع على أمر يحول بينهم وبين تكفير بعضهم، خاصة أن قرآننا واحد وديننا واحد ورسولنا - ﷺ - واحد وإلهنا واحد ولقد استضاف لهذا الغرض محمد القمي أحد كبار علماء الشيعة وزعمائهم في المركز العام فترة ليست بالقصيرة» ولعلي لم أجد أحدًا يخالف هذه الحقيقة، كما أنه من المعروف أن البنا قد قابل المرجع الشيعي آية الله الكاشاني أثناء الحج عام 1948م وحدث بينهما تفاهم.

وبعد أكثر من أربعين عاما من مقتل حسن البنا وتحديدًا في غضون عام 1990 وقع حادث سير أليم في باريس توفي بسببه الشيخ الغامض «محمد القمي» وتم نقل جثمانه إلى طهران حيث دفن هناك.

■ ■ ■

كيف تأثر حسن البنا بالشيخ القمي وكيف فكر وهو يلتقي به؟ كان حلم البنا الكبير هو توحيد العالم الإسلامي كله تحت راية الإخوان المسلمين، كان يحلم بنفسه هاديًا لهذه الأمة وقائدًا لها وخليفة عليها، ولد حسن البنا عام 1906 لأبٍ ينتمي للمذهبِ الحنبلي هو الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي،

(1) كتاب «حسن البنا الملهم الموهوب» لعمر التلمساني صـ 78.

الذي حقق وشرح مسندَ الإمام أحمد بن حنبل في كتاب سماه (الفتحُ الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني) إلا أن الأبَ كان حريصاً غاية ما يكون الحرص على أن يُعلِمَ أولادَه المذاهبَ كلها! فكان المذهبُ الحنفي من نصيبِ الابن الأكبر حسن البنا، أما المذهبُ الشافعي فكان من نصيبِ الابن الأصغر جمال البنا والمالكي من نصيب عبد الرحمن البنا، أما الحنبلي فقد كان من نصيب محمد البنا ، فكان بيتُ الأبِ أحمد عبد الرحمن البنا هو البيت الحنبلي الذي جمع المذاهب الأربعة في أركانه الأربعة، وحين مات حسن البنا تم دفنه في مقابر الإمام الشافعي ولكأنما أراد هذا الرجل ألا يغادر المذاهب الأربعة حتى في موته!

أما عقيدة حسن البنا فقد كانت كما يقول هو: عقيدتي هي عقيدة أهل السلف. إلا أن رسائلَهُ دلت على أنه كان - يميل إلى المذهب الأشعري ، ولا غرو في ذلك - إذ لم يكن اتِّباع المذهب الأشعري وقفًا على حسن البنا دون غيرِهِ من أهلِ عصرِهِ وزمانهِ، فالدارس للمذاهب العقائدية في مصر آنذاك يدرك أن معظَم الأزهريين كانوا يؤمنون بهذا المذهب، ولمَ لا ومؤسس الأشعرية هو الإمام أبو الحسن الأشعري، أما أعلام الأشاعرة فمنهم أبو حامد الغزالي والطبري والقاضي أبو بكر الباقلاني وغيرهم - ممن أخذ منهم المسلمون دينهم عبر أجيال وأجيال.

ومابين الأشاعرة والحنابلة علاقة نسب ، فقد كتب الأشعري في آخر كتبهِ (الإبانة) أنه على المذهب الحنبلي، ولا يغير من هذا أن هناكَ العديد من الاختلافات العقائدية بين أحمد والأشعري لأن أبا الحسن الأشعري كان يقصد أنه على مذهبِ أحمد في العبادات والمعاملات لا في العقائد.

نأتي إلى حسـن البنا الذي درس المذهبَ الحنفـي وعاش في كنفِ المذهب الحنبـلي واندمـج عقلهُ من حيـث العقيدة في المذهبِ الأشـعري مذهب أهل الخلـف، لنراه، أي حسـن البنا، وقد اختط لنفسـهِ طريقًا يخـرج به من نطاق المذهبيةِ ويرفع فيه شعارًا سمعه من شيخه رشيد رضا هو (فلنعمل فيما اتفقنا عليـه وليعذر بعضُنا البعـض فيما اختلفنا فيه) كان هذا هو حسـن البنا رجل المذاهـب كلهـا، أو على الأرجح رجل التوفيق بـين المذاهب، لذلك لم يعرف أحدٌ على وجه الدقةِ أكان في العقيدةِ من أهل السلف أم كان من أهل الخلف (الأشاعرة) وهل كان في الفقهِ حنبليًا أم حنفيًا، لأنه كان يجمع بين هذا وذاك بما يتناسب مع مشاربهِ وبما يستريح إليه قلبُهُ.

ولا أظـن، وأنـا غير مفاخر بذلـك، أن أحدًا قرأ عن حسـن البنا ومخر في عبـاب حياته كما فعلت، فعبر تاريخي كلـه قرأت - وأزعم أنني فعلت - كل ما أخرجته المطابع عن حسـن البنا، أحببت هذا الرجل وشـغفت به وبفهمه وفتنـت كبـدي نهايته المأسـاوية، إلا أنني بعد سـنوات من القـراءة والبحث كنت أمج مغالاة الغالين وأكره أيضًا إجحاف المجحفين، ولا أنزه نفسي عن أنني كنت في الفترات الأولى من حياتي قد وضعت الرجل في مكانة أولياء الله الصالحـين الصديقين الذين لم يقترب الخطأ من حياضهـم أبدًا، بهرني بذاكرته وفراسـته وشـدته على نفسـه في العبـادة، حتى قلت في نفـسي إن هذا رجل لم يقـع في هفـوة قط وكأنـه أرقى من الصحابـة أجمعين! ولعل الحـب ومراتب الهوى هي التي جعلتني من المشـدودين للبنا والمشـدوهين به... إلا أنني بعد أن استقام عودي أدركت أن الإنصاف للرجل إنما يكون بتأديمه «أي رده إلى

آدميتـه» فالآدميـة، لا الملائكية، هي التي ترفع قـدره، وإذا كان الله قد خلقنا من طين فلا ينبغي أن نحوِّل أنفسنا أو نحوِّل من نحبهم إلى ملائكة نورانيين، وتنزيـه البشر إنما يكـون بتعديد معايبهـم وإبعادهم عن الكـمال لأن الإقرار بنقائصنا هو في ذاته الإقرار بكمال الله.

ما زالت شـوارع المحمودية تذكر حسـن البنا ذلك الصبي النحيف الذي كان يصطحـب معه بعضًا من أترابه الصبيـان حيث يضمرون في أنفسـهم أمـرًا، ثـم يذهب أحدهـم إلى صاحب حانـة تبيع لروادها أصنـاف الخمور، ويذهـب الآخر لمرابٍ يقـرض بالربا، ويذهـب ثالث لرجل سـيئ السـمعة، وهكـذا حتـى يكتمل عقد مـا انتووا عليـه - فيدس كل واحد منهم خلسـة وفي غفلـة من الناس خطابًا لمن ذهب إليه، وحـين يعثرْ أولئك الغافلون على الخطابات يجدونها نصيحة إسلامية موجهة إليهم من مجهول يُذكِّرهم بالحرام والحـلال وتحريـم الله ما يفعلونــه وعقوبــة من يجـترئ على حدود الله، وفي نهايـة الخطاب يجد القـارئ تهديدًا موجهًا له بالويـل والثبور وعظائم الأمور إن لم يرتدع.

كان الغلام حسن البنا يتنفس أكسجين الحماسة للإسلام،إلا أن شخصيته أُشربـت روح الزعامـة فإنه كان يشـعر وكأنه هو الذي أرسـله الله على رأس مائة عام كي يجدد للأمة أمر دينها، أو كأنه هو المهدي المنتظر من أهل السنة، والإمـام الغائـب عنـد أهـل الشـيعة، - فأوقف نفسـه وحياتـه ومشروعاته وطموحاتـه عـلى الدعـوة لله، ولكـن نظرته للدعـوة امتزجت به شـخصيًا، فأصبح هو الدعوة والدعوة هو لا فرق بينهما في اعتقاده، وكان السؤال الذي

يتردد في ضميره دائمًا هو: هل تنفصل الدعوة عن الداعية؟ وحين أجاب عن هذا السؤال بعد سنوات طويلة كان ذلك عن طريق كتابه الوحيد الذي جعل عنوانه «مذكرات الدعوة والداعية».

نظر الصبي حسن البنا حوله يبحث عن طريقة إسلامية تُشبع ذاته فالتمسها في الطريقة الحصافية الصوفية، فانخرط فيها ونهل منها. ثم أخذ الصبي حسن البنا، وهو في سن المراهقة، عهد الطريقة الحصافية على يد شيخها عبد الوهاب الحصافي الذي سمح له بعد أخذ العهد بالقيام بأدوار الحضرة ووظائفها بمسجد التوبة بدمنهور بمديرية البحيرة.

كانت الطريقة هي بداية الطريق للبنا، تعلم من شيخها وأخذ من شيوخها حلمي زكريا وحسن خزبك وغيرهما، ومنهم عرف التنظيم وآلياته والسمع والطاعة والثقة في الشيخ، وأدرك أن وسيلته في إقامة تنظيم قوي محكم يدين له بالولاء لا تكون إلا بطاعة الأعضاء كما يطيع المريد شيخه، ففي الصوفية يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي من يغسله يقلبه كيف يشاء، وهكذا أصبح البنا في مقتبل أيامه وهكذا أصبح الإخوان بين يدي البنا.

استمر البنا في الطريقة الحصافية لم يغادرها بروحه وإن غادرها بجسده، وكان قبلها قد انقطع عن استكمال حفظ القرآن إذ توقف عن هذا وهو في الرابعة عشرة من عمره رغم أنه كان يتمتع بذاكرة لاقطة قوية، ولكن البنا وجد أن طريق العلم والفقه ليس هو طريقه ولكن طريقه، كما كان يقول، هو صناعة الرجال، كان من الممكن أن يقتفي أثر أبيه في علوم الحديث ولكنه كان يتنقل بين كل العلوم، فيأخذ من كل علم قطفة تكون هي زاده فيما انتوى

عليـه، وكان ممـا قاله لي بعض ممن صاحبوه: إن البنـا رفض أن يؤلف الكتب لأنه كان يريد أن يؤلف الرجال وهذا هو ما نجح فيه.

وفي القاهـرة كانت محطته التالية حيث التحق بمدرسـة دار العلوم،ولأنه كان صاحب همَّة عالية وتأثير أعلى لم يشـغل نفسـه بما ينشغل به الشباب، بل كانت فكرته الدعوية تسيطر عليه وتخلب لبه خاصة أن أتاتورك كان قد مزق أوتار الخلافة الإسلامية وقضى عليها، وكان هذا مما مزق قلب الشاب اليافع فأخذ يجوب أروقة العلماء ويجلس إليهم ويبثهم مشـاعره ويحتد على بعضهم أحيانًـا ويبكـي بين أيديهـم أحيانًا أخرى،ثـم كانت العلامـة الفارقة في حياة البنا، عندما تعرف على الشيخ رشيد رضا والشيخ محب الدين الخطيب ومن خلالهما تحدد مسار البنا.

كان رشـيد رضا تلميذًا للإمام محمد عبده، وكانت قد نشـأت علاقة على البعـد بينـه وبين الشـيخ جمال الديـن الأفغاني، إلا أنـه لم يلتق بـه وكان تأثير هذين الشيخين على رشيد رضا كبيرًا فأصبح عالمًا ثائرًا اتجه صوب الإصلاح الديني والسياسي واسـتقر به المقام في مصر بعد أن غادر بلده لبنان، وجعل طريقته في الإصلاح هي التربية والتعليم، فأنشـأ مدرسـة الدعوة والإرشـاد ثم كانت وجهته الثانية هي الصحافة فأنشـأ مجلة المنار وجعل رسالتها التربية والتعليم.

أمـا محب الديـن الخطيب الذي كان ينتمي إلى أسرة دمشـقية ذات أصول بغدادية، فقد نشـأ في دمشـق وتلقى العلم بها ومن علمائها ثم رحل في طلب العلم إلى الأستانة وظل بهـا إلى أن طرده منها الاتحاديـون الذين انقلبوا على

الخلافة الإسلامية، فجاء إلى مصر وتعرَّف إلى الشيخ رشيد رضا وعمل معه في مدرسته ثم أسس المكتبة السلفية وأنشأ مطبعتها.

لم تمر على البلاد العربية والإسلامية أحداث كمثل الأحداث التي كانت تترى آنذاك، فها هي الخلافة الإسلامية ذات الصبغة العثمانية تقع، وها هو عبد العزيز آل سعود يدحر بجيوشه الذين عُرفوا باسم «الإخوان» جيوش عدوه «آل رشيد» أمراء حائل، ثم توج عبد العزيز آل سعود انتصاراته بهزيمة الشريف حسين، ثم قام جيشه المسمى بالإخوان بشن هجوم على شرق الأردن لإثبات أن الأمور دانت لعبد العزيز ثم ها هو في طريقه إلى توحيد الجزيرة العربية تحت اسم المملكة العربية السعودية.

كان رهان الشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب على عبد العزيز آل سعود، فقد وجدا فيه الخليفة المنتظر، ومن غيره في عرفهما يصلح لها؟ ومن خلال الشيخ المصري حافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز وأحد المقربين له سعى الشيخان حثيثًا للقاء الملك والعمل من أجل مشروعه السياسي والفكري، وفي صورة تبدو وكأنها انقلاب من الشيخين على فكر أستاذهما الشيخ محمد عبده المنفتح ومذهبه الحنفي الأشعري تبنى الشيخان مذهب المملكة الحنبلي، وأخذا في الترويج له بحسب أنه سيكون الراية المذهبية التي ستقوم عليها الخلافة الجديدة، وقد وضعا في خاطرهما تجربة جيش الإخوان الوهابي الذي كان يرفع شعار «الله أكبر ولله الحمد».

أما حسن البنا فقد كان قارئًا مشغوفًا، قرأ ما وقع تحت يديه من علوم، فعرف منهج أهل الشيعة ويبدو أنه تأثر بفكرة الإمامية تأثرًا كبيرًا، ووقع في

خلـده أنـه كأنه هو الإمام الغائـب، ويبدو هذا في تراثه المنقـول لنا، والمنقول عنه وعن تابعيه.

كان كتاب حسن البنا «مذكرات الدعوة والداعية» كاشفًا عن رجل خلط بـين نفسـه والدعوة، حتى إن الإخوان لا يزالـون إلى الآن يتحدثون عن البنا (صاحـب الدعوة) لدرجة أن الإخوان طبعوا عـام 1990 كتيبًا وزعوه على قسم الأشبال بالجماعة عنوانه (حسن البنا مؤسس الدعوة الإسلامية) وعندما أراد الإخوان أن يهذبوا من هذه العبارة، قالوا في كل أدبياتهم إن حسـن البنا مؤسـس الحركة الإسلامية، وكأن الله سبحانه أرسل نبينا وسيدنا محمدًا عليه الصلاة والسـلام لينشر الدين الإسـلامي، ثم أرسـل الإمام المعصوم حسن البنا ليؤسس الحركة الإسلامية!

في مذكرات الأستاذ محمود عساف كتب يقول (كان البنا يسأل الشخص المرشح سؤالًا: هل إذا حدث انقلاب في الإخوان وأبعد حسن البنا هل تظل تعمل في الجماعة؟) ثم يقول عسـاف كان هذا السـؤال يلح عليه حيث انشق بعض المعارضين، لم يحس المنشـقون بمدى تجسـيد الدعوة في شخص حسن البنا)[1].

فـإذا قرأنا تراث حسـن البنا نجد أنه كان حريصًا أشـد ما يكون الحرص على تجميع الأمة تحـت رايـة واحـدة، وحسنة هي تلك الفكرة، ولكنه كان لا يرى إلا رايته هو، ولا يرى إلا نفسه هو، هو الذي يجب أن تجتمع الأمة خلفه ليكون قائدها الرباني، وليس هناك من سـبيل إلى ذلك إلا الجمع بين الشـيعة

(1) مذكرات محمود عساف صـ 61.

والسنة في إناء واحد، حتى لو أدى الأمر إلى التمييع والتنازل، فالعقيدة نفسها لا تهم، والولاء ليس له وجود إلا الولاء للمرشد، لم يدرك البنا أن رغبته الجارفة في أن يكون مرشد هذه الأمة لا تتحقق بالتمييع والتنازل عن ثوابت الأمة، ولكن رغبته الجارفة في إمامة الأمة كلها، جعلته ينظر للموضوع نظرة سياسية لا عقائدية، أو بالأحرى نظرة ذاتية، لذلك كان يبغض الأحزاب كلها ويقف ضدها، وكان أيضًا يكره أن تنقسم الأمة إلى شيعة وسنة، هو يريد أن تكون أمة واحدة ليتسيد هو على الجميع ويكون إمامًا للكل.

تجد حسن البنا يقول في رسائله كلامًا طيبًا في ظاهره إلا أنك إذا تأملته وسبرت غوره وأنزلته إلى حياة البنا وتوجهاته فستجد معنى يختلف عن المعنى الظاهر، بل ستجد غموضًا وتقية، فهو يقول في رسالة دعوتنا (اعلم - فقهك الله - أولًا: أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة عامة لا تنتسب إلى طائفة خاصة، ولا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولبه، وتود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجدى والإنتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تحب الإجماع، وتكره الشذوذ وإن أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة).

والمعنى البادي هنا أن جماعة الإخوان ليست جماعة لأهل السنة، ولا لطوائف الشيعة، كما أنها ليست للخوارج، أو المعتزلة، أو الأشاعرة، أو الجهمية، هكذا هو يقول، ولكنها (لا تنتسب لطائفة خاصة) كما أنها وفقًا للبنا في رسالته (لا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات

وتوابع خاصة)!! ثم يقول (دعوة الإخوان بيضاء نقية غير ملونة بلون).

هل فهمت شيئًا من هذا الكلام، وهل يؤدي إلى معنى واضح، وما تلك الكلمات الغامضة التي يقول فيها (رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة!).

ولعلك تلحظ «التقية» في كلماته هذه، فقد وضعها بطريقة نفهمها على أكثر من نحو، فهو يكاد يقول: إن جماعة الإخوان ليست جماعة سنية، ولا شيعية، ولكنها تجمع بين هذا وذاك.

وتكملة للتقية في رسائل البنا نجده يقول رسالته هذه تحت عنوان: «نعتذر لمخالفينا».(.... ثم أمر آخر جدير بالنظر.. إن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى الخليفة، وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم، أما الآن فأين الخليفة؟).

والكلام عن «الخليفة وشرطه الإمامة» يدخلنا في الطائفة الشيعية من أوسع أبوابها، إذ عندهم فارق كبير بين الخليفة والإمام، ففي دراسة أعدها «مركز الأبحاث العقائدية - وهو أحد المراكز الشيعية الكبيرة - تحت عنوان الخليفة والإمام: (ذكروا في تعريف الخلافة أنها: الرئاسة العامة في التصدي لإقامة الدين بإحياء العلوم الدينية وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد وما يتعلق به من ترتيب الجيوش والفرض للمقاتلة وإعطائهم من الفيء، والقيام بالقضاء وإقامة الحدود ورفع المظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نيابة عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وهي لا تكون إلا بنص النبي «صلى الله عليه وآله» وما زعموه من أنه: لا يصلح أن يقال: إن الله يستخلف أحدًا عنه، ممنوعة، لتصريح أئمة السنة بكون داود (عليه السلام)

خليفـة الله، وأنـه قد وصف بهـذا في القـرآن العظيم، وإنما انحرفـوا عن هذا المعنـى تصحيحًا لخلافة الثلاثة، وتوسـلوا في سـبيل إثبـات صحة خلافاتهم بالشورى حتى عدوُّا الخلافة جزءًا منها، ورغم أن مصطلح الخلافة ظاهر في معنى الإيصاء وتنصيب النائب عن منوبه؛ إذ يفترض وجود مستخلف وأنه مريد لتعيين من يخلفه لأن ذلك من شئونه لا من شأن غيره، ولو لم يكن هذا المعنـى لازمًـا لمفهوم الخليفة لما ترك الخليفـة الأول والخليفة الثاني الأمة دون أن ينصبوا رئيساً لها وإن كان هذا التنصيب بأشكال مختلفة، فتحصل من كل ذلـك أن الخلافة لا تصح إلا بأن ينص السـابق على لاحقه، وأنها من شـئون الدين لا من شـئون الناس،أما الإمامة فهي الخلافة الإلهية التي تكون متممة لوظائـف النبـي «صلى الله عليه وآله» وإدامتها عـدا الوحي، فكل وظيفة من وظائف الرسـول من هداية البشر وإرشـادهم وسـوقهم إلى مـا فيه الصلاح والسـعادة في الدارين وتدبير شـئونهم وإقامة العدل ورفـع الظلم والعدوان وحفظ الشرع وبيان الكتاب ورفع الاختلاف وتزكية الناس وتربيتهم، وغير ذلـك كلهـا ثابتة للإمـام، فما أوجـب إدراج النبوة في أصول الديـن هو بعينه الـذي أوجب إدراج الإمامة بالمعنى المذكور فيها، ويشـهد لكون الإمامة من أصـول الدين أن منزلة الإمام كمنزلة النبـي في حفظ الشرع ووجوب اتباعه والحاجـة إليه ورياسـته العامة بلا فرق، وقد وافق عـلى أنها من أصول الدين جماعـة من مخالفي الإمامية كالقاضي البيضاوي،فالإمامة ليسـت مجرد زعامة اجتماعيـة وسياسـية، فلو كانـت كذلك لكان الإنصاف أنها مـن فروع الدين كسـائر الواجبـات الشرعية من الصـوم والصلاة وغيرها، ولكن الشـيعة لا

يكتفون بمجرد هذا المعنى، بل هي عندهم لطف إلهي كالنبوة، فتكون أصلًا لا فرعًا).

المستفاد من رسائل حسن البنا أنه أراد أن يزيل الفوارق بين العقائد، ولذلك أطلق مقولة أستاذه رشيد رضا في هذا المضمار فقال: (فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه) هو يريد من جماعته أن تجمع الكل في إناء واحد ويكون هو المهيمن على الإناء وحده، ألم يقل من قبل لسكرتيره محمود عساف: إن الإيمان لديك بدعوة الإخوان لا يكتمل إلا إذا آمنت بصاحب هذه الدعوة حسن البنا.

هكذا كان ينظر حسن البنا لنفسه، وهكذا كان أتباعه ينظرون إليه، هو الإمام المعصوم الذي لا يأتيه الباطل أبدًا، لذلك عندما وقع الشيخ محمد القمي تحت يد البنا وجده لقمة سائغة لتحقيق هدفه في تجميع الأمة كلها تحت راية الإخوان المسلمين، ولا نستطيع في الحقيقة معرفة من الذي التهم من؟! خاصة أن حسن البنا هو الذي قام بتوصيل القمي للشيخ محمود شلتوت - قبل أن يصبح شيخًا للأزهر - وهو الذي استطاع التأثير عليه من الناحية العاطفية تحت لافتة أن شلتوت من الممكن أن يجمع طائفة الشيعة مع السنة بحيث يدخلهم إلى التسنن، ومن أجل هذا كان الشيخ شلتوت رحمه الله في معية دار التقريب، ومن أجل هذا أيضًا أصدر فتواه الشهيرة بجواز التعبد لله على عقيدة الإمامية الإثنا عشرية!

■ ■ ■

في دراسة أعدها السيد «محمد علي آذرشب» - وهو من الشخصيات

الشيعية الشهيرة ومن دعاة التقريب بين السنة والشيعة - كشف عن ذكريات الشيخ محمد تقي القمي مع حسن البنا، كانت هذه الدراسة تحت عنوان «التقريب بين المذاهب الإسلامية - القاهرة - القسم الثاني - تاريخ ووثائق» جاء فيها:

(الشيخ حسن البنا والتقريب)

(وحين يتحدث الشيخ القمي عن ذكرياته مع جماعة التقريب يقف طويلًا عند الشيخ حسن البنا، حين يذكره يسري إلى جسده نوع من النشاط والحيوية في الكلام، كأن نشاط الشيخ البنا يسري إلى جسده، لم يكن حسن البنا عالمًا أزهريًا، ولم تكن له علاقات مع شيوخ الأزهر، لكنه كان جبلًا شامخًا في همومه وتحركه ونشاطه وتخطيطه وإخلاصه، بهذه الصفات الكبيرة اخترق أوساط الشباب الجامعي وربّى جيلًا تقيًا ورعًا مجاهدًا مثقفًا ثقافة إسلامية واعية صحيحة، كان يحمل همَّ التقريب بين مذاهب المسلمين انطلاقًا من هدفه الذي كان يعيشه بكل وجوده، وهو عودة الأمة المسلمة إلى عزتها وكرامتها ومكانتها على الساحة التاريخية، روحه التقريبية هذه سرت إلى جماعة «الإخوان المسلمين» التي أسسها ورعاها وأشرف على مسيرتها، وآثاره لاتزال حتى اليوم موجودة بين جماعات الإخوان المسلمين، فهي الجماعة السلفية الوحيدة التي ترفض التعصب الطائفي وتقيم علاقاتها على أساس الإسلام وحده لا المذهب، ولا تعير أهمية للخلافات المذهبية، الشيخ البنا هو الذي سمَّى الدار، جدير بالذكر أن الشيخ حسن البنا كان من أوائل جماعة التقريب ومن المهتمين بدفع مسيرة الدار، وكان الحديث

في الأيـام الأولى لتشـكيل الجماعـة يدور عن إيجاد اسـم للمؤسسـة التي يهم الشـيخ القمي بإنشـائها، هل تحمل اسـم الوحدة، أو التعـارف، أو التعاضد أو..؟ غير أن الشـيخ حسـن البنا اقترح اسـم التقريب لأنه أقرب إلى التعبير عـن أهداف الجماعة، وحملت الجماعة والدار اسـم التقريـب، بناء على اقتراح هـذا الشـيخ التقي المجاهـد، صحيفة البنـا تتبنى التقريب، لا بـأس أن نذكر أن الشـيخ كان مهتماً بأن ينشر في صحيفته ما يقرِّب بين أهل السـنَّة والشيعة، وكان يتعـاون مـع دار التقريب في إيصال صوتها إلى السـعودية التي حظرت هذا الصوت آنذاك، ولا بأس أن أذكر إحدى ذكريات الشـيخ القمي في هذا المجـال، بعد حادثة إعدام السـيد أبـو طالب اليزدي في الحجاز،انقطع سـفر الإيرانيين إلى الحج لسـنوات، ثم عاد حـج الإيرانيين، وعمدت دار التقريب إلى نشر مناسـك الحج على المذاهب الخمسـة أي مذاهب أهل السـنة الأربعة ومذهب الشـيعة الإمامية، من أجل إزالة ما علق في الأذهان تجاه الشـيعة إثر التشـويش الذي حدث بعـد إعدام السـيد الإيراني وخلال سـنوات انقطاع الإيرانيين عن الحج، هذه المناسك توضح بما لا يقبل الشك أن السنة والشيعة متفقان في معظم مناسك الحج إن لم يكن كلها، وما كان بالإمكان إدخال هذه المناسك إلى السعودية لتوزيعها في موسم الحج، لأن التعليمات هناك لم تسمح بذلك آنئذ، ولكن الشـيخ حسـن البنا وجد الطريق إلى ذلك، فطبع كل هذه المناسـك في صحيفته، وأدخلها في موسـم الحج إلى السعودية، وتوزعت بين الحجاج وكان لها أبلغ الأثر بين المسـلمين، وفي تلك السنة حجَّ الشيخ حسن البنا، والتقى في أيام الحج بالعالم المجاهد آية الله أبو القاسـم الكاشاني الزعيم الديني لحركة تأميم النفط في إيران، وبمناسبة الحديث عن الشيخ حسن البنا

يذكر الشيخ القمي ليلة استشهاد البنا (رحمه الله) لقد كان في دار التقريب، وما إن خرج حتى انقطع التيار الكهربائي، وفي وسط الظلام امتدت الأيدي الآثمة لتصفي هذا الداعية الكبير. وقد تكون هذه الأيدي هي التي صفَّت الشيخ المدني في الكويت ثم الشيخ القمي نفسه في باريس).

معلومة جديدة أضافها آزرشب في دراسته هذه، حيث قال: «كان حسن البنا قبيل اغتياله في دار التقريب!! الذي استقر عليه من كتب عن اغتيال حسن البنا، بل والثابت من تحقيقات القضية نفسها أن حسن البنا كان في مقر جمعية «الشبان المسلمين». كان حسن البنا وقت الاغتيال في أزمة طاحنة، فجماعته قتلت رئيس الوزراء «النقراشي» وعلى إثر ذلك قامت الحكومة المصرية باعتقال معظم أعضاء الجماعة، إلا أنها تركت حسن البنا حرًّا طليقًا لتساومه على أن يسلمها أسماء أعضاء الجهاز السري الخاص الذي قام بالعديد من أعمال الاغتيالات والإرهاب، وكان حسن البنا يخشى من سطوة أعضاء هذا النظام الذين أفلتوا من الاعتقال، فلو قام بتسليم الأسماء للحكومة فلن يفلت من انتقام هؤلاء الذين حملوا السلاح واستساغوا الاغتيال وشرَّعُوا للقتل، وإذا لم يسلم الأسماء فتهديد الحكومة له قائم، سيتم تقديمه للمحاكمة على رأس المتهمين بقتل النقراشي والتحريض على قتله، وبذلك تنتهي حياته نهاية مأساوية، رجل أراد أن يكون خليفة للمسلمين، سينتهي به الحال مسجونًا في الليمان أو معلقًا على أعواد المشانق بتهمة التحريض على القتل، أفي ظل هذه الأزمة يفكر حسن البنا في الذهاب إلى دار التقريب بين السنة والشيعة؟!

من أين استقى «تقي القمي» معلوماته في هذا الشأن؟ هل كان البنا في زيارة له وقتها وتم قتله بعد خروجه من اللقاء؟!

أيا كان الأمر فإن مقتل حسن البنا - الذي يحتاج إلى تحقيق تاريخي دقيق - لم يحمل نهاية للعلاقة بين الإخوان والشيعة بل كان مرحلة جيدة تلتها مراحل أخرى كانت العلاقة فيها بينهما أكثر حميمية من ذي قبل، وقد ظل التأثير والتلاقح الفكري يسير على قدم وساق بينهما خاصة أن سيد قطب قد ترك تأثيرًا كبيرًا في كتابات العالم الشيعي الكبير محمد باقر الصدر خاصة عندما كتب كتابه «فلسفتنا» وكتابه «اقتصادنا».

بل إن مفاجأة كبرى فجرها الدكتور العلامة إسحاق موسى الحسيني في كتابه - «الإخوان المسلمون.. كبرى الحركات الإسلامية الحديثة» حينما قال (إن بعض الطلاب الشيعة الذين كانوا يدرسون في مصر قد انضموا إلى جماعة الإخوان) قطعًا لم ينضموا إلى جماعة الإخوان بحسب أنها جماعة سنية، أو أنهم تسننوا وتركوا تشيعهم، ولكنهم انتسبوا إليها بحسب أنها حركة إسلامية يستطيعون من خلالها إحداث قدر من التنسيق يدلفون منه إلى تشييع المجتمعات السنية.

وبغض النظر عن هذا فقد ظل حسن البنا ساعيًا إلى فكرة التقريب حتى إن مؤرخ الإخوان الأكبر محمود عبد الحليم قال (لو كانت الظروف قد أمهلت حسن البنا لتمَّ مزج هذه الطائفة بالطوائف السنية مزجًا عاد على البلاد الإسلامية بأعظم الخيرات)[1].

وفي ذات الصدد يقول جمعة أمين عضو مكتب الإرشاد: «لقد تنبَّه المصلحون من المسلمين إلى الأضرار التي تتعرض لها الأمة الإسلامية بسبب

---

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ج2 ص357.

هذا الانقسام، فراحوا ينادون بوحدة الصف الإسلامي ونبذ أسباب الفرقة بين أبناء الدين الواحد، وقد تزعَّم هذه الدعوة في بدايتها الإمام جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، ثم أخذت الدعوة شكلًا جماعيًّا بعد ذلك فنشأت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي شارك فيها الإمام البنا»[1].

لم يكن هذا هو رأي الإخوان فحسب، ولا تلك هي نظرتهم وحدهم لمرشدهم الأول، ولكن كانت تلك النظرة ممتدة إلى المجتمع الشيعي، إذ يقول هادي خسرو شاهي رئيس مركز البحوث الإسلامية ومستشار وزير الخارجية الإيرانية: «كان نشاط حسن البنا ونهضته في المبادئ ومفاهيمها المطروحة في الواقع مكمِّلًا للتيار الإسلامي السابق له، والذي كان قد بدأه السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني في أواخر القرن التاسع عشر»[2].

واستطرد خسرو شاهي في مقاله قائلًا عن لقاء البنا بآية الله كاشاني (والنقطة الأخرى في هذا الجانب هي لقاء الشيخ حسن البنا مع آية الله كاشاني في زيارة الحج هذه، وبعد إجرائهما الحوار قرَّرا عقد مؤتمر إسلامي في طهران، تشارك فيه شخصيات من العالم الإسلامي كي تتم فيه تقوية العلاقات الودية بين المسلمين أكثر فأكثر)[3].

هل هناك أكثر من ذلك؟! نعم، فالإخوان يعتبرون أن منهجهم يتفق

---

(1) مقال (عليك بالفقه واحذر من الشرك).
(2) مقال بعنوان (نظرة إلى التراث الفكري والاجتماعي للشيخ حسن البنا المؤسس والمرشد للإخوان المسلمين).
(3) المرجع السابق.

مـع منهج الشـيعة، ليس هذا الكلام مـن عندياتي، ولا هو تعسـف في الفهم وتحوير في الاستدلال، بل هو من كلام الإخوان حرفيًّا بلا زيادة ولا نقصان، إذ يقول سـالم البهنسـاوي أحد مفكري الإخوان المسـلمين (منذ أن تكوَّنت جماعة التقريب بين المذاهب الإسـلامية والتي ساهم فيها الإمام البنَّا والإمام القمـي والتعـاون قائم بين الإخوان المسـلمين والشـيعة، وقـد أدَّى ذلك إلى زيـارة الإمـام نواب صفوي سـنة 1954 للقاهرة ولا غـرو في ذلك فمناهج الجماعتين تُؤدِّي إلى هذا التعاون)[1].

لذلـك لم تكـن زيـارة رئيـس إيـران إلى مـصر في غضـون فبرايـر 2013 مجـرد زيارة سياسـية هـي الأولى من نوعهـا، ولكنهـا كانت في المقـام الأول زيـارة إخوانية شـيعية ممتدة، بدأت بزيارة القمـي للخميني في مقر الإخوان، وسيحمل المستقبل لهما مفاجآت لن ينساها أحد.

---

(1) (السُّنَّة المفترى عليها) لسالم البهنساوي ص57.

الفصل الخامس

مسرح العرائس

(في التراث المصري مثل عامي يقول: «طوبة على طوبة خلي العركة منصوبة» ولهذا المثل قصة، فقد كان هناك بعض اللصوص يريدون سرقة الدواب التي يمتلكها أحد أثرياء قرية من القرى والموجودة في حظيرة ضخمة بجوار داره، فافتعلوا معركة وهمية بينهم أمام هذه الحظيرة، فكان أن بدأ أهل القرية في التدخل لفض المعركة، وخرج الثري من داره هو وأولاده يبتغون كبح جماح الخصومة، وخرج الحراس الذين يحرسون الدواب والماشية يحجزون بين المتعاركين، وفي هذه الأثناء دخل النصف الثاني من اللصوص إلى الحظيرة ليسرقوها، وجعلوا صبيًّا لهم يراقب الطريق، وكلما خفتت حدة المعركة، ولصوص الحظيرة لم يفرغوا بعد من السرقة، يقوم ذلك الصبي بالنداء قائلًا «طوبة على طوبة خلي العركة منصوبة» حتى تستمر المعركة بين اللصوص الذين في الخارج، فيخلو الجو للصوص الحظيرة، وحين اكتشف أهل القرية هذه الحيلة صارت عبارة الصبي مثلًا).

في غضون شهر إبريل من عام 2009 قامت ملاسنة حادة بين رمزين من

رموز الإخوان، أحدهما يقيم خارج مصر وهو يوسف ندا[1] مسئول قسم الاتصال الخارجي بالجماعة، والثاني محمود غزلان[2] عضو مكتب الإرشاد والمتحدث الإعلامي للجماعة، كانت الملاسنة ساخنة موجعة ، فيوسف ندا أصدر عدة تصريحات تضمنت إشادة بإيران وثورتها، في ذات الوقت خرج محمود غزلان عن شعوره وكال الاتهامات لندا واعتبره مروجًا للشيعة في مصر، وزاد غزلان بأن قال: إن ما قاله ندا يخرج عن أفكار الجماعة ولا يعبر عنها!! وإن جماعة الإخوان تعادي فكر الشيعة وتدرك خطرهم ولا تسمح لهم بالاقتراب من المجتمعات السنية.

كانت تصريحات غزلان الحادة لافتة للنظر، فالرجل ظهر وكأنه لا يعرف شيئًا عن تاريخ الجماعة ولا عن محاولات المرشد الأول في دمج السنة بالشيعة والتي أطلق عليها (التقريب) كما ظهر وكأنه لا يعرف أن البنا ساعد ـ بجهود متواصلة قبل أن يموت ـ في إنشاء دار التقريب والتي ترتب على نشاطها صدور الفتاوى بجواز أن يعتنق السني مذهب الإمامية الإثنا عشرية!! هل يمكن أن يكون غزلان جاهلًا بقناعات الجماعة وتوجهاتها وهو الذي يتحدث عنها إعلاميًا؟!

لفت هذا الصراع الظاهري نظري، ووقع في قلبي أنه خلاف مصنوع،

(1) يوسف ندا رجل أعمال مصري من قيادات الإخوان ولد عام 1931 ومقيم حاليًا في كامبيونا الإيطالية وكان رئيسًا لبنك التقوى الإخواني وهو مسئول العلاقات الدولية في جماعة الإخوان.

(2) محمود غزلان عضو بمكتب الإرشاد بجماعة الإخوان وزوج أخت خيرت الشاطر نائب مرشد الإخوان ، وهو أحد المتحكمين حاليًا في قرارات الإخوان والمتحدث الإعلامي عنها.

وبعد انتخابات مكتب الإرشاد التي تمت في شهر ديسمبر من عام 2009 عرفت أسباب هذا الخلاف المصطنع.

كنا في شهر يناير من عام 2010 وكان معرض القاهرة الدولي للكتاب[1] على وشك أن يعلن عن فاعلياته، وحدث أن تواصل معي الباحث الإسلامي المدقق حسام تمام رحمه الله[2]، كانت الصداقة قد جمعتنا قبل هذا التاريخ بعدة سنوات، وكان حسام من الباحثين أصحاب «النظر والفراسة» لذلك أصبح محط تقدير من الوسط الصحفي والثقافي والإسلامي في مصر والوطن العربي خاصة وأنه كان قد سافر إلى عدة دول عربية حيث درس فيها واقع الحركات الإسلامية، وكان من الدول التي سافر إليها المغرب وغيرها، ولتعمقه في هذا المجال أنشأ مع آخرين من دول عربية متفرقة موقعًا على شبكة الإنترنت متخصصًا في مجال الحركات الإسلامية في العالم كله، والحق أن الحوارات التي دارت بيننا من قبل كانت متعلقة بتأثر شباب الإخوان بالتيار السلفي، وكان تمام على علاقة وثيقة برموز الحركة السلفية في مصر وقد أتاح لهم الفرصة في التعبير عن أنفسهم في موقع «إسلام أون لاين» الذي كان يترأس

(1) هو المعرض الشهير للكتاب، ينعقد في شهر يناير من كل عام في أرض المعارض بمدينة نصر بالقاهرة.

(2) يعد حسام تمام مؤسس أول مرصد متخصص لدراسة الحركات الإسلامية، وشغل منصب مدير تحرير قطاع الحركات الإسلامية بموقع إسلام أون لاين، وبدأ عمله الصحفى بجريدة آفاق عربية، ثم انتقل إلى جريدة «القاهرة» ثم الأحرار، له عدة كتب وترجمات فى الحركات الإسلامية، وكان محاضراً فى جامعة زيورخ، وساهم فى العديد من الإصدارات المتخصصة فى الشرق الأوسط، بالتعاون مع مركز الثقافة الفرنسى وعدد من الجهات البحثية الأوروبية، من أهم دراساته تسلف الإخوان ، و«ترييف الإخوان» أي تأثيرهم في الأوساط الريفية التي يسود فيها الفقر والجهل ، وكتابه الأشهر «تحولات الإخوان المسلمين» توفي بعد صراع طويل مع مرض السرطان يوم 26 أكتوبر عام 2011 عن ثمانية وثلاثين عامًا.

أحد أقسامه، ثم بعد أن شجر الخلاف بين العاملين في هذا الموقع وإدارته، أنشأ حسام موقعًا اسمه «أون إسلام» كان منبرًا لكثير من الناشطين في مجال الحركات الإسلامية.

قبل أن يبدأ معرض الكتاب في هذا العام جاء حسام تمام من محافظته الإسكندرية إلى القاهرة ليرتب مع دار النشر التي تنشر كتبه «دار الشروق» أمر توزيع وبيع كتابه «تحولات الإخوان المسلمين» في معرض الكتاب، وكعادته عندما يأتي إلى القاهرة اتصل بي حيث حددنا موعدًا للمقابلة في مكتبي، أخذنا الحديث في مناحي مختلفة وكان من الموضوعات التي طرحناها أن نشترك معًا في إصدار كتاب عن قضايا الإخوان المسلمين، تحليلًا لها وتوثيقًا لأحداثها، كان أمر قضايا الإخوان وتوثيقها هو المشروع الفكري والتاريخي الذي أراد حسام تمام إتمامه، وكان مما تحدثنا فيه أننا نحتاج إلى إعادة قراءة هذه القضايا مرة أخرى، خاصة أن الإخوان عندما كتبوا عنها كانت أفكارهم غير محايدة على الإطلاق[1].

كانت القضية الأولى التي رأينا أن نكتب عنها هي قضية «اغتيال حسن البنا» حيث كانت أوراق هذه القضية بالكامل عندي، وكانت الشكوك التي تحدثنا فيها تدور حول ضلوع النظام الخاص في قتل حسن البنا، خاصة أن حسن البنا نفسه وفقًا لشهادة الوزير «مصطفى مرعي»[2] أبدى تخوفه من أن يقوم النظام الخاص باغتياله.

---

(1) لم يتم هذا المشروع إذ داهم المرض حسام تمام فتعطلنا عن إتمامه.

(2) مصطفى مرعي كان أحد أكبر رجال القانون في مصر، وكان هو وقتها الوزير الذي يتفاوض مع حسن البنا من أجل أن يسلم حسن البنا للحكومة أسماء أفراد النظام الخاص.

وقبل أن ينتهي الحوار بيننا سألني حسام عن الخلاف الذي كان قد نشب بين الإخوان بسبب الشيعة: هل لديك تحليل لهذا الخلاف، فأنبأته أنه خلاف محير خاصة أن يوسف ندا من أعمدة الإخوان القديمة ومحمود غزلان هو المتحدث الإعلامي وقطعًا فإن غزلان يعرف خطوات التقريب التي كان يقوم بها البنا مع الشيعة، ولذلك فإن هذا الخلاف يبدو محيرًا نوعًا ما.

قال حسام: ليس محيرًا، الخلاف ينبئ عن طبيعته.

استفهمته: كيف؟

حسام: أنا لديَّ معلومات مؤكدة عن تقارب بين الإخوان والسلفيين، جلس محمود عزت[1] مع ياسر برهامي القيادي الكبير في الحركة السلفية بالإسكندرية وتحدثا عن كيفية التقارب بينهما كحركتين كبيرتين، وكان جواب برهامي أن الحركة السلفية تأخذ على الإخوان عدة أشياء منها موقفها المتقارب مع الشيعة، والأمر الثاني هو وجود بعض شخصيات إخوانية في موقع القيادة مثل الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح عضو مكتب الإرشاد والدكتور محمد حبيب نائب المرشد، وهذه الشخصيات لديها أفكار متساهلة تخالف الشريعة مثل رأيهم عن التقارب مع الشيعة، ورأيهم في جواز ولاية الأقباط والمرأة، في هذه الجلسة التي تمت منذ عام تقريبًا أبدى محمود عزت وعدًا بتصحيح موقف الإخوان من هذين الأمرين؛ لذلك افتعل

(1) محمود عزت هو عضو مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان وهو من رموز التيار القطبي في الجماعة ويشغل حاليًا موقع نائب المرشد.

الإخوان مشكلة الشيعة لتكون تصريحات غزلان بلسمًا شافيًا على قلوب السلفيين، ومن بعدها كتب جمعة أمين - عضو مكتب الإرشاد عن مدينة الإسكندرية - مقالًا حدد فيه موقف الإخوان من الشيعة كان حريصًا فيه على إدانة أفكار الشيعة العقائدية، وأخيرًا كما تعلم تم إسقاط أبو الفتوح وحبيب والإطاحة بهما من عضوية مكتب الإرشاد، هل تعلم ما حدث بعدها؟ أدلى عبد المنعم الشحات القطب السلفي في الإسكندرية بتصريح لبعض المواقع الإسلامية بأن جماعة الإخوان بخروج أبو الفتوح وحبيب اقتربت من الدعوة السلفية!

قلت: قرأت هذا التصريح، والصورة عندي كانت قريبة مما تقول إلا أنني كانت تنقصني المعلومات.

انتهى حواري مع حسام تمام، رحمه الله، واتضحت الصورة الكاملة، الخلاف بين الإخوان حول الشيعة لم يكن خلافًا حقيقيًا ولكنه كان وسيلة إخوانية «لجر رجل» الحركة السلفية في مصر كي تتفق سياسيًا مع الإخوان، الإخوان لا يزالون على رأيهم بخصوص الشيعة والتقريب معهم، ولكن للسياسة ضرورات.

■ ■ ■

عندما نتوغل في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين وعلاقتهم بالشيعة، نجد أن حسن البنا في مراحله الأولى قد وقع في هوى الشخصية الشيعية الشهيرة جمال الدين الأسد آبادي «الشهير بجمال الدين الأفغاني» فضلًا عن علاقاته

المتعددة بكثير من مراجع الشيعة، وأبرزهم آية الله سيد أبو القاسم كاشاني.
وعندما نقرأ أفكار البنا ومواقفه نجده قد تأثر بكثير من أفكار الشيعة، وكان حسن البنا ولا يزال محل إعجاب وتقدير كبيرين من علماء الشيعة بل من عموم الشيعة خاصة «الإمامية الإثنا عشرية» وقد كتب الدكتور العلامة إسحاق موسى الحسيني الذي كان عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى أن توفاه الله عام 1990، وكان أيضًا عضوًا بالمجمع العلمي العراقي، فضلًا عن عضويته لمجمع البحوث الإسلامية، كتب هذا العالم الكبير في كتابه الشهير (الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة) أن الود كان متبادلًا بين الإخوان والشيعة، بل إن الشيعة كانوا يعتبرون الإخوان فرعًا من فروعهم ومتحدثًا بلسانهم وسط الأمة السنية، وكان مما قاله في هذا الصدد (إن بعض الطلاب الشيعة الذين كانوا يدرسون في مصر قد انضموا إلى جماعة الإخوان، ومن المعروف أن صفوف الإخوان المسلمين في العراق كانت تضم الكثير من الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، وعندما زار «نواب صفوي»[1] سوريا وقابل الدكتور «مصطفى السباعي» المراقب العام للإخوان المسلمين هناك، اشتكى إليه الأخير أن بعض شباب الشيعة ينضمون إلى الحركات العلمانية والقومية، فصعد نواب إلى أحد المنابر وقال

(1) 27هو السيد مجتبى ميرلوحي، معروف بنواب صفوي، رجل دين شيعي ولد عام 1924 وتزعم حركة شيعية اسمها فدائيان إسلام - وكان قد التقى سيد قطب وتأثر به وزار الإخوان في مصر عام 1954 وألقى خطبة في جامعة القاهرة تحت إشراف ورعاية الإخوان، وبعد محاولة اغتيال رئيس وزراء إيران «حسين علاء» صدر حكم بإعدامه، وتوسط الإخوان لمنع تنفيذ الحكم ولكنه أعدم عام 1956.

أمام حشد من الشبان الشيعة والسنة: «من أراد أن يكون جعفريًا حقيقيًا فلينضم إلى صفوف الإخوان المسلمين».

وحين أسس المرجع الديني الشيعي محمد باقر الصدر في العراق (حزب الدعوة) الشيعي، وهو أحد أكبر الأحزاب الشيعية في العراق، رأى أن يدخل في تحالف واضح مع (الحزب الإسلامي العراقي) السني، وقد كان الحزب الإسلامي هذا هو الذراع السياسية لجماعة الإخوان في العراق، ثم دخل حزب باقر الصدر الشيعي مع الحزب الإخواني في تحالف بعد ذلك حتى إن كثيرًا من المؤرخين قالوا إنهما كانا في حالة وحدة.

وعلى صعيد آخر لم تكن بعض الرموز الإسلامية مثل أبوالحسن الندوي وأبو الأعلى المودودي، وهما من أكثر المفكرين تأثيراً على فكر جماعة الإخوان المسلمين بعد الشيخ البنا، خارج هذا السياق، كان الهم الذي جمع مشاعر المودودي والندوي هو ذلك التفرق بين طوائف المسلمين في الهند في الوقت الذي كانت الأكثرية الهندوسية كيانًا واحدًا، شعر هذان الرجلان بالحاجة الملحة إلى وحدة مسلمي الهند بمختلف طوائفهم السنية والشيعة الإمامية وحتى البهرة الإسماعيلية، وكانت أفكار حسن البنا ذات تأثير كبير في هذين العالمين، خاصة فكرته عن التقريب بين الطوائف الإسلامية المختلفة، والغريب أن المودودي بالذات كان صاحب تأثير كبير فيما بعد على سيد قطب، وكذلك كان الندوي، وكان المودودي قد صنع لنفسه قوامًا علميًا خاصًا به حتى صار صاحب مشروع فكري.

والبادي من فكر سيد قطب «الصانع الثاني للمنظومة الفكرية للإخوان» أنه تأثر بهذين المفكرين، حتى إنه كتب مقدمة للترجمة العربية لكتاب الندوي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ومن المعروف وفقًا لتراث الندوي أنه كان يمجد، إلى درجة تقترب من التقديس، سلالة آل البيت إلى الحد الذي كان يقربه من الشيعة الإمامية، أما فكرة «الحكومة الإسلامية» التي كانت ماثلة في فكر المودودي فقد تأثر بها سيد قطب وأخذ منها مشروعه الفكري وتلقى منه فكرة «الحاكمية» فضلًا عن تأثره، قطب، بكتاب المودودي «المصطلحات الأربعة».

وفي ذات الوقت تجد أن الإمام الخميني مرشد الثورة الإيرانية وضع كتابًا تحت عنوان «الحكومة الإسلامية» وضح من خلاله تأثره بفكر سيد قطب والمودودي، وقد كان كتاب الخميني هذا حاضرًا بقوة في المشهد الإسلامي الإخواني المصري إبان فترة السبعينيات، وأذكر حينما كنا طلبة بالجامعة وفي غضون عام 1979 أنه انتشر بين طلاب الإخوان المسلمين كتاب (الحكومة الإسلامية» للخميني، وكان الأستاذ مصطفى مشهور وقتها يقوم بتدريس هذا الكتاب للطلاب في المعسكرات الإسلامية، وأذكر أنني حضرت أحد هذه المعسكرات في مدينة رأس البر، وكان هذا المعسكر قد نظمته الجماعة الإسلامية، لسان حال الإخوان في الجامعات، وكان بعض شيوخ الإخوان الكبار يلقون محاضراتهم في الأمسيات، وفي الليلة الأولى للمخيم قامت إدارة المعسكر بتوزيع كتيب «الحكومة الإسلامية» للخميني علينا، وبعد أن تسلم كل واحد منا نسخته من ذلك الكتيب طلب منا المشرف على المعسكر

الأخ «زياد عبد الخالق السوري»، وكان من الطلبة السوريين الذين يدرسون في جامعة عين شمس وكان يمت بصلة قرابة لمصطفى السباعي الذي كان مسئولًا عن الإخوان في سوريا، طلب منا أن نقرأ هذا الكتيب بإمعان حيث إن أحد الرموز الإسلامية سيلقي علينا محاضرة عنه في المساء، لم يخبرنا الأخ باسم هذا الرمز الأمر الذي جعلنا نتشوق للمحاضرة فانكب كل واحد منا على كتيب «الخميني» نقرؤه حتى كدت أن أحفظ سطوره.

وفي المساء كانت المفاجأة، الحاج مصطفى مشهور عضو مكتب الإرشاد هو المحاضر، جاء إلى المعسكر في سيارة «فيات» قديمة بيضاء اللون، وكان يقود السيارة شاب كث اللحية أسمر اللون، وكان برفقة الحاج مصطفى رجل في نهاية العقد السادس من عمره عرفت يومها أن اسمه «الحاج أحمد حسنين» وأنه كان أحد الأعضاء الكبار في مكتب الإرشاد وأحد قيادات النظام الخاص بالجماعة، وكانت هذه أول مرة أعرف فيها هذا الرجل الذي كان معروفًا في الجماعة «بالرجل الصامت»!

وبعد صلاة العشاء قام الحاج مصطفى مشهور بإلقاء درس علينا قارن فيه بين كتيب الخميني «الحكومة الإسلامية» وكتاب «معالم في الطريق»، ثم عرج في محاضرته على فكرة الحكومة الإسلامية التي تمثل المشروع الأكبر في فكر المودودي، وعقد مشهور مقارنة بين تلك الكتب، وقال وقتها إن الخميني تأثر بالبنا، لأن البنا كتب في رسائله عن الحكومة الإسلامية، واستطرد مشهور في محاضرته شارحًا نقاط التقاء الخميني مع البنا، فقرأ فقرات من رسالة البنا «دعوتنا» التي تحدث فيها البنا عن أن الإيمان مخدر في قلوب المسلمين ولكنه

يقظ منتبه في قلوب الإخوان، ثم قرأ فقرات من كتاب آخر للخميني عنوانه «جهاد النفس» يقول فيه الخميني مخاطبًا عموم المسلمين: إلى متى يتملككم السبات والغفلة، استيقظوا من نومكم واجعلوا إيمانكم يقظًا متنبهًا.

وفي ختام محاضرته تحدث عن تقارب فكر الخميني بفكر سيد قطب فقال وهو يمازج بينهما: «إن هذا الكتاب وكتاب قطب معالم في الطريق يخرجان من مشكاة واحدة».

■ ■ ■

إذا أردنا أن نتابع مدى التلاقح بين الشيعة والإخوان، سنجد أن إيران بعد الثورة الشيعية كانت من أكثر الدول التي ذهبت إليها آلاف النسخ من كتاب سيد قطب «في ظلال القرآن» ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ذهب فيها معالم في الطريق إلى إيران وهو يحث الخطى، بل كان قد ذهب إليها بعد عام 1966 عندما تم طباعة الكتاب في بيروت، وكان لهذا الكتاب رواج كبير وسط أهل الشيعة، بحيث لم يعرف أحد كتابًا صادرًا من كاتب سني لقي هذا الانتشار والشعبية في دولة شيعية مثل هذا الكتاب.

والباحث الأريب سيجد أن الخميني في فكرته عن ولاية الفقيه، وفي كتابه «الحكومة الإسلامية» قد تأثر بفكرة الحاكمية عند سيد قطب، وفي عام 1966 ترجم السيد علي الخامنئي قائد الجمهورية الإيرانية، تلميذ الخميني والذي كان أيضًا تلميذًا نجيبًا لنواب صفوي الذي كان معروفًا بصلاته الوثيقة بالإخوان، ترجم خامنئي للفارسية كتاب سيد قطب «المستقبل لهذا

الدين» ومن فرط تأثر خامنئي بقطب كتب مقدمة للترجمة تقطر بالمشاعر الجياشة وصف فيها سيد قطب بالمفكر المجاهد، وكان النظام المصري قد أعدم قطب عامها بتهمة تشكيل تنظيم يستهدف اغتيال جمال عبد الناصر وقلب نظام الحكم بالقوة، وهو الأمر الذي اعترف به قطب في رسالة كتبها قبل شنقه بعنوان لماذا أعدموني، وقال خامنئي في مقدمته لهذا الكتاب «بهذا الكتاب في فصوله المبوبة تبويبًا ابتكاريًّا أن يعطي أولًا صورة حقيقية للدين، وبعد أن بين أن الدين منهج حياة، وأن طقوسه لا تكون مجدية إلا إذا كانت معبرة عن حقائقه، أثبت بأسلوب رائع ونظرة موضوعية أن العالم سيتجه نحو رسالتنا وأن المستقبل لهذا الدين».

ظلت العلاقة بين الإخوان والشيعة تظللها الروابط الوشيجة، وظل الود متصلًا من الناحية الفكرية فضلًا عن الإعجاب المتبادل، حتى أن الإخوان شكّلوا وفدًا تقابل مع الخميني في باريس قبل الثورة، وكان ذلك في غضون عام 1978 وفقًا لما قاله يوسف ندا في برنامج «شاهد على العصر» في قناة الجزيرة، وبعد وصول الخميني للسلطة في إيران عام 1979 كانت من أوائل الطائرات التي وصلت مطار طهران واحدة تحمل وفدًا يمثل قيادة التنظيم الدولي للإخوان المسلمين، وكان يوسف ندا القطب الإخواني الكبير والمشرف وقتها على أموال الجماعة وعلى قسم الاتصال بالعالم الخارجي فيها هو أحد الشخصيات الرئيسية في هذه الطائرة رغم أنه أنكر وجوده في هذا الوفد، إلا أن الأستاذ عباس السيسي كان قد ذكر لي في اللقاء الذي جمعنا بمقر الإخوان بشارع سوق التوفيقية والذي كتبت تفصيلاته في الفصل الأول،

أن يوسف ندا كان على رأس الوفد الأول وكان معه الأستاذان جابر رزق المصري، وغالب همت السوري، وبعض ممثلي الإخوان عن دول متفرقة، وكان تشكيل الوفد بأوامر صدرت من الأستاذ عمر التلمساني، ويبدو أن هذا التكليف من الأستاذ عمر التلمساني كانت له أسبابه، ففي هذه الفترة في مصر كان الخلاف قد بدأ يستحكم بين الرئيس الراحل أنور السادات والإخوان، وأخذ الرئيس يتحدث عن انفلاتات الإخوان واستغراقهم في ممارسة العمل السياسي، كما أن استضافة السادات لشاه إيران المخلوع لكي يقيم في مصر أحدثت خصومة بينه، أي السادات، وبين الحركة الإسلامية على عمومها، وكان السادات يعلم علم اليقين أن مفتاح الحركة الإسلامية قابع في مقر الإخوان بحيث كان في إمكان الإخوان تحريك الجامعات ضده، خاصة أن الجماعة الإسلامية بالجامعة، لسان حال الإخوان، وقتها كانت في أوج شعبيتها وفي عنفوان قوتها وكانت تستطيع تحريك الجامعات كلها ضد النظام الحاكم وتوجهاته، فكان أن بدأ السادات يضيق على الإخوان فأصدر عام 1979 لائحة تحكم انتخابات اتحاد الطلبة بالجامعة، وكان الهدف من هذه اللائحة هو «قص ريش» الجماعة ومنعهم من تصدر العمل الطلابي.

كانت كل هذه الأشياء في خاطر الأستاذ عمر التلمساني، عندما أوفد وفوده إلى طهران لتقابل الخميني، لذلك كان لابد أن يكون يوسف ندا، مسئول الاتصال الدولي بالجماعة، على قمة هذا الوفد، فقد كان مكلفًا بمهمة خطيرة قد تصنع تاريخًا جديدًا للمنطقة.

طرح الوفد الإخواني على الخميني فكرة أن تبايعه الجماعة بكافة فروعها

الدولية في كل العالم على أن يكون خليفة للمسلمين، ولكنها اشترطت على ذلك شرطًا هو أن يصدر بيانًا يقول فيه «إن الخلاف على الإمامة في زمن الصحابة مسألة سياسية وليست إيمانية» ولكن الخميني لم يرد عليهم وقتها، وعندما صدر الدستور الإيراني كان الأمر بمثابة مفاجأة للإخوان - وفق ما قال يوسف ندا في حواره مع قناة الجزيرة برنامج شاهد على العصر - إذ نص الدستور الإيراني على أن «المذهب الجعفري هو المذهب الرسمي للدولة وبولاية الفقيه نائبًا عن الامام الغائب».

كانت هذه المادة في الدستور هي الإجابة على طلب الإخوان، فالخميني بهذه المادة قال لهم إن الخلاف لم يكن سياسيًّا أبدًا ولكنه كان عقائديًّا، فإن قبلوه خليفة للمسلمين بمذهبه فأهلًا وسهلًا، ومع هذا كان الإخوان في مصر مستمرين على تأييد الخميني وثورته، بحيث تحولت مجلة الدعوة لسان حال الإخوان إلى منبر من منابر الدفاع عن الثورة الإيرانية، وفي سبيل هذا الدفاع غضت الجماعة الطرف عن الاعتقالات وأحكام الإعدام التي صدرت في حق العشرات من أهل السنة بإيران، لم يتألم الإخوان من أجل إخوانهم من السنة، ولم يرمش لهم جفن للقمع الذي حدث لهم، بل إن مجلات الإخوان ونشراتهم ودعاتهم سكتوا عن هذا الأمر وساهموا في إلقائه داخل جب سحيق من النسيان وكأن الأمر لا يعنيهم، غاية ما قاله الأخ يوسف ندا في برنامج قناة الجزيرة شاهد على العصر بتاريخ 10/ 1/ 2005 إن هذا الأمر المتعلق بالاعتقالات والإعدامات مؤلم إلا أنه طبيعي إذ «لكل ثورة أخطاء».

كان الإخـوان يدافعـون دائـمًا عـن إيـران الشـيعية وثورتهـا الخومينيـة، حتـى أنهـم، وفقًا ليوسـف ندا في برنامج الجزيرة شـاهد عـلى العصر بتاريخ 10/ 1/ 2005 حاولـوا حل مشـكلة الرهائن الأمريـكان في إيران، وبذلك كان الإخوان يمسـكون العصا من المنتصف، فقام السفير الأمريكي في مصر بزيارة المرشد الأستاذ التلمساني وكلمه في هذا الأمر وأبدى المرشد استعداده للتدخل في هذه المشـكلة وحلها، وأعطاه السفير رقم هاتف البيت الأبيض، ويقول يوسف ندا في البرنامج المشار إليه آنفًا «اتصلت بالبيت الأبيض وكان المرشـد بجـواري وأخبرتهم أننـي أمثل جماعـة الإخوان وأريـد الحديث مع الرئيـس الأمريكـي، فأخذوا رقم هاتفي ووعـدوني بالاتصال ولكن أحدًا لم يتصل بي».

كان الإخـوان يريـدون أن تكون لهم يد عـلى الخميني وعلى الأمريكان في ذات الوقت،ولكن خاب سـعيهم وفشـلوا في مسـعاهم، إلا أن هذا لم يفت في عضدهـم وظل الإخـوان يدافعون عـن الخميني وثورته حتى أن المرشـد الأسـتاذ التلمسـاني قـال بتاريـخ 16/ 2/ 1984 لمجلـة «كرسـنت» وهـي مجلـة كندية إسـلامية «لاأعرف أحـدًا من الإخوان المسـلمين في العالم يهاجم إيران».

وعند وفاة الخميني عــام 1989 أصدر المرشـــد العـام للإخـوان حامد أبو النصر، نعيًا يقطر حزنًا قال فيه: «الإخوان المسلمون يحتسبون عند الله فقيد الإسلام الإمام الخميني، القائد الذي فجّر الثورة الإسلامية ضد الطغاة».

كانت وفاة الخميني نكبة للشيعة وللإخوان المسلمين، فالخميني، وفقًا لما قاله لهم، تأثر بحسن البنا حتى أنه أطلق على نفسه لقب المرشد اقتداءً بحسن البنا، وفي هذا يقول أحد أكبر الشيعة في مصر، وهو أيضا أحد الأعضاء القدامى في جماعة الإخوان، المستشار الدمرداش العقالي (وأعود لأقول إن حسن البنا كان داعيًا إلى التقريب وأذكر في هذا الخصوص أن الثورة الإسلامية الإيرانية بقيادة الإمام آية الله روح الخميني، حفظت للإمام حسن البنا هذه السابقة والنظرة النافذة، فاستخدمت صفته التي بدأ بها حياته وهي كلمة مرشد، وحسن البنا هو أول من تسمى بكلمة مرشد حيث كان يطلق عليه المرشد العام للإخوان المسلمين، يجهل الناس أن الإمام الخميني ترك جميع المسميات الحوزية في حوزيات الشيعة مثل كلمتي المرجع والغاية وحرص على كلمة مرشد الثورة تيمنًا بالإمام البنا، وقال لي من أثق في صدقه من حول الإمام الخميني أنه رفض أن يُسمى «المرشد العام» وقال فليبق العام حقًّا لأول من أحيا الروح الإسلامية في مصر في القرن العشرين - حسن البنا - وأطلقوا اسمه على ساحة ضخمة في طهران، ساحة الإمام الشهيد حسن البنا، وليس هذا من فراغ ومن يحاولون أن يصوروا أن دعاة الإسلام الصحيح سنة وشيعة يمكن أن يفترقوا إنما هم واهمون، لأن من يفترقون هم الدعاة الكذبة، سواء للتسنن أو للتشيع، ولو أخلص الناس دينهم لله لاقترب التسنن من التشيع والعكس)[1].

---

(1) الدمرداش العقالي صحيفة الوطن الكويتية 27/ 11/ 2007.

لم تكـن وفـاة الخميني هي نهاية العهـد الذي بينهما، ولكنهـا كانت بمثابة انتقـال إلى «طـور» آخـر من العلاقـة، ففي عهد عـلي الخامنئي الـذي أصبح «مرشـدًا» في مرحلة ما بعد وفاة الخميني، أصبحت كتب سـيد قطب تدرس في مـدارس الإعـداد العقائـدي لـ(الحـرس الثـوري الإيراني) كما بـرز نفوذ لمرجعيات دينية مثل «آية الله محمد تقي مصباح يزدي» وهو الأستاذ الروحي لأحمـدي نجاد والـذي أصدر العديد مـن الفتاوى التي أثـارت جدلًا وكان منهـا وجوب انتخاب أحمدي نجاد وتحريم انتخاب من ينافسـه، وهي فتوى شـبيهة بالفتوى التي أصدرهـا بعض دعاة الإخوان أثناء انتخابات الرئاسـة المصريـة إذ أفتوا بوجـوب انتخاب محمد مرسي وتحريـم انتخاب أي منافس له، وتكمن أهمية مصباح يزدي في أنه أحد أكبر المعجبين بسـيد قطب وكتبه، ويشـار إلى مصبـاح يزدي بحسـبه أحد أكبر الفلاسـفة الإيرانيـين في العصر الحديـث، ولذلك كان منطلقه في إعجابه بقطب من زاوية الحاكمية وجاهلية المجتمعات.

■ ■ ■

لم يكـن الغـزل بينهما من طـرف واحد، فالإخوان لا يضيعـون فرصة إلا وتغزلـوا فيهـا بإيران وسياسـتها، وكذلك كانت إيران تفعـل، ففي موضوع محطـات (البرنامج النووي الإيراني) المسـتأنف تخصيبه والذي يثير حالة قلق في المجتمـع الدولي، وقـف الإخوان بكل قوة للدفاع عن إيـران، يقدمون لها المبررات، وكأنها لا تمثل أي وجه من أوجه الخطورة على المنطقة، أو كأن إيران

دولة من الحمائم لا تسعى إلى التوسع على حساب منطقة الخليج كلها، حتى أن مهدي عاكف مرشد الجماعة أدلى بتصريح في جريدة النهار الكويتية عن البرنامج النووي الإيراني، وهل يؤثر على أمن الخليج قائلا: «هذا البرنامج من حقهم، حتى ولو كان قنبلة نووية فهذا حقهم».

وقال أيضًا: «وفيما يخص المد الشيعي أرى أنه لا مانع في ذلك، فعندنا 56 دولة في منظمة المؤتمر الإسلامي سنية، فلماذا التخوف من إيران وهي الدولة الوحيدة في العالم الشيعية.»

يُفصح مهدي عاكف هنا عن الضمير المستتر في الجماعة، ضميرها الذي لا يرى غضاضة في أن يمارس الشيعة نشاطًا يستهدف نشر مذاهب الطوائف الشيعية وسط أهل السنة، ولم لا والمرشد الأول حسن البنا استطاع أن يقدم الشيخ الشيعي «محمد تقي القمي» للشيخ محمود شلتوت الذي أصبح فيما بعد شيخًا للأزهر، ولم لا والشيخ شلتوت أصدر فتواه بجواز أن يتعبد أهل السنة لله من خلال مذهب الإمامية الإثنا عشرية الشيعي مع ما فيه من مآخذ عقائدية أبسطها القول بعصمة الأئمة وكونهم في مرتبة تلي مرتبة النبوة، إذ تؤمن فرق الشيعة بوجود إمام يرث العلم عن سيدنا محمد ﷺ، هذا الإمام هو المسئول في عقيدتهم عن قيادة الأمة كلها بتكليف ليس من أحد من بني البشر. ولكن تكليفه هنا من الله عز وجل مباشرة، ومن أصول عقيدتهم التي ليس فيها تفريط أن هذا الإمام يكون معصومًا عن الخطأ، منزهًا، لا يأتيه الباطل ولا يقترب منه قيد أنملة، هو أعلى من كل البشر، بل أعلى من الأنبياء سوى الرسول ﷺ، ومن أجل أنه معصوم وهو الذي يقوم بتبليغ الأمة دينها

فإن هذا يقتضي استمرار الوحي وفقا لبعض مذاهبهم، وفي مذهب الإمامية يقولون إن الأئمة منحهم الله سبحانه علمًا لدُنّيًا مثل العلم الذي كان عند رسول الله ﷺ، ويُختار الإمام من قبل الله عز وجل لا بواسطة الناس، ويوصي كل إمام بالإمام الذي يليه، والأئمة بعد النبي صلى الله عليه وآله اثنا عشر من أهل بيته، أولهم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وآخرهم الإمام المهدي المنتظر محمد بن الحسن العسكري، وهو باق منذ ولادته إلى يومنا هذا غير أنه اختفى عندما دخل في سرداب.

لا يجد الإخوان غضاضة في أن ينتشر هذا المذهب الشيعي بين أهل السنة وفقا لمرشدهم مهدي عاكف، خاصة أنهم أعطوا، أي الإخوان، لحسن البنا منزلة شبيهة بمنزلة الإمام المعصوم، حسن البنا عندهم إمام ملهم لم يقع في خطأ في حياته قط، كما قال نجله أحمد سيف الإسلام حسن البنا في حوار له بجريدة المصري اليوم في يونيو من عام 2011، ونفس القول تجده يتردد في أدبيات الإخوان، بل إن هذه الجماعة احتفت بتاريخ البنا ورسائله وحياته وحركاته وسكناته، ولم تحتف بالرسول ﷺ ولو بمقدار العشر!

فكرة الإمامية إذن ليست غائبة عن فكر الإخوان، حتى إنهم أطلقوا على البنا لقب الإمام وهو في منتصف العقد الثالث من عمره! وكان قرب البنا من الشيعة هو الذي جعله يرى الإمامة في نفسه، ويرى العصمة في عمله، وتسرب هذا الفكر إلى جماعة الإخوان حتى أصبحت وكأنها أحد أفرع الشيعة وسط المجتمعات السنية، ورغم أن حرب جنوب لبنان عام 2006 كانت خاصة ببلد عربي وهو أمر يهم كل العرب، فإن اقتراب الإخوان

من حزب الله، واقتراب حزب الله من حماس الذراع العسكرية للإخوان، جعل تأييد الإخوان لحزب الله في هذه الحرب يدخل في نطاق «التمازج بين الاثنين» فقد كان تأييد جماعة الإخوان المسلمين لحزب الله أكثر من صريح، كان دعمها لهم ليس خافيًا على أحد، للدرجة التي جعلت مرشد الإخوان وقتها، مهدي عاكف، يقول في مؤتمر صحفي عقده في نقابة الصحفيين «إن الإخوان على استعداد أن يرسلوا أكثر من عشرة آلاف مقاتل لكي يقاتلوا مع حزب الله في جنوب لبنان!» وبهذا التصريح تكون جماعة الإخوان قد خرجت عن تحفظها وأظهرت أن لها كتائب تستطيع القتال بها بجانب حزب الله! وحين ظن البعض أن عبارة مهدي عاكف مرشد الإخوان، هي فلتة من فلتات اللسان، أطلقها دون أن يدري أثرها، خرج علينا عصام العريان أحد المفكرين الكبار في الجماعة الإخوانية على قناة المنار اللبنانية الشيعية ليقول: «باستطاعة الإخوان إرسال أكثر من مائة ألف مقاتل للوقوف كتفًا بكتف مع إخوانهم في حزب الله».

وعلى نفس الوتيرة قال مهدي عاكف لقناة الجزيرة، برنامج الحوار المفتوح، بتاريخ 6/ 3/ 2004 وهو يتحدث مع المذيع «غسان بن جدو» عن الشيعة: يا سيدي الكريم الشيعة والسُّنَّة أمة واحدة، قبلتها واحدة، دينها واحد، صلاتها واحدة، حجها واحد، على ماذا نختلف؟ ثم أردف قائلا: ثقافة الإسلام حينما تُربي المسلم إنما تربيه ليعبد الله ويأخذ طريقه إلى الجنّة، والإخوان المسلمون والحمد لله موقفهم في هذا واضح حينما يربون الشخص المسلم على هذا الفهم الإسلامي الجامع الذي لا يفرق بين مسلم،

كل مـن قـال لا اله إلا الله فهو مسـلم ويتبع المذهب الذي يطمئـن قلبه إليه، فالمذاهـب السُّـنّية والمذاهب الشـيعية كلها مذاهب معتبرة تقـود إلى الجنة إن شـاء الله حينـما يحترمها الإنسـان، وأنا من وجهة نظـري أن هذا الذي يحدث الآن على السـاحة العربية والإسلامية إنما نتيجة للجهل، ونتيجة لخلو الثقافة الإسلامية والعربية من المقاصد الحقيقية لهذا الدين.

وفي نفس البرنامج قال الدكتور يوسف القرضاوي: منذ عشرات السنين بـدأت دار التقريب بين المذاهب الإسـلامية في مدينـة القاهرة وكان فيها من أكابر العلماء الشـيخ عبد المجيد سـليم والشيخ محمود شـلتوت والشيخ عبد العزيـز عيسـى والشـيخ محمد المـدني، وكان معهم الشـيـخ حسـن البنا وكان الشـيخ تقي الدين القُمي يذهب إلى المركز العام للإخوان المسلمين ويستقبله الشـيخ حسن البنا المرشد الأول، وكانت قاعدتهم هي القاعدة الذهبية التي أقامها الشـيخ رشـيد رضا رحمه الله وتبناها الشـيـخ حسـن البنـا، نتعاون فيما اتفقنـا عليه ويعـذر بعضنا بعضًا فيـما اختلفنا فيه، التقريـب حدث منذ زمن بعيد وأنا أذكر أننا اسـتقبلنا السـيد نواب صفوي رئيس جمعية فدائيان إسلام في المركـز العـام واسـتقبلناه في جامعة القاهرة في احتفـال ضخم كبير، وكان من الأسباب التي أدت إلى حل الإخوان المسلمين وحدث بينهم وبين رجال الثورة فيما بعد، المبادرات يعني من قديمة ويجب أن تسـتمر لا يجوز أن نيئس أبـدا من جمع كلمة الأمة وكما قال الأسـتاذ عاكف لمـاذا لا تجتمع هذه الأمة؟ ومـا الذي يفرق بينهـا، وربها واحد وكتابها واحد ورسـولها واحد وعقيدتها واحـدة وقبلتها واحـدة، كل شيء يُجمع هـذه الأمة ولكن أعـداء هذه الأمة

هم الذين يحاولون تشتيت كلمتها وتفريق صفوفها، حتى لا يلتئم لها جمع ولا تجتمع لها كلمة، ويجب أن نكون أقوى من هذه المكايد وأن نعلو عليها ونجمع كلمة الأمة وخصوصًا في هذه الأوقات العصيبة.

وكان لا بد أن ترد إيران الهدية للإخوان، فبعد قيام الثورة المصرية الحديثة وقبل أسبوع من سقوط مبارك، وقف السيد علي الخامنئي على منبر خطبة الجمعة في الرابع من فبراير 2011 وأخذ يصول ويجول متحدثًا عن الثورة المصرية مشبهًا إياها بالثورة الإسلامية ضد شاه ايران، أعطى خامنئي وصف «الإسلامية» للثورة المصرية رغم أنها كانت ثورة الجميع لا ثورة فصيل بعينه، وكأنه من منبره كان يعطي إشارة البدء للجماعة الإخوانية حتى تستولي على هذه الثورة، والغريب أنه بعد هذه الخطبة مباشرة وقفت الجماعة الإخوانية موقفا غريبًا من الثورة، إذ تركت الميادين وذهبت لتتفاوض مع السيد/ عمر سليمان، وكان من يتفاوض عنها هما محمد مرسي وسعد الكتاتني، وبعد أن تم خلع مبارك ارتمت الجماعة الإخوانية في أحضان المجلس العسكري وأخذت مسيرتها تدور حول دائرة واحدة فقط لا علاقة لها بمصلحة الدولة ولكنها ترتبط كل الارتباط بمصلحة الجماعة، فكان اتفاق الجماعة مع المجلس العسكري في استفتاء مارس 2011 على تعديل الدستور، وكانت الحرب المقدسة في تعديل هذا الدستور والتي أطلق عليها الإخوان «غزوة الصناديق» وظهروا وكأنهم يشنون حربًا دينية ضد الكفار الذين يعيشون في المجتمع المصري! وتحت الشعار الديني وبريقه الذي يستلب عيون العامة والبسطاء، استطاع الإخوان تحويل الثورة المصرية، ظاهريًا، لتبدو

وكأنها ثورة إسـلامية، وحدث لهم ما تمنوه عندما نجحوا بشـعاراتهم الدينية وبالرشاوي الانتخابية في الاستيلاء على كثير من مقاعد البرلمان الذي مكنهم مـن إدارة معركتهـم في انتخابات الرئاسـة، وعند إعلان فـوز الدكتور محمد مرسي بانتخابات رئاسـة الجمهورية بمصر، كانت إيران الرسـمية من أوائل المسارعين للتهنئة.

ويبـدو أن السياسـة كانـت متداخلة مـع العقيدة، بحيث لا نـدري أكان التحالف الإخواني الشـيعي تحالفًا سياسـيًا استتر بالعقيدة، أم أنه كان تحالفًا عقائديًا اسـتتر بالسياسـة، فالعلاقة بين إيران وحماس لا يمكن تفسيرها فقط بمنظور سـياسي إنسـاني، وإنما يجب أن ندخل إلى التاريخ والعقيدة لنعلم كنه هـذه العلاقـة، يجـب أن ندلف لنقـاط الالتقاء التـي وضعها القمـي مع البنا حينما قررا إنشـاء دار التقريب بين السنة والشيعة، يجب أن نضع في الاعتبار قيام الشـيخ شـلتوت بإصدار فتواه بجواز التعبد على أحد المذاهب الشيعية، ويجـب في ذات الوقت مراقبة علاقة حزب الله وخطابه الإعلامي تجاه جماعة الإخـوان وتنظيمها الـدولي، وخروج العديد مـن التصريحات من حزب الله تؤيد فيها مواقف جماعة الإخوان السياسية مهما كانت.

أيًـا كان الأمر فإن الصورة الكاملة للحالة «الإخوانية الشـيعية» أظهرت أنهـا «أمـة واحدة» فجماعـة الإخوان كما قـال البنا «ليس لها لـون ولا تنحاز لطائفـة ضد طائفة» والشـيعة تبحث لنفسـها عن مكانة تتسـيد بها على الأمة كلهـا وفقـا لنوازعها التوسـعية، ولا مانـع في رحلتها التوسـعية أن تتحالف مـع الإخوان، وكلاهما وضع الدين شـعارًا له، وكلاهما ضاعت منه المقاصد

العليا للإسلام، سواء ما يتعلق بحفظ العدالة والحرية والكرامة الإنسانية، وتعمير الأرض، كلاهما لا يبحث إلا عن الحكم والوصول إلى أستاذية العالم أو بمعنى أصح استعباده وإخضاعه، وهم في الحقيقة قوالب جامدة لا حياة فيها، ولا قدرة لهما على تحويل أحلام اليقظة إلى واقع حقيقي، لذلك كان المشهد دراماتيكيًا، أو بالأحرى عبثيًا، إذ كانت طموحاتهما كبيرة فعلًا، ولكن كليهما نسي أنهما عرائس خشبية تحركها يد اللاعب المختفي وراء الستار، نسيا أنهما مجرد دمى لا حول لها ولا قوة، والله لا يمنح الأستاذية للدمى، ومع ذلك فقد كانت هناك صعوبات جمة وقفت في طريق الدميتين عندما اكتشف الجمهور أنهما عرائس خشبية.

الفصل السادس

الطين المعصوم

في الشعر العربي قصيدة من عيون الحكمة للشاعر (إيليا أبو ماضي) يقول فيها:

نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيهًا وعربد

وكسى الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة وما أنت فرقد

أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد

أيها الطين لست أنقى وأسمى من تراب تدوس أو تتوسد

الإمام في عقيدة الشيعة الإمامية الإثنى عشرية معصوم، فهو المكلف بحفظ الرسالة بعد الرسول ﷺ، لذلك لا يتصورون أن يقع هذا الإمام في خطأ، ولدى الشيعة الإمامية إثنا عشر إمامًا، أولهم سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وآخرهم هو محمد بن الحسن العسكري الذي دخل سردابًا وهو بعد صغير ثم اختفى وينتظرون ظهوره في آخر الزمن، عاش الشيعة عمرهم حول تلك الإمامة المعصومة، واعتبروها من أصول عقيدتهم لا من فرعياتها، لم يقل أحد منهم أنها «إمامة سياسية» ولكنها إمامة دينية دنيوية

مقدسة، ولم يقل أحد منهم إنهم ابتدعوها بعد «الفتنة الكبرى» ولكنها عندهم هي أصل العقيدة، فكما يؤمنون بالرسول فإن الإيمان لديهم لا يصح إلا إذا آمنوا بالإمام وعصمته وتبليغه الرسالة تمامًا كالرسول ﷺ، وقد (تفردت الإمامية من بين الفرق الإسلامية بإيجابها عصمة الإمام من الذنب والخطأ، مع اتفاق غيرهم على عدمها. قال الشيخ المفيد: إن الأئمة معصومون كعصمة الأنبياء، ولا تجوز عليهم صغيرة إلا ما قَدَم ذكر جوازه على الأنبياء، ولا ينسون شيئًا من الأحكام، والإمام منفذ لما جاء به الرسول، وحافظ للشرع، وقائم بمهام الرسول كلها، فلو جاز عليه الخطأ والكذب، لا يحصل الغرض من إمامته)[1].

وتُعرف الشيعة الإمامية بالفرقة الإثنى عشرية، ويقولون عن سبب هذه التسمية: (ومبعث هذه التسمية هو اعتقادهم باثني عشر إمامًا من بني هاشم نص عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، كما هو معلوم للجميع، ثم نص كل إمام على الإمام الذي بعده، بشكل يخلو من الشك والإبهام ولقد تضافر عن رسول الله – صلى الله عليه وآله أنه يملك هذه الأمة اثنا عشر خليفة كعدد نقباء بني إسرائيل)[2].

ويؤمن الشيعة بـ«التقية» ويتوسعون في استخدامها ويقولون بشرعيتها في كل الأحوال ويعتبرون أنها «إظهار للكفر، وإبطان للإيمان» بمعنى أن الشيعي – الذي يعتبر التقية من أصول عقيدته – يجيز لنفسه أن يُظهر أمام غير الشيعة رغبته في التقريب بين السنة والشيعة في الوقت الذي يبطن في قلبه

(1) أضواء على عقائد الشيعة الإمامية للشيخ جعفر السبحاني صـ 388.

(2) المرجع السابق صـ 103

الكفـر بالمذاهب السـنية، وذلك مـن أجل أن يحقق أغراضـه، ومفهوم التقية عند الشيعة هو (اتخاذ الوقاية من الشر)[1].

ويسـتدلون على شرعيتهـا بقول الله سـبحانه ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل 106].

ويسـتدلـون أيضًـا عـلى ذلـك بقولـه سـبحانه: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ [آل عمران 28] والمسـتدل من الآيات أنها ترخص بالتقية في أوقات الضرورة القصوى، فهي ليسـت منهج حياة ولا أسـلوب دعوة، ولكنها من أسـاليب مواجهة أعداء الإسلام في وقت الاستضعاف، وبالتالي لا يُجيز أحد مـن أهل السـنة استخدام التقية بـين المسـلمين في حياتهم ونظـام حكمهم، ولكـن الشـيعة يسـتخدمونها وهـم يتعاملـون مـع أهل السـنة، ويـرون أنها طريقتهـم المثلى لاختراق المجتمعات والدول المسـلمة السـنية، ويقول علماء الشـيعة عـن الظروف التـي دفعتهم لاعتناق التقية كمنهـج لهم في حياتهم في مواجهة أهل السنة إن (الذي دفع بالشيعة إلى التقية بين إخوانهم وأبناء دينهم إنما هو الخوف من السـلطات الغاشـمة، فلو لم يكن هنـاك في غابر القرون – مـن عصر الأمويـين ثم العباسـيين والعثمانيين – أي ضغط على الشـيعة، ولم تكن بلادهـم وعقر دارهم مخضبة بدمائهم كان من المعقول أن تنسـى الشـيعة كلمة التقية، وأن تحذفها من ديوان حياتها، ولكن يا للأسـف!! فإن كثيرًا من إخوانهـم «يقصد السُـنـة» كانـوا أداة طيعة بيـد الأمويين والعباسـيين الذين كانوا يرون في مذهب الشيعة خطرًا على مناصبهم، فكانوا يؤلبون العامة من

---

(1) المرجع السابق صـ 406

أهل السنة على الشيعة يقتلونهم ويضطهدونهم وينكلون بهم؛ ولذا ونتيجة لتلك الظروف الصعبة لم يكن للشيعة، بل لكل من يملك شيئًا من العقل وسيلة إلا اللجوء إلى التقية أو رفع اليد عن المبادئ المقدسة التي هي أغلى عنده من نفسه وماله)[1].

وإذ نظر حسن البنا إلى عقيدة الشيعة وجدها مناسبة لنفسيته وإحساسه بذاته، فهو يرى في نفسه الإمام المهدي، وأتباعه يرون أنه أكثر من ذلك، كما أنه رسم طريقًا لنفسه ظل يسعى من خلاله إلى استعادة الخلافة على أن يكون هو الخليفة الإمام، فيجمع ما عند السنة بما عند الشيعة، وقد أدرك من أول وهلة أن طريقه الذي رسمه لنفسه سيكون مليئًا بالصعاب والأهوال، لذلك فإن التقية يجب أن تكون من أدواته وهو يرفع مصحفه في وجوه المسلمين، ليكون طريق السيف والقوة ممهدًا له بعد ذلك، ومن بعده سارت جماعته على منهج التقية، لم تغادره لحظة بل مارسته في كل العهود وفي كل المواجهات مع الأنظمة المسلمة التي رفعت السلاح في وجهها، لذلك قفزت في ذهنه فكرة التقريب بين السنة والشيعة، والملاحظ أن البنا لم يهتم بتقريب الشيعة للسنة ودفعهم إلى التنازل عن بعض عقائدهم، ولكنه سعى إلى تقريب السنة من الشيعة والفارق كبير بين هذا وذاك، وقد أسفرت جهوده عن صدور فتوى الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بجواز أن يقوم أهل السنة بالتعبد لله على مذهب الشيعة الإثنى عشرية، واعتبر شلتوت أن هذا المذهب هو من المذاهب السنية!! وعلى هذا المنهج سار الإخوان، حتى إن حسن البنا من

---

(1) المرجع السابق صـ 418.

أجـل إذابـة الفروق بين السـنة والشـيعة كان ينهى أتباعه عـن النظر في كتب التفاسير، فقد قال لمحمود عبد الحليم مؤرخ الإخوان الأكبر: (إن كنت تريد نصيحتي فلا داعي لقراءة كتب التفاسير!)[1].

■ ■ ■

«سلسـبيل عـين في الجنة واحنا اشـتقنا لحسـن البنا» كان هـذا هو الهتاف الذي أطلقه خيرت الشـاطر[2] الإخواني العتيد عقب خروجه وسط حرَّاسه من مبنى نيابة أمن الدولة عام 1992 عقب أن أصدرت النيابة قرارًا بحبسـه احتياطيًّا على ذمة التحقيق في قضية سلسـبيل[3]، وحين أطلق الشـاطر هتافه تجمع حوله عشرات من شباب الإخوان الذين كانوا يقفون أمام مبنى النيابة وانضمـوا إليـه في هتافه بحـماس كبير.. وعن بعد وقف عـشرات من جمهور المصريـين العاديـين وهم يرقبون هـذا المشـهد الغريب.. مجموعـة تنتمي إلى فصيـل إسـلامي تهتف بشـعارات تعبر فيها عن شـوقها لـ «حسـن البنا»! لم تسـمع هذه الجماهير، وأظنها لن تسـمع، أي هتاف يُعبِّر فيه الشاطر وإخوانه

---

(1) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ 1 للأستاذ محمود عبد الحليم الجزء الأول صـ- 208

(2) هو نائب المرشد العام لجماعة الإخوان ويعتبرونه أقوى شخصية إخوانية.

(3) قضية سلسبيل - من أشهر قضايا الإخوان ، وكان الأمن المصري في غضون عام 1992 قد داهم مقر شركة سلسـبيل وهـي إحدى الشركات المملوكة لبعض قيادات الإخوان وأشـهرهم خيرت الشـاطر النائب الحالي للمرشـد وحسن مالك المسئول عن الملف الاقتصادي في الجماعة، وعند تفتيش الشركة والدلـوف إلى المعلومات المخزنة على أجهزة الكمبيوتر كشـف الأمن خطة الإخوان للوصول للحكم واسـمها "خطـة التمكين" وكانت أبـرز ملامح الخطة تقوم عـلى اختراق مؤسسـات التعليم والجيش والشرطـة، وتم حبس خيرت الشـاطر وحسـن مالك وتسـعة مـن قيادات الإخوان عدة أشـهر ثم تم الإفـراج عنهـم في صفقة بـين النظام والإخوان، ولم يتـم إحالة القضية للمحاكمـة إذ اكتفت الحكومة بمدد الحبس التي قضوها على ذمة التحقيق ومن بعدها تم حفظ القضية.

عن شوقه وشوقهم للرسول ﷺ! أيشتاقون لرسولنا ولديهم رسولهم!كان حسن البنا هو إمامهم المعصوم، نفس المعصومية والقداسة التي عند الشيعة بالنسبة للأئمة الإثنى عشر.

يخرج الإخواني الكبير عباس السيسي من محبسه في بدايات السبعينيات من القرن الماضي فيؤسس دار نشر بالإسكندرية وينشر من خلالها عشرات الكتب عن حسن البنا أهمها «حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية» و «في قافلة الإخوان المسلمين» إلا أنه لم يكتب في حياته إلى أن توفاه الله أي كتاب عن الرسول ﷺ ولا عن سيرته!

في الإخوان مَنْ يصفون الحاج جمعة أمين بأنه أحد أهم مفكري الجماعة، ذلك أنه كتب العديد من الكتب التي يصنفها البعض على أنها إسلامية مثل كتاب «شرح الأصول العشرين» أو كتابه عن تاريخ جماعة الإخوان، إلا أن أحدهم لم تقع عينه على كتاب لجمعة أمين يشرح فيه أحاديث الرسول ﷺ، أو على الأقل يضع خواطره الإيمانية حول «الأربعين النووية» فقد شغلته عشرون حسن البنا عن أربعين الرسول ﷺ!! كما لم يكتب عن سيرة النبي صلوات الله عليه ولا عن تاريخ الصحابة فقد هام حبًا بالبنا وتاريخه وانشغل به عما سواه!

أما عمر التلمساني مجدد الإخوان فلم يكتب إلا مذكراته في الإخوان ورؤيته السياسية لحكم عبد الناصر، وكتب أيضًا كتابًا اسمه «حسن البنا الملهم الموهوب» ولم يسطر كلمة في كتاب عن حب الرسول وسيرته.

محمود عبد الحليم مؤرخ الإخوان الكبير وضع سيرة النبي خلف

ظهره ذلك أنه لم يكتب إلا عن حسن البنا وتاريخه، بل إن الدكتور يوسف القرضاوي كتب في الفقه كثيرًا وشرح رسائل البنا وأركان البيعة، ولم يكتب كتابًا واحدًا عن فقه السيرة النبوية مع أهمية الأمر.

وقد يلحظ أي مهتم بالإخوان أن رسائل حسن البنا أخذت جهدًا كبيرًا وواسعًا في الشرح من كل مفكري الجماعة حتى وصل عدد المؤلفات بشأنها إلى ما يزيد على مائتي مؤلف وكأن هذه الرسائل هي دين جديد حل محل دين الإسلام.. اقرأ شرحها في كتب سعيد حوى، والقرضاوي، ومحمد بديع المرشد الحالي للإخوان، وعبد الكريم زيدان وغيرهم، وبعد أن تقرأ شروح هذه الرسائل تمهل فإنك حتمًا ستجد أن الجماعة تتقدم خطوة خطوة نحو تقديس حسن البنا الذي تحوّل إلى داعية رباني لا يتصور وقوعه في الخطأ أو الزلل.. وعلى يد موقع إخوان أون لا ين ستجد ركن «الربانية في مذكرات حسن البنا» وستقرأ عشرات القصص «اللاهوتية» عن القديس البنا وكأنه نصف إله ونصف بشر.. ذلك الرجل المعجزة الذي تجري المعجزات والخوارق على يديه حتى إن ابنه أحمد - سيف الإسلام - خرج علينا في حوار له بشأن «قصة حياة البنا» وإخراجها في عمل فني بأن: حسن البنا لم يقع في خطأ واحد في حياته وأنه كان ملهمًا من قبل الله سبحانه وتعالى!

كيف تسربت هذه الأفكار إلى كيان جماعة الإخوان، وهل كانت جزءًا أصيلًا من أفكارهم أم أنها كانت دخيلة عليهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز لأحد أن يضع بشرًا في مكانة عليّة تصل إلى مكانة المصطفى صلوات الله عليه؟ هل يكتمل إيمان مسلم يحب أحدًا قدر حبه للرسول؟ الإجابة أيضًا من حديث الرسول ﷺ الذي أورده البخاري من حديث عبد الله بن

هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ «لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنك الآن والله أحبُّ إليّ من نفسي. فقال: الآن يا عمر» أي الآن اكتمل إيمانك، وقال القاضي عياض إن ذلك شرط في صحة الإيمان.. فإذا كان حب النفس أكثر من حب الرسول يقدح في تمام الإيمان مع أن حب الإنسان لنفسه طبع وفطرة فما بالك إذا ساوينا آخر مع الرسول ﷺ في المحبة والاتباع؟!

وقد بات هذا التقديس ظاهرًا للكافة ويدل على خلل في مشاعر «جماعة الإخوان» الإيمانية، ولا أظننا سنجد كاتبًا إخوانيًّا يستعرض فكرة إسلامية إلا وقال: قال البنا.. قبل أن يقول.. قال الرسول!.. ولن تسمع خاطرة إيمانية من إخواني قديم إلا وجدته يذكر قصة للبنا يستدعي من خلالها دموع السامعين وكأن حياة الرسول ﷺ لا تصلح للاستدلال بها فجاء حسن البنا ليسد النقص فيها! حاشا لله.

لا شك أن شخصية حسن البنا كانت مؤثرة في أتباعه، فمعظمهم كان قليل الثقافة والفكر، كانوا صغارًا وكان أعلى منهم همة وقدرة وجاذبية ففتنوا به واعتبروه الإمام المهدي أو أعلى درجة، وهو فوق ذلك صنع لنفسه في أذهانهم صورة ملائكية؛ فقد صور نفسه كإمام تجري الخوارق على يديه، ففي كتابه مذكرات الدعوة والداعية يقول عن أمر شق عليه عندما كان طالبًا، ذلك أن امتحانه في معهده كان على وشك الانعقاد وهو لم يتم مذاكرته بعد فحدث كما يقول (وإن من فضل الله تبارك وتعالى أنه يطمئن ويسكن نفوس عباده وإذا أراد أمرًا هيأ له الأسباب فما زلت أذكر أن ليلة امتحان

النحو والصرف رأيت فيما يرى النائم: أنني أركب زورقاً لطيفًا مع بعض العلماء الفضلاء الأجلاء يسير بنا الهوينى في نسيم ورخاء على صفحة النيل الجميلة، فتقدم أحد هؤلاء الفضلاء، وكان في زي علماء الصعيد، وقال لي: أين شرح الألفية لابن عقيل؟ فقلت: ها هو ذا، فقال: تعال نراجع فيه بعض الموضوعات، هات صفحة كذا، وصفحة كذا، لصفحات عينها، وأخذت أراجع موضوعاتها حتى استيقظت منشرحًا مسرورًا، وفي الصباح جاء الكثير من الأسئلة حول هذه الموضوعات فكان ذلك تيسيرًا من الله تبارك وتعالى)[٦] ونجح حسن البنا في الامتحان وتفوق فيه بسبب أن الله أرسل له في المنام من يذاكر له الدرس الذي لم يقرأه، لم يرسل الله له رجلًا عاديًا، ولكن أرسل له بعض العلماء الفضلاء الأجلاء! فكان الدرس الخصوصي، وكان النجاح وكأن هؤلاء العلماء الذين جاءوا له في المنام هم من وضعوا الامتحان!

كان إحساس البنا بإماميته للأمة ظاهرًا حين أطلق على نفسه لقب «الإمام» حينما كان لا يزال في بدايات شبابه، ولكنه أيضا حينما آمن بهذه الإماميه قام بتوريثها لأتباعه، فيقول الأستاذ محمود عساف سكرتير حسن البنا في مذكراته ناقلا كلمات قالها له البنا (انظر يا محمود إن الإيمان بالإسلام يقوم على شهادتين: لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا تصلح الشهادة الأولى وحدها ليصير الشخص مسلما ذلك لأن النبي ﷺ يتجسد الإسلام في شخصه، وبالتالي يجب أن يكون الإيمان بالفكرة وصاحبها معًا فلسنا جمعية

(٦) مذكرات الدعوة والداعية لحسن البنا.

ولا تشكيلًا اجتماعيًا ولكن نحن دعوة فلابد من الإيمان بها والسير على نهج داعيتها والعمل على تطبيق أفكاره)[1].

وضع حسن البنا نفسه في مصاف النبي ﷺ، فلطالما أن إسلام المرء لا يتم إلا بإيمانه بالرسول ﷺ، فإن إيمان الإخواني لا يتم إلا إذا آمن بحسن البنا، وضع البنا نفسه في مقام النبي، ووضع كلمة الدعوة في مقام الإسلام، وعلى هذا الأمر سار الإخوان، فهم يقولون دائمًا عن حسن البنا إنه «صاحب الدعوة» وكأن الرسول ﷺ تنازل عنها للبنا، وسبحان الله! مرة يقول فريق من الشيعة إن «الدعوة كانت لعلي بن أبي طالب»ومرة يقول الإخوان «إن البنا هو صاحب الدعوة» وكأن هناك تنازعًا في ملكية الدعوة!

ولأن البنا في ضميره وضمير الإخوان هو صاحب الدعوة، لذلك يجب أن يكون فهمه للإسلام هو الفهم المعتمد الذي لا يجوز مناقشته أو الاختلاف فيه، و هذا هو ما أكد عليه البنا لأعضاء الجماعة، إذ أوضح لهم أن الإسلام لا يُفهم إلا فى حدود الأصول العشرين التي وضعها لهم، لايجوز لهم أن يضيفوا لها أو أن يحذفوا منها، فإذا ما أرداوا فهم الإسلام فيجب أن يطرقوا باب البنا الذي معه مفاتح الفهم وحده، ولتأكيد هذا قال فى تفسير ركن «الفهم» الذي هو أحد أركان البيعة: إنما أريد بالفهم أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صحيحة، و أن تفهم الإسلام كما نفهمه فى حدود الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز.

وحينما وجد أن الجماعة ضمت بعض الشباب الذي يفكر ويناقش

(1) المرجع السابق.... صـ 62

ويجادل أراد أن يخضعهم لطريقته وأسلوبه وفهمه هو وحده، ولِمَ لا وهو الإمام المهدي الذي أرسله الله ليجدد للأمة أمر دينها!! هو الإمام الذي لديه كنوز من المعرفة الربانية كنزها لنفسه وأعطاها لأصحابه القطرة وراء الأخرى!! لذلك قال في أحد الأيام للشيخ الشاب الدكتور عبد العزيز كامل[1] عندما وجده يفكر (أنا أعلم نوع تفكيرك و تمسكك بالسنة، وستأتي أيام و ظروف قد نختلف فيها، وأود في هذه الظروف أن تترك رأيك لرأيي، ألا تطمئن إليّ)[2] .

وبذلك أغلق البنا على المسلمين أبواب الفهم، واحتكرها لنفسه، وما ذلك إلا لأنه «الإمام المهدي» الذي طال انتظاره، والذي يصحح للناس أفهامهم الدينية ويجعلهم قالبًا واحدًا، أما أولئك الفقهاء الكبار الذين اجتهدوا ووضعوا قواعد ذهبية في تنوع الأفهام وتعدد الصواب واختلاف الفتوى باختلاف الزمان والمكان فأولئك ليست الجماعة منهم في شيء، إذ إنهم لا يعرفون إلا حسن البنا وحده، ولا يفهمون غير أفكاره، ولا يتقربون إلى الله بالدعاء إلا من خلال الأدعية التي جمعها البنا وجعل منها أذكارًا للجماعة.

■ ■ ■

(1) الدكتور عبد العزيز كامل من الرعيل الأول للإخوان وكان عالمًا فاضلًا، ويقول الدكتور القرضاوي في مذكراته إن البنا كان يُعد عبد العزيز كامل ليكون مرشدًا للجماعة من بعده، وبعد وفاة البنا كان من الذين حافظوا على كيان الجماعة إلا أنه ترك الجماعة بعد خلافها مع جمال عبد الناصر وكان له دور في الكشف عن محاولة اغتيال عبد الناصر في أكتوبر 1954 في الحادثة التي عرفت تاريخيًا باسم «حادث المنشية» وفي مذكراته كشف عن شخصية البنا وأشار إلى أن شخصيته استبدادية وأنه كان لا يؤمن بالشورى ولا يمارسها، وقد ألقى في مذكراته بالمسئولية على البنا في اغتيال الخازندار والنقراشي.

(2) مذكرات الدكتور عبد العزيز كامل - قدم لها الدكتور محمد سليم العوا صـ 53

كان قتل حسن البنا نكبة وقعت على رءوس الإخوان، فبكوه وأسرفوا في البكاء، ورثوه وأسرفوا في الرثاء، فهذا هو الأستاذ عمر التلمساني يقول بعد مقتل البنا (وكف القلب المعلق بالعرش عن النبض في هذه الحياة لينبض في مقعد صدق عند مليك مقتدر)[1].

وبذلك يكون الإخوان قد دخلوا في علم الله، وتألهوا على الله، وقطعوا بالغيب الذي لا يعرفه إلا الله، لم يقل الأستاذ التلمساني وهو يرثي شيخه كلمة تفيد بشرية أفهامنا وعدم معرفتنا بالغيب مثل «نحسبه في مقعد صدق عند مليك مقتدر والله حسيبه» ولكنه قطع بمكانه ومكانته عند الله! ولم لا أليس هو في ضمائرهم الإمام المهدي؟

وحين جمع الإخوان ما قيل عن حسن البنا، من الإخوان الذين صاحبوه، وضعوا ما قالوه في كتاب يؤرخ لتقديسهم لشيخهم، وحين تقرأ كلام تلاميذ البنا عنه لا تجدهم يتحدثون عن واحد من بني البشر، ولكنهم يتحدثون عن نصف إله، فهذا مصطفى السباعي الذي كان مراقب الإخوان في سوريا وقت وفاة حسن البنا وظل في موقعه هذا عدة سنوات بعدها، يقول عن حسن البنا: (فما هو إلا النور المرسل من السماء؛ ليكشف عن أهل الخلود ظلماتهم، ثم يظل في السماء دائمًا و أبدًا، و لن يختلط بتراب الأرض؛ إلا كما تقع أشعة الشمس على أعلى القصور وأدناها)[2].

الصورة التي رسمها مصطفى السباعي هنا لشيخه ومرشده حسن البنا

---

(1) حسن البنا بأقلام تلاميذه ومعاصريه لجابر رزق صـ 44

(2) المرجع السابق ص 104.

هـي الصورة الماثلـة في أذهان عموم الإخوان، حسـن البنا عنـده وعند باقي الإخوان ليس بشرًا عاديًا يمشي مثلنا في الأسواق ويرد عليه ما يرد على باقي البشر من نقص وزلل وهوى وميل وخطأ، ولكنه نور من السماء، نور خالص لا يختلط به زيغ، أنزله الله من السماء ليكشف الظلمات التي كانت تخيم على الأرض فيحيلها نورًا سرمديًا، ومع ذلك فإن هذا النور لن يتنازل كما تنازلت الأنبيـاء من قبل! فيهبط عـلى الأرض ليختلط بالناس هاديًا لهـم ومنيرًا لهم حياتهم، ولكنه سيظل في السماء لا يتدنس بطين الأرض، يظل في السماء مثل الشـمس، بعيـدًا عن بني البـشر، فقط أشـعته الذهبية هي التي سـتصل إلينا أما هو ففي السـماء دائمًا وأبدًا، دائمًا وأبدًا!! ياسـبحان الله، هل نملك إلا أن نتعجب من هذه العبارات الشركية، وهل لنا أن نسأل الإخوان: طالما أن نور حسن البنا أضاء القصور من أعلاها إلى أدناها، ألم يلحظ أحدهم أن نور البنا أضاء القبور أيضًا؟!! إذ لربما يكون مصطفى السباعي نسي أن نور البنا له امتداد سرمـدي لا ينقطع، ولِمَ لا وهو الذي سـيظل «دائمًا وأبـدًا» لا ينقضي ولا ينتهي! وقد يمتد هذا النور فيصل إلى الجنة ليؤنس المؤمنين، وقد يتغمد الله أهل النار برحمته فيصل نور البنا إلى النار فيطفئها! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لذلك لا يأخذنا العجب حينما نقرأ فكرة «الإمامية» واضحة جلية في عيون الإخوان، إذ اعتبروا حسـن البنا الإمام الملهم الموهوب الذي لم يقع في حياته في خطأ قط، فيقول الإخواني السوري الكبير سعيد حوى رحمه الله: «ونعتقد أنه لا جماعة كاملة إلا بفكر الأستاذ البنا وإلا بنظرياته و توجيهاته»[1].

---

(1) سعيد حوى فى آفاق التعاليم ص / 5.

في الفقرة السابقة يتحدث سعيد حوى - وهو أحد كبار الإخوان الذين تولوا مسئولية الإخوان في سوريا من عام 1979 إلى عام 1982 ثم أصبح من كبار المسئولين في تنظيم الجماعة الدولي وتوفي عام 1989 - يتحدث عن حسن البنا وجماعة الإخوان، فيدخلهما إلى دائرة الكمال، ويضع قاعدة إخوانية مفادها أن فكر حسن البنا هو «الفكر الكامل» الذي استحوذ على درجة الكمال، وأن الجماعة لم تصبح كاملة إلا بفكر البنا وتوجيهاته!

شيخهم البنا هذا حيَّر ألبابهم وسلب عقولهم وقلوبهم، وأصبح في نظرهم مساويًا لسيدنا محمد ﷺ حتى إن الأستاذ محمود عبد الحليم رحمه الله يقول عنه في كتابه الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ الجزء الأول «لقد كنت أحار في تصور قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله إنه كان خلقه القرآن، حتى لقيت حسن البنا وصاحبته فبدت الصورة تتضح أمامي».

وعلى ذات النسق يقول المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني عن حسن البنا المرشد الأول: (لما كان الأمر أمر تجميع، وتكوين، وتوحيد مفاهيم أمة مسلمة، لما كان الأمر عودة المسلمين إلى الإيمان، لما كان الأمر كذلك اختار الله لهذه الدعوة إمامها الشهيد حسن البنا)[1].

في رأي الأستاذ التلمساني، رحمه الله، أن الإيمان قبل البنا كان إيمانًا غائبًا تمامًا مثل الإمام الغائب الذي سيعيد للأمة إيمانها، وعندما أراد الله سبحانه أن يعيد للأمة إيمانها الغائب، الذي اختفى قطعًا في سراديب الجهالة اختار

(1) ذكريات لا مذكرات عمر التلمساني ص 8.

واحـدًا مـن خلقه ليس مثل باقـي الناس، هو حسـن البنا، اختـاره كي يعيد للأمـة دينها المفقود، ولعلني لا أتعجب مـن هذه المفاهيم التي أصبحت هي النسـيج العام لعقل الجماعة وقلبها، فحسن البنا نفسه يتحدث في رسائله عن إيـمان الإخوان، وإيمان غيرهم، فيقول في رسـالة دعوتنـا (والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلـوا عـلى حكمـه ولا أن يعملوا بمقتضـاه، على حين أنه إيـمان ملتهب مشـتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين) أنزل حسن البنا حكمه على قومـه كلهـم، فقال إن إيـمان قومنا مخـدر، أطلق الرجل حكمـه ولم يقيده ولم يضـع فيه اسـتثناء، ولم يقل حتى عبارة «إلا من رحـم ربي» تلك العبارة التي نسـتثني بها أقوامًا إذا تحدثنا بنقيصة ورذيلة عمت وفشت، الاستثناء الوحيد الـذي وضعه البنا هنا هو «إيمان الإخوان» فقط هم أصحاب الإيمان الملتهب المشتعل القوي اليقظ!

وبعد سـنوات من مقتل حسـن البنا بات من المعروف داخل الإخوان أن لقـب البنا هـو «الإمام الربـاني» أو الملهم الموهوب، بـل إن كتابات الإخوان حاليًّا في صحفهم ومواقعهم أخذت منحىً آخر إذ يكتبون دائمًا عبارة: «حسن البنا رضي الله عنه!» وكان من أعلام الإخوان الذين اسـتخدموا هذه العبارة القطـب الإخواني الكبير الشـيخ محمـد عبد الله الخطيـب[1] – حيث وضعها كعنـوان لمقـال لـه في جريدة الحريـة والعدالـة، وكأن البنا كان مـن الصحابة المقربين أو أعلى منزلة منهم، ولا يقدح في هذا ما قد يقال من الإخوان تبريرًا

---

(1) الشيخ الخطيب هو واحد من كبار الإخوان وكان عضوًا بمكتب الإرشاد إلى عام 2009 ويشار إليه باعتباره مفتيًا للجماعة ومصدرًا فقهيًّا لها.

هذه العبارات إن هذه الصيغة صيغة دعاء!! لأن السياق اللغوي يظهر منه أنها صيغة إخبار لا دعاء.

■ ■ ■

للتقية قصة مع الإخوان، وهذه القصة مستمرة منذ عهد الشيخ المؤسس حسن البنا - الذي يطلقون عليه الإمام - إلى وقتنا هذا، لم يتخل الإخوان عن «تقيتهم» هذه في أي لحظة من اللحظات، آمن حسن البنا بها واعتبرها أصلا من أصول العمل الحركي للجماعة، وتقية الإخوان لا تختلف عن تقية الشيعة في شيء، فهم يعتبرونها وسيلة من وسائل «التمكين» يسلكون سبيلها ليتقوا «الأعداء» ويتوسعون فيها حتى أصبحت أصلًا، تقية الإخوان والشيعة هي هي، لا فرق بينهما، وهي تختلف قطعًا عن «التقية الشرعية» فالتقية الشرعية هي مجرد فرع من الفروع، بينما هي عند الإخوان والشيعة من الأصول، والتقية الشرعية تستخدم مع الكفار لا مع المسلمين، ويقول سيدنا سعيد بن جبير[1] في ذلك «ليس في الإسلام تقية إنما التقية لأهل الحرب» بينما الشيعة والإخوان يستخدمون التقية مع غيرهم من المسلمين، والتقية الشرعية إنما تكون باللسان فقط، بينما تقية الإخوان والشيعة إنما تكون باللسان والأفعال.

إذن ما هي قصة الإخوان تاريخيًا مع التقية؟ يحدثنا التاريخ أن الجماعة عندما كانت في بدايتها، وبينما الإنجليز يتلاعبون كما يشاءون بالملك فؤاد ويحركونه كيفما شاءوا، يأخذون منه ما يريدون، ويسلبون إرادته حتى صار

(1) هو من أئمة التابعين وكان فقيهًا تلقى العلم على سيدنا عبد الله بن عباس وسيدنا عبد الله بن عمر.

مطية لهم، فكرهه الشعب أيما كراهية، إلا أن الإخوان كانت لهم حاجة عنده وعند نظامه، فضلًا عن صلتهم بالإنجليز، تلك الصلة التي أوردها الإخوان في تاريخهم تلميحًا، وأوردها الباحثون تصريحًا، لذلك استخدم البنا التقية مع فؤاد وهو يخاطب الجماهير، وقال إن الملك فؤاد هو «ذخر للإسلام!» وأخذ البنا يداعب مشاعر فؤاد وينادي بأن يكون هذا الملك التابع للإنجليز «خليفة للمسلمين».

وبعد أن انتهى عهد فؤاد جاء عهد ابنه فاروق الأول، الذي أصبح ملكًا على مصر، وإذ أراد البنا الاستحواذ على فاروق أرسل له فرق الإخوان المسلمين تصطف في الطرقات لاستقباله ولتهنئته على سلامة العودة للبلاد لاستلام الحكم، وتمر السنوات ويقع فاروق في أتون الفساد، فخرجت المظاهرات ضده منددة بفساده ورعونته ونزقه وعلاقاته النسائية وإدمانه للقمار، إلا أن البنا رسم لنفسه طريق التقية فوصف فاروق ساعتئذ بقوله إنه «ضم القرآن إلى قلبه ومزج به روحه»[1].

وعندما تحرك مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد على المستوى الشعبي والبرلماني مطالبًا بتقليص الصلاحيات الدستورية للملك فاروق، وخرجت المظاهرات الشعبية من كل الأحزاب والتوجهات السياسية تهتف «الشعب مع النحاس» فإذا بمظاهرات إخوانية تخرج لهم وكأنها جحافل مختبئة في كهوف سرية، والغريب أن هتافات الإخوان لم تنضم لمظاهرات الوطن، ولم تطالب بما طالب به الشعب، ولكنها انحازت لفاروق، فأخذت تهتف وكأنها

(1) تصريح حسن البنا لجريدة الأهرام في العدد الصادر يوم 12/ 7/ 1937.

تتعبد لله «الله مع الملك»! وكأن البنا أخذ عهدًا على الله أن يكون - الله - مع الملك! أو كأنه خرج بهذه المظاهرات، على سبيل التقية، باللسان والعمل، ليقترب بها من الملك فاروق صاحب السلطة العليا في البلاد.

ويستمر التاريخ في فضح تقية الإخوان، تلك التقية التي استخدموها في مواجهة المجتمع المصري بأكمله، حتى إن المؤرخين المحسوبين على جماعة الإخوان، والذين تحالفوا معها في أوقات كثيرة - ومنهم المستشار طارق البشري -[1] أبدوا استعجابهم من موقف الإخوان الذي كان مؤيدًا ومتحمسًا لرئيس وزراء مصر إسماعيل صدقي الذي كان ملقبًا بـ «عدو الشعب»[2] - وعن التحالف بين البنا وإسماعيل صدقي يقول طارق البشري (مع كل ذلك، يبقى تأييد الإخوان لإسماعيل صدقي عصيًّا على التبرير، من وجهة نظر الحركة الوطنية وصالح الإخوان معًا، وصدقي بأي معيار من المعايير هو رجل المصالح الأجنبية في مصر، ومن الناحية الوطنية لم يؤثر عنه إلا العداء لكل فصائلها، ومن الناحية الديمقراطية هو من هو عداء لها، ومن

---

(1) المستشار طارق البشري هو واحد من كبار رجال القضاء المصري حيث كان رئيسًا لمحكمة القضاء الإداري وهو مؤرخ ومفكر كتب العديد من الكتب تأريخًا للجهاد السياسي للمصريين، وله صلات قوية بجماعة الإخوان، وظهرت هذه الصلات حينما وضعه الإخوان رئيسًا للجنة تعديل الدستور والذي جرى الاستفتاء عليه في 19/ 3/ 2011، ووقع البشري في سقطة تاريخية وسياسية وأخلاقية كبيرة حينما وضع نصًّا في التعديل الدستوري يجعل اللجنة المشرفة على انتخابات الرئاسة لجنة مقدسة لا يجوز الطعن على قراراتها، رغم أن البشري نفسه كان قبل ذلك قد كتب ضد هذا المبدأ واعتبره مخالفًا للإسلام!

(2) لقب إسماعيل صدقي بعدو الشعب عندما كان رئيسًا للوزراء عام 1930 ووضع دستور عام 1930 وتوسَّع فيه بخصوص صلاحيات الملك، وأصبح مرة أخرى رئيسًا للوزراء عام 1946 وفي تلك الفترة تحالف مع الإخوان، ثم استقال من الوزارة وتولى الوزارة من بعده محمود فهمي النقراشي الذي اغتاله الإخوان، تُوفي إسماعيل صدقي عام 1950.

الناحية الاقتصادية هو ذو العلاقة العضوية الوثيقة برءوس الأموال الأجنبية، وبالجاليات الأجنبية اليهودية المهيمنة على الاقتصاد وقتها، ولم تكن تنقصه شجاعة الجهر بكل ذلك، ولا تنقصه شجاعة الجهر وحيدًا بمعارضته لحرب فلسطين في 1948، ومن ناحية الإسلام والتغريب، لم يؤثر عنه أنه تحلى أو تجمل بأي من آثار الإسلام، في أي من المجالات)[1].

لم يستطع البشري تفسير تحالف البنا مع إسماعيل صدقي، مع أن طارق البشري نفسه تحالف مع الإخوان في كتابة تعديل للدستور هو الأسوأ في تاريخ مصر، حتى إن كثيرًا من الكتاب - وأنا منهم - أطلقوا عليه «عدو الشعب» فهذا التعديل الدستوري كان يخالف المصالح الوطنية بكل المعايير، ولكن الذي لم يره البشري، أن البنا تحالف، باللسان والعمل مع إسماعيل صدقي من باب التقية، حتى يستطيع من خلاله الوصول إلى التمكين الذي يراه، تمامًا مثلما تحالف الإخوان مع البشري ليضع لهم مادة في الدستور تمنع الطعن على قرارات لجنة الإشراف على الانتخابات حتى يسمح للإخوان بالتزوير من خلال آلتهم البشرية الضخمة، فإذا ما تم التزوير عجز الشعب عن الطعن قضائيًا على تغيير إرادته ووصل الإخوان للتمكين الذي يريدون!

ومع إسماعيل صدقي لم يكن الأمر مجرد تحالف فحسب، ولكنه كان فعلاً بشعًا ضد الفطرة وضد الخلق السليم، فعندما شن الديكتاتور إسماعيل صدقي حملة اعتقالات واسعة - عام 1946، ثم قام بغلق العديد من الصحف التي

---

(1) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر 1945 - 1952 صـ: 58 -- 59

تعارضه، وكان هذا الفعل بمثابة تكميم للأفواه حتى تغيب الحقائق عن الشعب ويستطيع هو أن يمضي قدمًا في تحقيق مصالح الإنجليز، إذا بصحف الإخوان تصدر وهي تنشر في عناوينها الرئيسية تأييدًا لهذه الاعتقالات وتلك المصادرات!! مبررة ذلك - بأن الظروف تحتم هذا الأمر؛ لأن سلامة المجتمع وحرية الأمة فوق كل شيء! وكانت الكارثة التي رواها المستشار البشري وكثير من المؤرخين تتمثل في استقبال الإخوان في الجامعة لإسماعيل صدقي واعتدائهم بالضرب على باقي طلاب الحركة الوطنية ليمنعوهم من الهتاف ضد صدقي، وكانت الكارثة الأكبر التي تتجاوز كل الأعراف والثوابت الدينية، عندما وقف مصطفى مؤمن زعيم الطلاب الإخوان بالجامعة خطيبًا أمام إسماعيل صدقي، حينما بدأ خطبته - مستشهدًا بالآية الكريمة ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[1].

أما القصة الواضحة التي تظهر عقيدة التقية لدى الإخوان فهي تبدأ بعبارة شهيرة قالها البنا هي «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» ولهذه العبارة قصة، وهي قصة مرتبطة باغتيالات وتخريب وحرق وقتل، كان الإخوان قد قتلوا أحد المستشارين من رؤساء محاكم الجنايات اسمه المستشار الخازندار لأنه أصدر حكمًا بسجن أحد الإخوان، ومن بعده قتل الإخوان النقراشي باشا رئيس وزراء مصر، ثم تم القبض على خلية إخوانية وهم في سيارة «جيب» يحملون مفرقعات وخططًا لحرق القاهرة، وبدأت النيابة العامة في التحقيق في هذه القضية التي عرفت بقضية السيارة الجيب، ولأن القضية كانت بمثابة مسمار

---

(1) المرجع السابق صـ 108

في نعش الجماعة في هذا العهد لذلك حاولت الجماعة التخلص من أدلتها، فتحرك النظام الخاص وكلف أحد أفراده ويدعى «شفيق أنس» بوضع قنبلة حارقة بجانب دولاب حفظ أوراق القضية، إذ قدَّم نفسَه لسكرتير التحقيق على أنه أحد الموظفين من محكمة من محاكم الأقاليم وأنه مكلف من قبل المحكمة التي يعمل بها بتقديم بعض القضايا للنائب العام، ثم وضع حقيبة بها القنبلة بجوار الأرفف وزعم أنه سيذهب لمطعم قريب ليتناول إفطاره، وبعد انصرافه شك الموظف في الحقيبة فأعطاها للأمن الذين قاموا بالتخلص منها في الطريق أمام المحكمة، فانفجرت القنبلة «الزمنية» وترتب على انفجارها مقتل وإصابة بعض المارة الأبرياء، وأمام هذه المشكلة الكبيرة قام حسن البنا بإصدار بيان يتبرأ فيه ممن قاموا بهذا الفعل وقال في بيانه عنهم: إنهم «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» وكان مما قاله في البيان: «إن الذين فعلوا هذا ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين ولا يستحقون شرف المواطنة المصرية». وعندما وصل خبر هذا البيان لشفيق أنس في السجن أصابه الإحباط، فهو لم يفعل هذا الفعل عن أمره ولكنه قام به بناء على تكليف من الجماعة، فكيف للجماعة أن تتبرأ منه الآن!

لا شك أن الحالة النفسية لـ«شفيق أنس» كانت آنذاك في منتهى السوء لذلك بادر إلى الاعتراف الكامل بجريمته وبالمحرضين والمساهمين والمشتركين معه، كان وقع هذا البيان أيضًا سيئًا على «عبد المجيد أحمد حسن» الذي قام باغتيال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء، وعن هذا البيان ونفسية القاتل عبد المجيد أحمد يقول محمود الصباغ أحد كبار رجال النظام الخاص: (وقد هللت أجهزة الحكومة مدعية أن الغرض كان نسف المحكمة، وبالغت أبواق

الاتهام تهيئ الجو للقضاء التام على الإخوان المسلمين، مما اضطر المرشد العام إلى إصدار بيانه: «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» ليساعد على تخفيف حدة الضغط على الإخوان، وهو أمر جائز شرعًا في الحرب ويعد من خدعه، كما أوضحنا عند ذكر سرايا رسول الله ﷺ لاغتيال أعداء المسلمين، ولكن الأخ عبد المجيد أحمد حسن لم ينتبه إلى ذلك، وتأثر بالبيان تأثرًا قاده إلى الاعتراف على إخوانه)[1] .

هذا هو الرأي الذي وضعه محمود الصباغ تبريرًا لبيان حسن البنا: «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» كلماته واضحة بأن حسن البنا استخدم التقية، أو الخداع، لأن الحرب خدعة، ثم يقول: إن التقية هنا جائزة لأنه (أمر جائز في الحرب) وأجرى محمود الصباغ القطب الإخواني التاريخي مقارنة فقهية بين قتل الإخوان لمحمود فهمي النقراشي، المصري المسلم الوطني الذي كان من قادة الشباب في ثورة 1919، وبين سرايا أرسلها الرسول ﷺ لقتل أعداء المسلمين، وعاب الصباغ على عبد المجيد أنه لم يفهم التقية وغابت عنه فاعترف!! النقراشي في عيون الإخوان هو أحد أعداء الإسلام لأنه أصدر قرارًا بحل جماعة الإخوان ومصادرة مقارِّها!! وقتله كان إقامة لسنة إسلامية تبيح للمسلم قتل الأعداء في الحرب، وبيان البنا هو تطبيق لـ: «الحرب خدعة»!

ولعلنا نجد في قتل الإخوان للمستشار الخازندار صورة كاملة للتقية، فبعد أن قام تحقيق داخل الجماعة حول هذه الجريمة، وقد كتب الدكتور

(1) حقيقة النظام الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين لمحمود الصباغ ص452.

عبد العزيز كامل في مذكراته تفصيلات هذا التحقيق، وكذلك كتب محمود عساف سكرتير حسن البنا، ثبت أن البنا هو الذي أمر بقتل الخازندار وفقًا لما قاله عبد الرحمن السندي رأس النظام الخاص وقتها، حتى إن البنا تعهد بعد التحقيق بدفع دية القتيل، ولكن الإخوان نكلوا عن دفع الدية بعد ذلك بمقولة: إن هذه الدية تلتزم بها «الحكومة»!! وتظهر التقية بعد ذلك بيومين إذ خرج حسن البنا للإخوان في لقاء الثلاثاء وهو لقاؤه بالجماعة من كل أسبوع ليخطب فيهم خطبة تقوي إيمانهم..... وفي هذه الخطبة أنكر البنا قيام الجماعة باغتيال المستشار الخازندار!

■ ■ ■

قد تنتهي صفحات هذا الكتاب ولا تنتهي استدلالاتنا على «تقية الإخوان» المستمدة من فهم الشيعة للتقية، ومع ذلك فإننا لابد وأن نترك التاريخ القديم لندخل إلى تاريخ الجماعة في العصر الحديث، قبل ثورة يناير وبعدها، فحين كشف بعضهم للرأي العام أن الإخوان عقدوا صفقة مع نظام مبارك عام 2005 خرجت القيادات تقسم بالله العظيم، والعيش والملح «وتُربة أبيهم» إن الإخوان لم يعقدوا صفقة وإنهم أبرياء من هذه الفرية اللعينة والكذبة المفضوحة، ثم بعد أن مر على السنين سنون وقامت الثورة المصرية خرج المرشد السابق الرجل الصريح الأستاذ مهدي عاكف وقال: نعم عقدنا صفقة مع النظام السابق عام 2005 وجلسنا مع شخصيات أمنية كبيرة واتفقنا على كل شيء، ثم التزم نظام مبارك بالصفقة في المرحلة الأولى للانتخابات وقتها، ثم نكل عن الاستمرار في الصفقة في المرحلتين الثانية والثالثة!

هل تريدون المزيد من الحكايات الطريفة عن تقية الإخوان وموقفهم عندما يفتضح المخبوء في أقبيتهم؟ عندك صفقة بيعة الإخوان لمبارك عام 1987، إذ وقف المستشار – مأمون الهضيبي[1] وقت أن كان رئيسًا للهيئة البرلمانية ليعلن بيعة الإخوان لمبارك، وقال في بيعته «وجدناك شريفًا فبايعناك، ووجدناك أمينًا فبايعناك، ووجدناك وطنيًا فبايعناك» وبعدها أعلن الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد[2] استقالته من عضوية مكتب إرشاد الجماعة احتجاجًا على هذه البيعة لأنها تخالف اعتقاد جماعة الإخوان في الرئيس مبارك.

وفي ديسمبر من عام 2005 نشر الكاتب والصحفي الكبير حمدي رزق في مجلة المصور وثيقة منسوبة للإخوان اسمها «فتح مصر» وعند نشر هذه الوثيقة أنكرها الإخوان وأقسموا إنها مزورة، وبالغوا في إنكارهم إلى الحد الذي جعلهم يقيمون دعوى ضد الصحفي ومجلته إلا أن القضاء أصدر حكمه بصحتها.

وثيقة فتح مصر تكاد تطفح بالتقية بصورتها الشيعية، لم تحد عن مفهوم الشيعة للتقية قيد أنملة، إذ جاء فيها:

---

(1) المرشد السادس لجماعة الإخوان.

(2) الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد عالم أزهري وكان عضوًا بمكتب إرشاد جماعة الإخوان ومتخصصًا في علوم القرآن الكريم، استقال من عضوية مكتب الإرشاد عام 1987 عقب مبايعة الإخوان لمبارك حيث اعتبرها تقية لا تجوز.

برنامج عمل

مقدمة

لا ينبغي لأحدنا أن ينزعج من صيحات أعداء الدعوة وتربصهم بنا وكيدهم لنا، فهذا أمر منطقي اقتضته سنة التدافع بين الحق والباطل، والصراع بين الشر والخير، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: 31) كما قال تعالى في شأن أعداء الدعوة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: 217).

مبدئيات

في ظل هذا الصراع والتدافع ينبغي أن يعلم الإخوان :

1 - حتمية المحنة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: 2) وقافلة الإخوان لم يكن من شيمتها الجبن والخوف والهروب لأنها كانت وما زالت مستعلية بإيمانها فوق الظروف.

2 - وحدة العمل الإسلامي فريضة شرعية وقد أشار الحاج مصطفى مشهور، عليه رحمة الله، إلى وجوب توحيد العمل الإسلامي تحت راية واحدة وأشار الأستاذ فتحي يكن إلى أن وحدة العمل الإسلامي من الفرائض التي نتعبد بها لله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 159).

تفريعات

1 - عن حتمية المحنة:

(أ) وجوب الصبر عند المحن والابتلاءات.

(ب) الخروج من دائرة الصبر السلبي إلى الصبر الإيجابي.

(جـ) الالتزام بالدعاء لله في كل الأوقات.

(د) إدراك كما أن الصبر يكون عند المحنة فكذلك يكون أيضًا على الطاعة وكما يكون في الابتلاء يكون في الرخاء.

(هـ) إدراك أن المحن تداري الأخطاء والرخاء يظهرها.

2 - عن وحدة العمل الإسلامي وخطر التعددية:

وقد أجملها فتحي يكن في الآتي:

(أ) أعطت التعددية كثيرًا من المسلمين مبررات الهروب من الانتماء الحركي.

(ب) فتتت القوى الإسلامية وأضعفتها.

(جـ) سهلت على أعداء الإسلام عملية تصفية الاتجاه الإسلامي باستفراد كل كيان على حدة.

(د) أفرزت حساسيات ومنافسات لدى أتباع كل تنظيم من آخر.

(هـ) أدت إلى تأخر العمل الإسلامي.

من هنا ينبغي علينا أن ندرك وجوب تصفية أي إسلامي آخر إما بضمه أو تفريغه أو احتوائه مع عدم استعجال النتائج.

كما يجب أن ندرك أهمية أن نظهر أمام الناس في صورة من يمثل الإسلام وحدنا دون غيرنا حتى تستقر الصورة أمام الجماهير وبالتالي تنفى تدريجيًا عن الآخرين.

حركيات

1 - وجوب استخدام التخفي والتمويه لتحقيق خطة التمكين كما فعل الرسول (ﷺ) ولا يعني في الخفاء أن يكون على الوسائل لأن هذه المرحلة انتهت أسبابها ودخلنا مرحلة العمل العلني ولكن التخفي والتمويه يكون في الأهداف والغايات لا في الوسائل.

2 - استخدام المرحلية أي التدرج في الخطوات، والمرحلية تعني إقامة محطات الدعوى كما فعل الرسول (ﷺ)، المرحلة الأولى لفتح مصر:

الحركة

1 - إقامة قنوات اتصال بين الإخوان والحزب الحاكم وبشخصيات نافذة في العمل السياسي وقد تم هذا الأمر وتم وضعه في الاعتبار وهو في إطار التنفيذ والاستفادة من هذه القنوات في إتاحة أكبر هامش من الحرية لحركة الإخوان في الشارع.

2 - استخدام طريقة المسكنات والمهدئات مع النظام الحاكم وباقي المؤسسات والأحزاب المدنية.

3 - شغل الرأي العام بالإخوان واستخدام النقد الإعلامي الذي يتم توجيهه لنا في خلق حالة من التعاطف حولنا.

4 - استثمار التعديل الدستوري وانتخابات الرئاسة في إثارة حالة من الجدل حول الإخوان.

5 - الاستفادة من حالة «الامتداد الإعلامي» والميديا العالمية في خلق مساحة من الحرية لحركة الإخوان في المجتمع.

6 - الدفع بعدد كبير من الإخوان لخوض الانتخابات البرلمانية والاستفادة من هذا في طرح اسم الإخوان والشعار على أوسع نطاق والإعلان عن إنشاء مكاتب إدارية للإخوان في المحافظات.

7 - إثارة حالة من الجدل حول شعار الإسلام هو الحل واسم الإخوان والمصحف والسيفين.

8 - تجريح المخالفين واتهامهم بالرشوة والعمالة لتحييد معظم المختلفين وإسكات البعض الآخر.

9 - موالاة اختراق المؤسسات الصحفية خاصة الحكومية منها والتوافق مع المؤسسات المستقلة.

10 - استثمار الانتخابات في الدعوة والترويج لحتمية الحل الإسلامي وعالمية الدعوة واستخدام المساجد على أوسع نطاق.

11 - استخدام النقابات المهنية والمنظمات المدنية في خلق هامش كبير للحركة.

12 - ديمومة الاتصال بحركات حقوق الإنسان الدولية.

انتهى الجزء الأول

توقيع / خيرت الشاطر نائب المرشد

وأكثر الأشياء وضوحًا في هذه الخطة هو ما يتعلق بالتخفي والتمويه، التخفي والتمويه هنا يتعلق - كما قالت الخطة - في الأهداف، وهذه هي التقية بصورتها الشيعية!

كانت هذه الخطة هي الطريق المنهجي للإخوان لفتح مصر، لذلك لم يتورع الإخوان عن تزوير انتخابات مكتب الإرشاد عام 2009، وقد أنكر الإخوان التزوير ولكن الدكتور محمد حبيب[1] والدكتور إبراهيم الزعفراني[2] فضحا هذا التزوير وأثبتاه من خلال مناقشات حامية مع قيادات الإخوان وبالأخص مع محمود عزت نائب المرشد.

وعندما وعد مرشد الإخوان محمد بديع الشعب المصري بأنه لن يترشح أحد من الإخوان في انتخابات الرئاسة، بل قامت الجماعة بفصل ابنها عبد المنعم أبو الفتوح لأنه خالف قرار الجماعة وقرر خوض الانتخابات، إذا بالجماعة بعدها تقرر خوض انتخابات الرئاسة بمرشح أصلي هو خيرت الشاطر وآخر احتياطي هو محمد مرسي الذي أصبح فيما بعد رئيسًا، وهو الأمر الذي يعتبر نكولًا عن الوعد. كتب أحد شيوخ الإخوان ويدعى الشيخ فوزي شداد ينشر في موقع إخوان أون لاين يوم 21/ 4/ 2011 دراسة شرعية تدور حول جواز النكول عن الحلف والوعد ثم أداء الكفَّارة، وفي

---

(1) نائب سابق لمرشد الإخوان، استقال من الجماعة عقب قيام بعض قيادات الجماعة بتزوير انتخابات مكتب الإرشاد للإطاحة به من عضوية المكتب ومن ثم قطع الطريق عليه حتى لا يصل لموقع المرشد.

(2) عضو سابق بمجلس شورى الجماعة استقال منها عقب تزوير انتخابات مكتب الإرشاد ومجلس شورى الجماعة.

الدراسة استدلالات فقهية فاسدة في غير موضعها مثل (جواز الصلح مع غير المسلمين أو إيهامهم بالصلح للحصول على منفعة منهم بذلك) واستدلّ الباحث الإخواني في دراسته بأن الرسول ﷺ تصالح في غزوة الخندق مع قادة غطفان على أن يمنعوا عنه الكفار من ناحيتهم على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة، ثم نكل الرسول ﷺ عن وعده لأن الصحابة لم يوافقوا على هذا الوعد!! والاستدلالات طبعًا في غير موضعها والقياس فيها فاسد؛ لأن فقه الحرب مع الكفار يختلف عن فقه السلام والدولة المسلمة إلا إذا كانوا يعتبرون أن مصر ليس فيها إسلام وأنها دولة حرب مع المسلمين (الإخوان)!

وفي 2010 قبل ثورة يناير صرح المرشد محمد بديع في برنامج العاشرة مساء بأن «مبارك أب لكل المصريين وأنه لا يمانع في أن يرشح جمال مبارك نفسه للرئاسة» رغم أن المظاهرات كانت قد انتشرت في الشارع المصري رافضة مسلسل التوريث.

وفي الفترة الانتقالية التي أدار فيها المجلس العسكري والمشير طنطاوي شئون البلاد خرج الإخوان في جمعة 29 يوليو 2011 - يهتفون له «يا مشير يا مشير ألف تحية من التحرير» وأيضًا «يا مشير يا مشير.. م النهارده انت الأمير» وعندما وصل مرسي للحكم وحانت له لحظة تمكن قام بالإطاحة بالمشير طنطاوي رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووزير الدفاع، فلم ينل المشير مع الإخوان إلا الطرد والإقصاء.

كانت هذه انتقالات قصيرة - على قدر الإمكان - لبيان أن الإخوان

يؤمنون بتقية الشـيعة، لا التقية الشرعية التي هي من الفروع عند أهل السـنة وهي رخصة ولا تمارس إلا مع الكفار.

وإذا كان اعتناق الإخوان لمناهج الشـيعة فإن ذلك كان بسـبب شـخصية البنا وإحساسـه بذاته، وشـعوره بأنه إمـام مهدي أرسـله الله ليصحح للأمة إسلامها، فإذا كان هذا هو الذي دفع البنا للتأثر بالشيعة، فما هو رأي الشيعة في حسن البنا؟

الفصل السابع

الغزل السياسي الرفيع

قدَّم «المرشد» حسن البنا للشيعة هدية هي الأقيم عبر تاريخهم، ساعدهم في إنشاء دار لتقريب السنة إليهم، فتح الأبواب لهم من خلال هذه الدار، فكان أن وافق الأزهر بعد سنوات من فتح هذه الدار - من خلال الشيخ محمود شلتوت - في فتوى هي الأغرب عبر التاريخ، على مذهب الإمامية الإثنا عشرية واعتباره من مذاهب السنة!! لذلك فقد حصل حسن البنا على مكانة كبيرة عند الشيعة، مكانة سامقة لم يصل إليها أحد من أهل السنة في عيون الشيعة، وحين أصبح آية الله الخميني قائدًا لإيران بعد الثورة بحث عن لقب سياسي لنفسه فلم يجد أفضل من لقب المرشد كشكل من أشكال رد الصنيع للبنا والإخوان، وكان اختياره لهذا اللقب بمثابة رسالة شكر للإخوان، وكأنه يقول لهم ولمؤسسهم البنا: «نشكركم لحسن تعاونكم معنا».

رد الشيعة الهدية للإخوان بأحسن منها، فقد سمحوا للإخوان بإنشاء تنظيم لهم في إيران، وجعلوا كتب سيد قطب من المناهج الدراسية لطلبة الحرس الثوري فيما يتعلق بدروس العقيدة، وأصدروا التصريحات المتتالية التي تحمل قدرًا كبيرًا من العرفان لجماعة الإخوان، بيد أنهم لم يكتفوا بهذا

فالود المتبادل يحتم عليهم استمرار الغزل، والأيام تجري بينهما بالماء العذب الفرات، والدنيا تفتح لهم أبواب الحكم، والحكم له ضروراته ، وتوابعه، وتنازلاته، وزلاته؛ لذلك قامت إيران الرسمية بتوجيه الشكر لحسن البنا، عبر أحد دبلوماسييها الكبار، لم يكن هذا الدبلوماسي ممثلًا لنفسه حين قدم آيات العرفان للبنا ، ولكنه كان يمثل شيعة إيران، ففضلًا عن أنه أحد كبار الدبلوماسيين هناك، إلا أنه كان أيضًا أحد أكابر رجال الدين بها، وقبل أن ندخل إلى خطاب الشكر الذي كتبه هذا الدبلوماسي الشيعي الكبير والذي تنضح منه مشاعر الحب والتقدير، يجب أن نعرف من هو صاحب هذا الخطاب؟ وما هي مرجعيته؟ وما هي قصته؟

«سيد هادي خسرو شاهي» أحد كبار سفراء إيران في العالم، كان منذ سنوات قليلة رئيسًا لمكتب رعاية المصالح الإيرانية في مصر، عاش فيها عدة سنوات وتقابل مع قيادات جماعة الإخوان ومرشدها مصطفى مشهور أكثر من مرة، ثم التقى بالمرشد السادس مأمون الهضيبي عدة مرات، كانت اللقاءات تتم أحيانًا في مقرّ جماعة الإخوان الذي كان كائنًا آنذاك في حي المنيل، إلا أن معظم اللقاءات كانت تجري ليلًا في فيلا مملوكة لأحد قيادات الإخوان منشأة حديثًا في حي «التجمع الخامس» الذي يقع شرق القاهرة، لم يعلم أحد طبيعة هذه اللقاءات، أو ما الذي كان يتم فيها، وما هي الاتفاقات التي كانت تجري بينهما على قدم وساق، إلا أن تصريحات الإخوان المتتالية المؤيدة لمواقف إيران السياسية كانت تكشف عن نجاح سيد هادي خسرو شاهي في مساعيه الدبلوماسية.

عام 1938 وفي مدينة تبريز عاصمة أذربيجان الشرقية ولد «سيد هادي

خسر وشاهي» لأب من رجال الدين، شبَّ خسرو عن الطوق في مدينة ذات تاريخ تحيط بها من جهة الجنوب جبال لها طبيعة خاصة، تكسوها الثلوج طوال العام، كانت عائلته تتشكل من نخبة من رجال الدين الشيعة، وهي تنحدر من أولئك الصفويين الذين نصبوا المذابح لأهل السنة في إيران كي يجبروهم على الدخول إلى طوائف الشيعة، يقول ياقوت الحموي في كتابه المعروف «معجم البلدان» عن مدينة تبريز: (تبريزُ: هي أشهَرُ مدُن أذربيجان وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها، والفواكه بها رخيصة. وعمارتها بالآجز الأحمر المنقوش والجص على غاية الإحكام. وكانت تبريز قرية حتى نزلها الرواد الأزدي المتغلب على أذربيجان في أيام المتوكل، ثم إن الوجناء بن الرواد بَنَى بها هو وإخوته قصورًا وحصنها بسور فنزلها الناس معه، ويعمل فيها من الثياب والنسج ما يُحمل إلى سائر البلاد شرقًا وغربًا، ومر بها التتار لما خربوا البلاد في سنة 618 فصالحهم أهلها ببذول بذلوها لهم فنجَت من أيديهم وعصمها الله منهم).

ومن أسف فإن تبريز مدينة خسرو شاهي كانت من أوائل المدن الإيرانية التي وقعت في يد الصفويين فأعملوا فيها القتل والذبح حتى يجبروا أهلها على «لعن أسيادنا عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وعثمان بن عفان» بالإضافة إلى أُمنا «السيدة عائشة رضي الله عنها».

ومن عجب أن هذه المدينة فتحت أبوابها للصفويين عن حسن نية ودون قتال، بحسب أنهم ظنوا أن الصفويين من المسلمين، وكان عدد سكان تبريز وقتها يبلغ مائتي ألف كلهم من أهل السنة، يتكلمون باللهجة «الأذرية»

التي هي إحدى اللهجات الفارسية القديمة، وحين دخل الشاه إسماعيل الصفوي الجامع الكبير بالبلد وصعد إلى المنبر، وجيوشه تحيط بالمكان وتعج في الجامع بسيوفهم المشرعة، إذا به يطلب من المسلمين المصلين أهل السنة أن يتركوا ما هم عليه ويتبرءوا من أهل السنة، ويدخلوا إلى الطوائف الشيعية، ولكن المسلمين بالمسجد هالهم الأمر، واستقبحوا هذا الفعل، إلا أن أتباع الشاه إسماعيل الصفوي الواقف على المنبر محتميًا بجنوده وجبروته بادروا بلعن الصحابة والسيدة عائشة جهرة وبأصوات منكرة، فوضع أهل المدينة أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا هذا اللعن القبيح، وعندما أراد عدد من كبار العلماء الخروج من الجامع احتجاجًا على هذا المروق من الدين فإذا برجال إسماعيل الصفوي يعملون القتل فيهم، وأصبح الجامع موضعًا، لا للصلاة، ولكن لمذبحة كبيرة ظل التاريخ يذكرها حتى الآن، وفي اليوم التالي استمر القتل حتى قُتل أكثر من عشرين ألف مسلم سنيٍّ، ومن بعد ومن خلال أعمال التنكيل أصبحت مدينة تبريز شيعية، واستطاع الصفويون قهر أهل السنة في إيران كلها وتحويلها إلى دولة شيعية.

في تلك المدينة كانت أيام هادي خسرو شاهي، شهدته شوارعها وهو يحث الخطى ذاهبًا إلى دروس العلم، يتلقاها من المراجع الشيعية الكبار، وشهدت جبالها رحلاته إليها إذ كان عاشقًا للتسلق وكأنه يضع لنفسه تاريخًا سيكون ذات يوم، سيظل هذا الرجل مثابرًا على عقيدته مدافعًا عنها، منافحًا عن أولئك الذين وقفوا مع شيعته، وكأنه يتسلق جبلًا يبتغي من خلاله الوصول بالشيعة إلى قمة العالم.

كان خسرو يرتدي منذ شبابه الأول عمامة سوداء، وللعمامة السوداء

رمزية لدى الشيعة، فمن يرتديها إنما يشير إلى أنه أحد أحفاد سيدنا علي بن أبي طالب، ولذلك فإن كل واحد منهم أيضًا كان يُلقب بالسيد مثلما يتلقب أهل السنة من أحفاد الرسول ﷺ بـ «الشريف» ومن أجل هذا أيضًا ظل لقب السيد هو اللقب الملازم لهادي خسرو حتى الآن إذ لم يقبل استبداله بأي لقب آخر من تلكم الألقاب التي تمنح لمن يشغلون مواقع سياسية أو تنفيذية، فإذا ما أصبح أحد أحفاد سيدنا علي ـ من الشيعة ـ رجلًا من رجال الدين كان له آنذاك أن يضع على رأسه عمامة سوداء كي يعلن عن نسبه الذي ينتمي إليه، أما باقي رجال الدين الذين لا يحظون بهذا النسب فإنهم يضعون على رءوسهم عمامة بيضاء.

وفي غضون عام 2001 جاء هادي خسرو إلى مصر كي يعمل رئيسًا لمكتب رعاية المصالح الإيرانية، ولكنه لم يبدل ثيابه، ولم يرتد الملابس الإفرنجية، بل ظل بزيه الشهير الذي لا يرتديه إلا رجال الدين الشيعة من أحفاد سيدنا علي، وكانت العمامة السوداء هي العمامة التي اشتهر بها خسرو في مصر حتى بات يعرف بين المثقفين ورجال السياسة بالرجل صاحب العمامة السوداء.

تأثر خسرو شاهي بشخصية «جمال الدين الشيعي» الشهير بالأفغاني، ودرس حياته وكتب عنه، بل ظل أكثر من خمسين عامًا يجمع آثار الأفغاني الفكرية والحركية مثل: مجلة العروة الوثقى والرسائل والكتب والمقالات، واستطاع خسرو شاهي في النهاية أن يصدر من القاهرة عام 2002 موسوعته الكبيرة التي اشتملت على تسعة أجزاء في سبعة مجلدات بعنوان «الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني» وفي ذات الوقت ظهر

تأثر خسرو شاهي بتقي الدين القمي الذي أنشأ مع حسن البنا دارًا لتقريب السنة من الشيعة، وجد خسرو أنه يجب أن يكمل المسيرة، فها هي الفرصة سانحة، فالأصدقاء يمدون أيديهم، وبعض الإخوان ترك المذاهب السنية والتحق بالشيعة دينًا ومذهبًا، فها هو أحد أقطاب الإخوان القدماء المستشار الدمرداش زكي العقالي[1] الذي كان متيمًا بحسن البنا وتاريخه، ها هو يصبح شيعيًا كبيرًا له تقديره في المجتمع الإيراني بل يصبح المسئول الأكبر عن شيعة مصر، ومن بعده الدكتور أحمد راسم النفيس[2] الذي ظل ولا يزال يمارس نشر العقائد الشيعية في مصر بدأب وإصرار كبيرين، وأحمد راسم النفيس لم يكن واحدًا عاديًا من عوام المسلمين ولكنه كان من زعماء طلبة الإخوان المسلمين في الجامعة في السبعينيات من القرن العشرين، ومع فريق من الشيعة المصريين من أصحاب الجذور الإخوانية كانت هناك جماعة الإخوان الأم التي كانت تمارس أنشطتها بشكل مستمر رغم التضييق الأمني والسياسي في بعض الأحيان، واللقاءات المحرمة تتم ليلًا في التجمع الخامس الذي كان منطقة نائية وقتئذ، وفي أذهان الجميع دار التقريب التي يراهنون على أنها ستؤتي ثمارها، ولن يجني الشيعة هذه الثمار إلا بالتوافق مع الإخوان والاتفاق معهم، فهم حلفاء الأمس وما زال الحلف قائمًا بينهما.

---

(1) يشكل المستشار الدمرداش العقالي الزعيم الروحي للشيعة في مصر، حالة فريدة على الساحة الإسلامية فالرجل كان رئيسًا لمحكمة الاستئناف وعضو مجلسي الشعب والشورى، ونائبًا لرئيس حزب العمل المصري قبل إغلاقه ومستشارًا للرئيس السابق حسني مبارك، نشأ الدمرداش العقالي وتربى في كنف حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ومع ذلك فقد فاجأ الجميع بتحوله من التسنن إلى التشيع، وفي كل حواراته يعتبر أن البنا هو أستاذه ومعلمه وصاحب الفضل عليه.

(2) أحمد راسم النفيس طبيب مصري كان رئيس اتحاد طلاب كلية الطب بجامعة المنصورة عن الإخوان المسلمين من عام 1975 : 1977 وهو حاليًا من أبرز شيعة مصر ومن أكثر المتحمسين لنشر مذهب الإمامية الإثنا عشرية.

ومن أجل مسـيرة «التقريـب» أو بمعنى أصح «التمييـع» أصدر خسرو شـاهي وهـو في القاهـرة كتابين عـن عقيدة الشـيعة، ثم نشر كتابًا لأسـتاذه الشـيعي «آية الله ناصر مكارم الشـيرازي» وهو كتاب يرفـع من قدر عقيدة الشيعة الإمامية ويجعلها أنسب العقائد للمسلمين، وقد كتب خسرو شاهي مقدمة لهذا الكتاب عبر فيها عن فكره وطريقته، إذ قال في المقدمة: إنه يرجو أن يكسر هذا الكتاب الحواجز النفسـية والعقلية بين السـنة والشـيعة، كان خسرو في مقدمته يتمنى أن يتقبل أهل السـنة عقيدة الشـيعة الإمامية الإثنا عشرية قبولًا حسنًا، ولكي يثبت خسرو للإخوان أن الشيعة يضعون حسن البنا في منزلة عليا فقد قام بترجمة الكتاب الشـهير لريتشـارد ميشـيل «تاريخ جمعيـة الإخوان المسـلمين مـن البدايـة إلـى الآن» إلى اللغة الفارسـية، وقد ظـل خسرو عاكفًا على هـذه الترجمة عدة سـنوات، كما كتب كتابًـا عن البنا بالفارسـية تحت عنوان «الإخوان المسـلمون أكبر حركة إسـلامية معاصرة» حيـث اعتـبر في كتابـه هذا أن جماعـة الإخوان هـي أنضج حركة سـنية عبر التاريخ، وأعطاها مقامًا كبيرًا بسـبب أن البنا سـاهم في إنشـاء دار التقريب مع تقي الدين القمي!

نسـتطيع القول إذن: إن هادي خسرو شاهي هو الامتداد الشيعي لمحمد تقـي الديـن القمي، وهو من وضـع بصمة جديدة لكي تسـتمر دار التقريب في فاعلياتهـا، من أجل هذا جاء خسرو إلى مصر عام 2001 وظل بها ثلاث سـنوات حيث أتم كامل الاتفاقات مع جماعة الإخوان كي تسـتكمل مسيرة التقريب، ولكن أي تقريب هذا الذي يرجونه، هل تقريب الشيعة من السنة، هـل سـاروا قدمًـا في التوقف عن سـب الصحابة، هل تركـوا القول بعصمة

الأئمة؟ مسيرة التقريب التي بدأها حسن البنا مع تقي القمي كانت تسير في اتجاه واحد، اتجاه إلى إيران، أما الطريق إلى مصر ونجد والحجاز فمسدود، هذا طريق من طرف واحد، والطرق ذات المسار الواحد هي دائمًا طرق لا تعرف قبول الآخر.

وفي عام 2006 كانت قد مرت مائة عام على مولد حسن البنا، لم يفوت قائد التقريب الجديد الفرصة، بل جعلها مناسَبة مناسِبة لإعادة زرع فكر التقريب ذي الاتجاه الواحد، فرصة لكي يستمر إخوان البنا في الاقتراب من شيعة الخميني، آنذاك كتب هادي خسرو شاهي دراسة طويلة عن حسن البنا وعلاقته بالشيعة، لم يكتب خسرو هذه الدراسة باعتباره واحدًا من المثقفين أو المهتمين بالحركة الإسلامية، ولكن بصفته وقتها كرئيس لمركز البحوث الإسلامية ومستشار وزير الخارجية الإيرانية، كانت الصفة حاضرة بقوة في الدراسة التي كانت عبارة عن غزل سياسي رفيع، وقد جاءت على النحو الآتي:

مقدمة

يصادف العام الميلادي 2006 الذكرى السنوية المئوية لمولد الشيخ حسن البنا المؤسس والمرشد لجمعية الإخوان المسلمين في مصر... وبهذه المناسبة، إضافة إلى المراسم الخاصة التي أقيمت في مصر وبعض البلدان العربية أقامت «الجماعة الإسلامية» في باكستان كذلك مراسم خاصة، وأصدرت كتابًا خاصًا حول الإمام حسن البنا والإخوان المسلمين.

قبل أشهر، كان الزعيم والمرشد للجماعة الإسلامية الباكستانية مولانا «القاضي حسن أحمد» قد جاء إلى طهران للمشاركة في ندوة من الندوات

وطلب مني نظرًا إلى الاهتمام والمعرفة التي تتوافر لديَّ في هذا المجال، إعدادَ مقال وإرساله إلى باكستان كي تتم ترجمته إلى لغتي الأردو والإنجليزية ليطبع في الكتاب الخاص الذي يصدر بهذه المناسبة... أعددت هذا المقال بهذه المناسبة وأرسلته إلى الجماعة الإسلامية في باكستان، والآن قد أرى من المناسب أن يتم نشر الترجمة العربية لهذا المقال لزيادة معرفة الشعوب المسلمة، بالشيخ حسن البنا وأفكاره وأهدافه.

ميــلاد النــــور

يفصل بين ولادة الشيخ حسن البنا حتى يوم استشهاده (1906 - 1949) أربع وأربعون عامًا من الجهود والعمل والجهاد والحياة الصاخبة والمثمرة، وقد دخل الشيخ البنا المعترك السياسي والمجتمع وهو يحمل نفسية «صوفية جهادية» وعند تشرفه بالشهادة خرج هذا المجاهد البطل من مسرح الحياة حسب الظاهر، لكن التأثير المعنوي والثقافي الذي تركه في العالم الإسلامي والعربي مازال باقيًا، ويشكل تراثه الفكري منارًا للإخوان المسلمين. كان الشيخ حسن البنا الذي ينبغي اعتباره بحق أحد الدعاة من أهل القبلة في عصرنا، النموذج النادر للقادة السياسيين والمفكرين الدينيين الذين لم يألفوا التعب والملل في نشر وترويج الفكر الإسلامي ومعارفه.

وكان الشيخ حسن البنا مصلحًا اجتماعيًّا وزعيمًا دينيًّا وكان يشكل محورًا لفكر وحركة مختلف الفئات والأطياف في المجتمعات الإسلامية والعربية، وقد أسس في فترة زمنية قصيرة منظمة ومؤسسة إسلامية ما زالت تعتبر عاملًا رئيسيًّا ومؤثرًا في التيارات السياسية والفكرية في العالم الإسلامي

والعربي... المنظمة التي مازالت تعتبر عنصرًا جديرًا بالاهتمام في المعادلات السياسية في مصر.

كان الشيخ حسن البنا يتمتع بقوة خارقة في تعبئة الشعب المصري المسلم وتنظيمه، وكان المثال المطلوب للعالم الإسلامي والزعيم الفكري والحركي، ويشهد معاصروه من الباحثين السياسيين والمؤرخين بنبوغه وقوته الخارقة في قيادته التنظيمية العالية.

وقد جعلته خبراته منذ فترة حداثته يحضر المجالات الثقافية والمؤسسات الاجتماعية والجمعيات الخيرية والدينية مرشدًا وزعيمًا، ونيِّرًا ويقظًا وواعيًا ذا أثر فاعل في التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية في بلاده.

واقترنت سوابق حضوره في جماعة السلوك والأخلاق وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و«طريقة إخوان الحصافية» بخبرات قيمة تركت تأثيراً بالغاً في بلورة شخصيته باعتباره زعيمًا ومؤسسًا.

في عهد حداثته تزعَّم حسن البنا «جمعية الحصافية للبر» وذلك من أجل صيانة الأخلاق الإسلامية في المجتمع المصري المسلم، والتصدي لفعاليات الهيئات التبشيرية الدينية الغربية التي أوفدت إلى البلاد العربية للتبشير بالمسيحية، في عام 1927 لعب الشهيد حسن البنا دورًا محوريًّا في تأسيس «جمعية الإخوان المسلمين» وفي الثانية والعشرين من عمره أسس جمعية الإخوان المسلمين مع ستة من زملائه.

كان للشيخ حسن البنا منذ شبابه حضور في التربية والتعليم في مصر باعتباره معلمًا للُّغة العربية ومربيًا للأخلاق والمعارف الإسلامية، وقد أكمل في

هـذا المنحـى مهاراته وفنونـه في نشر وتعليـم الديانة الإسـلامية وأحكامها، ممـا ترك ذلك الأثـر في تكوينه الفكري وقدراته النفسـية والشـخصية، وبعد معرفتـه وتعاونه مـع كل من «محب الدين الخطيب» و«الشـيخ رشـيد رضا» تكاملت شخصيته العلمية والمعرفية، كما أَلَّفَ فنون الصحافة وقوانين العمل في الأجهزة الإعلامية من خلال عمله في الصحافة المرتبطة بالتيار الإسلامي آنذاك.

والعجيـب أنـه لم يتأثـر بالأسـاليب المتطرفـة لتلـك الشـخصيتين حول المذاهب الإسـلامية، سـواء في فـترة تعاونه معهما أو بعدهـا، وجعل الطريقة المنطقية للتقريب والتآلف بين المذاهب الإسلامية ضمن برامجه الحركية.

وبات حسـن البنا من خلال تنظيمه الدقيق ونشره لأسبوعية المطبوعات الإسلامية يشكِّل الطليعة والرائد للأجهزة الإعلامية والنشريات الإسلامية الملتزمة، وكانت نشريات الإخوان المسـلمين تلعب دورًا أساسيًّا في الاهتمام بالصحوة «للمرأة المسـلمة» وتنظيم المرأة المسـلمة في تشـكيلات «الأخوات المسـلمات» من جانب حسن البنا، والتي كانت تُدار بناء على دعوته بإشراف السيدة زينب الغزالي، والتي كانت من مؤشرات أفكاره النهضوية الشاملة.

وفي مجـال الكفاح وحركة النضال ومعاداة الاسـتعمار البريطاني والفرنسي في البلدان العربية، كان حسـن البنا ومنظمة الإخوان المسلمين دائماً حاضرين وفاعلـين وفي الخط الأمامي لمواجهة الأعداء، ويكفي أن نشـير إلى ذكائه هذا وبعد النظر الذي كان يتحلى به بأنه قد عاصر اثنتي عشرة وزارة من الحكومات المصريـة، وكان تعامله وسـلوكه مع أيـة واحدة منها بما يتطابق وينسـجم مع

المقتضيات الزمنية، وكانت قضية فلسطين وضرورة تحريرها من نير وهيمنة الصهاينة تحتل موقعًا محوريًّا في الفكر السياسي لحسن البنا. وكان البنا يؤكد دائمًا أن القضية الفلسطينية هي قضية المسلمين كافة في العالم، وكان يرى أن بريطانيا والصهاينة يفهمون لغة واحدة وهي «لغة الثورة وقوة الأسلحة».

وقد أصدر حسن البنا باعتباره المرشد للإخوان المسلمين في السادس من شهر آيار عام 1948 م فتوى «الجهاد المقدس» لتحرير فلسطين، وعبّأ كتائب المجاهدين وقام بتنظيمها في كافة أرجاء العالم العربي- وخاصة في مصر وسوريا والأردن والعراق - ولولا خيانة الحكّام وقيادات الأنظمة العربية لكان المسلمون قادرين على قمع الصهاينة وتحرير فلسطين منهم... وفي أعقاب حضور المجاهدين من الإخوان المسلمين في الحرب ضد الصهاينة ودفاعهم البطولي عن الأراضي الفلسطينية المسلمة ازدادت المؤامرات والدسائس ضد حسن البنا وتنظيمه، وقد دفعت ضغوط بريطانيا الحكومة المصرية إلى إصدارها قرارًا بحل تنظيم الإخوان المسلمين، وتم بذلك استدعاء كافة القوى المحاربة والمجاهدة من الإخوان المسلمين من جبهات الحرب ونزع أسلحتهم، وبعدها بفترة وجيزة استشهد حسن البنا بتاريخ 12 فبراير شباط عام 1949 على أيادي مرتزقة الحكومة الدائرة في التبعية الاستعمارية، وكان حسن البنا في الواقع شهيد دفاعه عن القضية الفلسطينية وكفاحه ضد المستعمرين، لكن العناصر الدائرة في التبعية البريطانية والأمريكية تمكنت حسب الظاهر من اغتيال الشيخ حسن البنا إلا أنها لم تفلح في اغتيال فكره ومسار حركته أو إيقافها، ومازالت الشجرة المباركة التي زرعها الشيخ البنا تنمو وتؤتي ثمارها.

مكانته في التيارات الإسلامية

كان نشاط حسن البنا ونهضته في المبادئ ومفاهيمها المطروحة في الواقع مكملاً للتيار الإسلامي السابق له، والذي كان قد بدأه السيد جمال الدين الحسيني المعروف «بالأفغاني» في أواخر القرن التاسع عشر؛ فالسيد جمال الدين سافر إلى مصر مرتين وأقام في القاهرة؛ واشتغل بالتدريس واهتم بتربية الأفراد وإلقاء الخطب في المحافل والمجامع الثقافية، وقد أوجد حركة فكرية عظيمة هناك، وله دور قيادي في تشكيل أو تحريك المحافل المثقفة في مصر وفي باقي البلدان العربية، ويؤكد معظم المؤرخين والباحثين في تاريخ الحركة الإحيائية الإسلامية على دور السيد جمال الدين، فالسيد استطاع بنبوغه الخارق في فترة قصيرة جمع الكثير من التلاميذ والمريدين له حول الأفكار الإحيائية الإسلامية، وتأسيس حركة الصمود الشاملة، ويمكن تلخيص مبادئ هذه الحركة في:

1 - «الالتزام والتعهد بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وانتهاج طريق السلف الصالح للأمة الإسلامية».

2 - تحرير وخلاص الأمة من الاستبداد الداخلي والخارجي.

3 - استيعاب العلوم والفنون الحديثة من أجل كسب الاقتدار للأمة الإسلامية.

وكان السيد جمال الدين الحسيني قد اعتبر الجهل والتوجه الخرافي للمسلمين وابتعاد العالم الإسلامي عن الحركة الحضارية والعلوم الحديثة الأساس في انحطاط هذه الأمة. ولذلك كان يدعو علماء هذه الأمة إلى تعبئة طاقاتهم وتشجيع المجتمع الإسلامي لخلاصه من الجهل والخرافات.

وقد أكّد السيد جمال الدين الحسيني في حركته كثيرًا على ضرورة المواجهة والمقاومة للاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي. وفي الواقع كان لجهوده وأفكاره دورٌ أساسيٌّ في تكامل الفكر الإسلامي. وكان مشروع الإسلام التحرر من «قيود التقليد الأعمى» والتأكيد على فتح «باب الاجتهاد» ومشروع «الإسلام السياسي المناضل» والمعارض للطغيان والاستبداد الداخلي والخارجي من نتاجات أفكاره والتي كانت مؤثرة في حركة التيارات الإسلامية المستقبلية.

كان الشيخ محمد عبده تلميذًا وزميلاً للسيد جمال الدين الحسيني باعتباره مصلحًا اجتماعيًا وثقافيًا ومكملاً لمسار السيد جمال الدين في دخوله معترك الحركة الإسلامية، وقد أثرى بإصلاحاته الثقافية والتعليمية الحركة الإسلامية وعمل نحو تكاملها.

وكان للشيخ محمد عبده حضور فاعل في مختلف شئون حياة المجتمع المصري وبلدان شمال إفريقيا؛ كتونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان. وقد أثمرت أفكاره نتائج طيبة وخالدة في البرامج الإصلاحية التي أجريت في جامعة الأزهر المصرية. وكما يقول حسن البنا في كتاب مذكراته الذي جاء باسم «مذكرات الدعوة والداعية» بأنه جاء بعد السيد جمال الدين الحسيني والشيخ محمد عبده ليواصل مسار الحركة الإصلاحية الإسلامية وطريقتها. وكان حسن البنا تلميذًا لمحب الدين الخطيب والشيخ رشيد رضا صاحب تفسير المنار، وتلميذًا خاصًا للشيخ محمد عبده.

حسن البنا وحركة الإخوان المسلمين هما اسمان مترابطان لا ينفصمان عن

بعضهما أبدًا. لعب حسـن البنا باعتباره المرشـد والمصلـح والمعلم من خلال عرضه النظريات الإسـلامية دورًا بارزًا في إثراء الحركة الإسلامية والتيارات الإسـلامية السياسـية. ومـا مـن شـك كان للإخـوان المسـلمين باعتبارهـم الرياديـين بين الأحزاب والمنظمات الإسـلامية في القرن العشرين دور قيم في تنامي الحركة الإسلامية، وضرب الأسس الثقافية الغربية والعلمانية في العالم العربي والإسلامي.

ويعتبر حسـن البنا في التاريخ الإسـلامي والعربي المعاصر، أكبر شخصية إسـلامية. وقـد كُتبـت حولـه وحـول آثـاره وأفـكاره الكثـير مـن الكتـب والدراسـات ومـازال البنـا إلى اليوم وبعد مرور 75 عامًا على تأسـيس حركة الإخوان المسـلمين رائدًا وقائدًا، وما من شـك لعبـت البحوث ونقد الأفكار ودراسـة الأبعاد الشـخصية لحسـن البنا؛ دورًا مؤثرًا في تطور الفكر السياسي الإسـلامي وتقدمـه. وبالرغـم من العمـر القصير لحسـن البنا كان لـه الدورُ في بلـورة التيارات السياسـية والإسـلامية في مصر وباقي البـلاد العربية وإن التشكيلات التي نظمها في عام 1928م مع ستة من زملائه، مازالت موجودة رغـم عمليات القمـع والإعدامات والضغوط وحالات الكبت والاسـتبداد الممارس مـن جانـب الحكومـات المتتاليـة؛ منذ حكـم الملك فـاروق وكانت ولاتـزال من ناحية الرأي العام منافسـة للحزب الحاكـم في البرلمان المصري، ولولا دسـائس ومؤامـرات الدوائر الغربية وتعاون الاسـتبداد الداخلي معها لـكان تيار الإخوان المسـلمين يسـيطر على قيـادة المجتمع في مـصر، بل وكان يحظى بالسيادة والاقتدار في البلدان العربية وباقي البلدان الإسلامية كذلك.

وقـد ترك حسـن البنـا في المجـال الفكري والعمـلي آثارًا وأفـكارًا يمكن الإشارة إلى موجز منها على شكل مفهرس كمايلي:

مفهوم الإصلاح: يرى حسن البنا أن الإصلاح يجب أن يحظى بشكل ومحتوى محلي ولا يكون تقليدًا للغرب ومفاهيمه وفلسفته. لأنه كما يعتقد أن النظريات والأنماط والنماذج الغربية لاتنطوي على الفاعلية اللازمة في المجتمعات الشرقية.

مفهوم الحركة: ينطوي مفهوم الحركة في فكر حسن البنا على مكانة واسعة كما يرى حسب وجهة نظره أن لهذا المفهوم ثلاثة أركان أساسية وهي عبارة عن:

الأنموذج المفضل: يرى البنا أن هذا المثل هو القرآن الذي يشكل أساسه الإيمان بالله المتعال. كما يرى أن الأمة الإسلامية تبلغ سيادتها الكاملة عندما تؤمن بالله عز وجل.

القوة المادية: يرى أن حركة الأمة الإسلامية لاتتكامل ولا تنتصر إلا في حالة بلوغها القوة المادية في مختلف جوانبها: كونوا أقوياء ما استطعتم وأعدوا أنفسكم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وهذه الآية الشريفة موجودة في علامة الإخوان المسلمين ومرسومة بشكل بارز فيها.

الاقتدار المعنوي: إنه لاتكتمل أركان الحركة الإسلامية إلا بحصول تغيير في الذات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

إذن ينبغي البدء بأنفسنا وبعدها التفكير بتغيير المجتمع.

الدين والسياسة: إن الإسلام يستجيب للمقتضيات الزمنية والمشاكل المعاصرة؛ ولذلك كان يعارض بوضوح نظرية فصل الدين عن السياسة ويقول: «إننا نعارض وجهة نظر الدكتور طه حسين والآخرين ممن يؤمنون

بنظريات «فصل الدين عن السياسة» و«الدين عن الوطنية» ونؤمن بأن الإسلام لايتعارض مطلقًا مع السياسة والعلم والتوجه الوطني».

البنى التحتية السياسية للحركة: بحث عن البنى التحتية للهيكليات السياسية لتشكيل حركة عالمية إسلامية وكان يرى أن القواعد الأساسية لهذه الحركة هي عبارة عن:

القيادة: إن المثال لهذه القيادة هو الرسول الإسلامي الكريم.

الوحدة: إن الوحدة هي القاعدة الأساسية للحركة. ولايتيسر انتصار الحركة الإسلامية دون إزالة عوامل وعناصر التشتت والتفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية.

التحرر من الهيمنة الاستعمارية: استخدم مصطلح الاستخراب «طلب الخراب» بدل مصطلح الاستعمار. واعتبار الاستعمار عنصرًا مخربًا لوحدة الأمة الإسلامية، ومانعًا أساسيًا أمام إيجاد الحركة الإسلامية. لذلك كان يدعو الأمة الإسلامية إلى مقارعة الاستعمار والتخلص من قيوده لتتاح لها المقدمات اللازمة «لحركة شاملة».

إقامة حكومة إسلامية: إن تشكيل الحكومة الإسلامية على قواعد الأحكام القرآنية وسنة الرسول الكريم ﷺ والسيرة النبوية الشريفة تشكل ضرورة حيوية ولازمة لتشكيل حركة إسلامية.

أسباب انحطاط وتخلف العالم الإسلامي: يؤكد البنا في منحى التفكير حول كيفية إيجاد الحركة الإسلامية الشاملة، وضرورة إجراء الدراسات والبحوث حول أسباب انحطاط العالم الإسلامي كي تتوضح في رحاب

هذه الدراسات الآفات والأخطاء الماضية لتفاديها، ويتم بذلك تبيين تجربة انحطاط وتخلّف العالم الإسلامي، والعمل على تنمية الحركة الإسلامية؛ وذلك من أجل عدم تكرار التجارب المرة للانحطاط والانهيار للعالم الإسلامي.

ويبحث البنا التخلف الموجود في العالم الإسلامي، ويرى أن للعوامل التالية دورًا فاعلاً في تخلف الدولة الإسلامية والتوقف عن مواصلة حضارتها:

1 - الخلافات السياسية والعنصرية والنزاع حول المناصب والسلطة: لقد تعرضت الدول الإسلامية خلال القرون الماضية إلى الخلافات السياسية والقومية متيحة بذلك مجالات التفرقة والتشتت بين أبناء الأمة الإسلامية.

2 - الخلافات الطائفية والمذهبية: تعمل الخلافات المذهبية بين الطوائف والمذاهب الإسلامية نحو زعزعة وحدة الأمة الإسلامية وتتيح انهيار قواعد الاتحاد الإسلامي.

3 - التوجه نحو الدنيا والانغماس في الملذات الدنيوية: كان حسن البنا يرى أن أهم عوامل تخلف العالم الإسلامي «التوجه نحو الدنيا» من جانب المسلمين، وابتعادهم عن الإيمان بالآخرة وتركهم التعاليم الإسلامية في تنظيم حياتهم في هذه الدنيا.

وكان السبب الرئيسي لضعف المسلمين كما يرى البنا «حب الدنيا وخشيتهم من الموت» وقد نسوا بذلك الحياة الأخروية وطلب الشهادة والمجاهدة في سبيل الله.

ويرى أن الانغماس في الملذات العابرة الدنيوية يتيح عوامل ضعف الأفراد والدول.

4 – الابتعاد عن الركب الحضاري الإنساني وعن اكتساب المهارات والفنون والعلوم الحديثة: في أعقاب انغلاق دور العلم والفضيلة بقي العالم الإسلامي متخلفًا من الناحية الفكرية والحضارية. وبعد انغماس مفكري العالم الإسلامي في العلوم والفلسفات العقيمة وغير المجدية للآخرين عرّض ذلك الأوضاع العلمية والفكرية للعالم الإسلامي إلى أزمة داخلية. وقد نسي المسلمون الأحاديث النبوية الشريفة من أمثال: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلم ولو كان في الصين» تخلفوا بذلك عن ركب الحضارة والعلم وكان تغلب الجهل عليهم سببًا أساسيًّا في انحطاط الأمة الإسلامية.

5 – غرور الحكّام المسلمين وعدم اهتمامهم بشئون المسلمين: لقد اغتر المسئولون المسلمون باقتدارهم وهيمنتهم الظاهرية ناسين بذلك اهتمامهم بشئون المسلمين. من جانب آخر يرى أن ترك المسئوليات والالتزامات والواجبات الخطيرة لقيادة الأمة الإسلامية بأنها من العوامل الأساسية لفشل هذه الأمة وضعفها.

6 – التبعية العمياء للأقوياء والناهجين لمنطق القوة: لقد أتاح اندحار المسلمين أمام القوى الاستعمارية والغربية المجال للانتهاج الأعمى للبلاد الإسلامية لأهداف وأفكار هذه القوى، وبات التقليد للثقافة الغربية دون التفكير بنتائجه والدراسة لها يشكل مصدرًا لانحطاط الأمة الإسلامية.

طريقة حسن البنا في تشكيل الحركة الإسلامية

كان حضور زعيم حركة الإخوان المسلمين ومؤسس هذه الحركة في الساحة السياسية وفي المجتمع المصري قد مكّنه من التعرف على التيارات السياسية والثقافية السائدة في المجتمع، وبات يعي متطلبات مختلف فئات الشعب المصري، ومن خلال معرفته خبرات السلف الصالح وزعماء التيارات الإسلامية على مرّ التاريخ، اتخذ طريقة خاصة وشعبية في منحى الدعوة الإسلامية وإقامة الحركة الإسلامية التي من شأنها أن تكون منسجمة تمامًا مع الظروف والمقتضيات الزمنية. ومن خلال رؤيته الإسلامية العميقة ودراساته التاريخية وبحوثه الفكرية مع وعيه لأساليب المصلحين والسلف الصالح توصل إلى النتائج التالية:

- اختار الإسلام موقفًا مرنًا حيال الأساليب الإصلاحية والثورية.
- ينبغي أن تكون كافة الوسائل والسبل الإصلاحية في خدمة الحياة الجديدة ومشروع التغيير الثوري في المجتمع.
- الدعوة للعدالة والحرية والبحث عن المساواة، لا ينبغي أن تكون بديلًا للشرعية الإلهية أو تحل محلها.
- الديمقراطية يجب ألا تكون بديلًا لنظام الشورى الإسلامي.
- الحكومة العلمانية ذات التوجه الإنساني والمجتمع المدني الغربي لا ينبغي أن يكونا بديلين للحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

لكن طبيعة حسن البنا وهويته الواضحة تتبلور في عدة مراحل يمكن اعتبارها كالتالي:

مرحلة التبليغ والدعوة: يتم في هذه المرحلة إعلام المجتمع بأفكار ومعارف الدين الإسلامي.

مرحلة التشكيل: في هذه المرحلة يتم انتخاب زملاء وأنصار الحركة الإسلامية وتنظيمهم ليتم بذلك تقوية عملية الإعلام الإسلامي ليتيحوا المجال لظهور الحكومة الإسلامية في الساحة السياسية في المجتمع.

مرحلة إيجاد الدولة الإسلامية: في هذه المرحلة تتم إقامة النظام السياسي الإسلامي في المجتمع ويصبح تنفيذ الأحكام والشريعة الإلهية شيئًا عمليًا.

مرحلة إحياء الخلافة الإسلامية: الحكومة الإسلامية الشاملة وبرامج مراحل الحركة: يرى حسن البنا أن أية واحدة من المراحل الأربع المذكورة أعلاه لها برامجها وأهدافها وأولوياتها وأدواتها. وتكون مؤشراتها على النحو التالي:

(١) مرحلة التبليغ والدعوة الإسلامية:

أهداف وأولويات هذه المرحلة من وجهة نظره تكون على النحو التالي:

- تربية وتعليم الأُمة الإسلامية.
- إيقاظ الأُمة الإسلامية و توعيتها.
- تغيير الأعراف والأنظمة غير الإسلامية السائدة في مجتمع المسلمين.
- تهذيب النفوس ورشدها وأخلاقها في المجتمع الإسلامي.
- نشر وترويج مبادئ الحق وأصوله والفضيلة الإسلامية.

آليات وأدوات هذه المرحلة:

تشكيل صفوف ومحافل ومجالس دينية وبيان الحقائق لتنمية الطلاب والتوعية الإسلامية الشاملة للمسلمين.

اختيار وانتخاب العناصر الناشطة والصالحة والمسئولة لتولي المسئوليات والواجبات الشرعية في خدمة الإسلام وأركانه، وتشكيلها في الأطر والنماذج التنظيمية وتوجيه إجراءات وعمليات التوعية للأمة الإسلامية بمسئولياتها في المرحلة الأولى للحركة الإسلامية.

تنظيم الخدمات الاجتماعية والعامة المحققة لرخاء الشعب، وإزالة المشاكل المادية والمعنوية من المجتمع الإسلامي.

(ب) مرحلة الدعوة وانتخاب الصفوة:

أولويات وأهداف هذه المرحلة:

الهدف الأساسي لهذه المرحلة هو إرساء العلاقات مع الشخصيات البارزة والصفوة في المجتمع والفئات والأطياف ومختلف التيارات السياسية والاجتماعية. وقد جرَّب عمليًّا هذه المرحلة في المجتمع المصري واكتسب عبر هذا السبيل الكثير من النجاحات في منحى خدمة الأهداف الإسلامية السامية والحركة الإسلامية.

يرى البنا أن أهم الآليات لتفعيل هذه المرحلة، تتمثل في الحضور الفاعل في الساحة السياسية والمجتمع الإسلامي، وإيجاد علاقات سياسية وإنسانية ودينية مع الصفوة والشخصيات المهمة في المجتمع كي لاتكون لهم ميول معارضة وعدائية للإسلام.

(جـ) مرحلة تشكيل الدولة الإسلامية:

ويرى أنه بعد النجاح في مرحلة التبليغ والإعلام ومرحلة تكوين المجتمع الإسلامي، تحل مرحلة إيجاد (الأمة الإسلامية). ومن جملة الأهداف والأولويات لهذه المرحلة التي توقعها البنا هي عبارة عن:

- تحرير البلدان الإسلامية من هيمنة الأجانب غير المسلمين.
- فهذا التحرر والاستقلال ينبغي أن يكون في الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية.
- إصلاح هيكلية الحكومة الموجودة ومختلف مؤسساتها لبلوغ مرحلة الدولة الإسلامية المرجوة. وطبيعي أن يكون لأسلوب الإصلاح مراحل مختلفة منها: بدء الإصلاح بالنصيحة والإرشاد لأركان الحكومة الموجودة، ولكن في حالة عدم إمكانية استجابة الحكومة ينبغي استخدام الكفاح السياسي وأخيرًا القوة وإزاحتها عن السلطة.

(د) مرحلة عودة الخلافة الإسلامية:

إن هدفه النهائي هو رسم الإطار النظري لهذه المرحلة على النحو التالي:

تتحرك الدول الإسلامية من خلال تشكيلها للاتحادات والائتلافات السياسية والأمنية والاقتصادية والثقافية وستتحرك خطوة فخطوة ومرحلة بعد مرحلة نحو الاندماج والانسجام تحت العلم الموحد للخلافة الإسلامية. وسينتخب المسلمون بعد تشكيل «حكومتهم الإسلامية الموحدة» زعيمهم أو خليفتهم من بين الأفراد الصالحين والملتزمين والواعين للشريعة الإسلامية والملتزمين بالأحكام القرآنية والسيرة النبوية الشريفة دون أخذهم في الاعتبار الانتماءات في جنسياتهم أو أوطانهم.

التعامل مع الحكومات

يطرح الشيخ للتعامل مع الحكومات الموجودة والذي يشكل جزءًا من الإجراءات والأهداف الاستراتيجية للمرحلة الثانية للنهضة الإسلامية مبادئ وقواعد ويقول في هذا الجانب:

إننا لانريد السلطة والحكومة «لأنفسنا» وسنختار من يكون مستعدًا لتولي أمرها وهو ملتزم بأحكام الشريعة الإسلامية ووفي لها، وفي مثل هذه الظروف سنكون جميعًا جنوده ونصيرين له. ولكن في حالة عدم عثورنا على الشخص الذي يتولى قيادة الدولة الإسلامية، فإننا سنتولى تشكيل الحكومة الإسلامية، وإننا سوف لانألو جهدًا في سبيل بلوغ ذلك والوصول إليه.

إننا سنقترح مشاريعنا لإصلاح شئون المسلمين والحكومة وسنجري حوارًا مع الحكومة بنفس الأدبيات واللغة التي تستخدمها. ومن الطبيعي سيكون من اللازم الاتصال مع الحكومة والحوار معها لطرح مقترحاتنا. إننا نعلم أن الذين تربوا في أحضان الاستعمار سوف لايصغون إلى رغباتنا ومطالبنا نحو إصلاح الأمور وتشكيل الدولة الإسلامية. كما أننا لانتوقع أن يهتموا بمطالبنا المشروعة. لكننا سنواصل نصائحنا ومواعظنا وحوارنا مع هذه الحكومات كي تتم الحجة عليها ونعمل بالواجب الشرعي الملقى على عاتقنا.

ولكن من الممكن أن تتصرف الحكومة معنا بالعنف، فعندها ينبغي علينا أن نبدي الحلم والمرونة كي يتم بذلك احتواء إعصار غضب السلطة الحاكمة وسنعود ثانية إلى مسرح الكفاح والمقاومة.

التغيير والتحول

(أ) **الكفاح البرلماني:** لقد جرَّب حسن البنا والإخوان المسلمون هذا التوجه: كان الإخوان المسلمون في زمن مرشدهم الأول حسن البنا قد شاركوا في ساحة التنافس في الانتخابات، وتنافسوا مع الأحزاب السياسية في عهد الملك فاروق. وبعد استشهاد حسن البنا والإفراج عن الإخوان المسلمين من السجون كان للإخوان حضور ناشط في الانتخابات البرلمانية المصرية، ورغم القيود ومختلف الضغوط الموجهة إليهم من جانب الأجهزة الأمنية والبوليسية للأنظمة الحاكمة حققوا انتصارات مدهشة.

(ب) **الوصول إلى السلطة عبر الانقلاب:** كان الانقلاب يشكل أعنف سبيل للسيطرة على السلطة، وبلوغ الحكم، غير أنه لم يلاحظ في تاريخ هذه الحركة أي أثر من القيام بهذا الشيء، ولم يؤيد الإخوان المسلمون هذه الطريقة او استغلالها لتسنم مقاليد الحكم أبدًا.

(جـ) **استخدام القوة لإزاحة الحكومة:** من الطبيعي لم يلغ حسن البنا موضوع استخدام القوة لإزاحة الحكومة غير الشرعية، لكنه اعتبر استخدام القوة والعنف لبلوغ الحكم والسلطة في البلاد الإسلامية آخر وسيلة وطريقة.

والخلاصة: تكون وجهة نظرته حول نظرية التحول والتغيير الاجتماعي والسياسي لبلوغ تشكيل الدولة الإسلامية على الوجه التالي:

1 - الإسلام يستخدم كافة السبل في كافة المجالات والجوانب لتغيير المجتمع.

2 - من الممكن استخدام الطريقة الإصلاحية في بعض الظروف اعتمادًا على متطلبات الأوضاع والمقتضيات الزمنية.

3 - كان البنا لا يؤمن بالطريقة الثورية وأسلوب العنف لبلوغ أهداف تغيير المجتمع العلماني المصري إلى مجتمع إسلامي، وكان يوصي دائمًا بانتهاج الأسلوب المرحلي والإصلاحي.

4 - كانت طريقة استخدام القوة والعنف لإيجاد التحول في ظروف المجتمع المصري حسب رأيه تابعة لظروف وضوابط محددة وصعبة. وحتى وفي هذه المرحلة لم يسمح أبدًا باستخدام الإرهاب والاغتيال والتخريب والتفجير للوصول إلى السلطة رغم مزاعم أعدائه في هذا الجانب....

5 - لقد أجاز التنافس في الانتخابات البرلمانية في حالة وجود إمكانية العمل للوصول إلى السلطة.

مكانة المرأة في الفكر النهضوي السياسي لحسن البنا

احتل الاهتمام بشئون المرأة ورفع مكانتها ومنزلتها، موقعًا متميزًا في المشروع النهضوي لحسن البنا. وكان البنا طليعيًّا ورائدًا في مشروع الاهتمام الخاص بشئون المرأة المسلمة، وفي الواقع كانت الاستجابة الملتزمة لهذا بشكل ضرورة تاريخية.

في أوائل العقد الأول من القرن العشرين كانت مصر ساحة لفعاليات نواة حركة تحرير المرأة العربية، وظهرت هذه النواة بدعم شامل من جانب الاستعمار البريطاني تحت ستار الحركات التنويرية والتوجه الغربي. وكانت المرأة المصرية في تلك الظروف كباقي النساء في البلدان الإسلامية والعربية

تعيش حالة من الجهل المطلق والتخلف الفكري والثقافي، وكانت مبادرة حسن البنا في موضوع رفع منزلة المرأة المسلمة في مصر تشكل في الواقع أمرًا رياديًّا واستجابة للمتطلبات الاجتماعية والسياسية المصرية آنذاك. وقد قام البنا بتأسيس تنظيم «الأخوات المسلمات» كخطوة مهمة نحو نهضة رفع المستوى الفكري والثقافي من خلال تأسيسه وإيجاده للمراكز التعليمية والخيرية، وقد أتاح ذلك مجالات مناسبة نحو تحول مجتمع المرأة المصرية.

لقد شكّل تأسيس منظمة خاصة للنساء باسم «الأخوات المسلمات» مبادرة مهمة في تاريخ فعالياته والإخوان المسلمين. لأن هذه التشكيلات طرحت بعد ذلك باعتبارها المثل والريادة لحركة المرأة في العالم العربي والإسلامي. فمكافحة الأمية والحركة التوعوية للمرأة المسلمة والاهتمام بتربية الأطفال والناشئين كانت تشكل جانبًا من التعاليم التربوية والإجراءات العملية، لإيجاد التحول في مجتمع المرأة المصرية.

يرى البنا أن رفع المستوى المعرفي والإنساني للمرأة المسلمة يشكل جانبًا من عمليات التحول والتغيير في المجتمع الإسلامي، ويساعد على عملية تشكيل المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية.

وكان يؤمن بعدم إمكانية نجاح وفوز الحركة الإسلامية في المجتمع المصري دون رفع مستوى ومكانة المرأة التي تشكل نصف المجتمع.

حركة تقريب المذاهب الإسلامية

كان اهتمام الشيخ حسن البنا وباقي قادة حركة الإخوان المسلمين بحركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، يشكل أحد الدوافع والعوامل لمهاجمته

ومهاجمة أفكاره وجماعة الإخوان المسلمين غير المنصفة من جانب السلفيين مع مختلف أطيافهم. ففي أدبيات السلفيين الجدد تعتبر علاقات الإخوان المسلمين وقادتها مع ما يدعى بمعارضي السنة والشيعة منهم خاصة أمرًا مرفوضًا، ويعتبرون ذلك أحد الأدلة على وجود الانحراف والبدع في هذه الجماعة.

وقد تجلى عمق الخلافات بين الإخوان المسلمين والتيارات الزاعمة للسلفية في الأحداث الأخيرة إبان الهجوم الوحشي للصهاينة على لبنان وحزب الله والمقاومة الإسلامية. وقد بلغ ذلك الحد الذي جعل وللأسف بعض العلماء السلفيين يعتبرون الدعاء لنصرة المقاومة الإسلامية اللبنانية بسبب الحضور الملحوظ وغير المنافس لحزب الله اللبناني في هذه الجبهة أمرًا محرمًا ومرفوضًا! غير أن الإخوان المسلمين وزعماءهم، وخاصة في مصر، أبدوا دعمًا واسعًا للمقاومة الإسلامية في لبنان واعتبروا فتاوى بعض العلماء السلفيين أمرًا مرفوضًا ومصدرًا لإثارة الفتنة والفساد. كان حسن البنا يرى أن حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية تشكل جانبًا من دائرة حركة الوحدة الإسلامية، وهي في خدمة الأهداف السامية للحركة الإسلامية. باعتباره مفكرًا من أهل السنة ومؤسسًا ومرشدًا للإخوان المسلمين، قد أرسى منذ القدم علاقاته مع علماء الشيعة وحوزاتهم العلمية واتخذ خطوات نحو تقوية حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، كما خطا أخلافه من زعماء وقادة الإخوان المسلمين اقتداء به خطوات إيجابية نحو هذا الجانب. ويعتقد بأن الاختلافات الفقهية لاينبغي أن تكون سببًا في التفرقة بين المذاهب الإسلامية، إذ من شأن تشديد الخلافات أن يشكل مصدرًا لضعف الأمة الإسلامية، ويمهد لتشتت وتفرق المجتمع الإسلامي.

وقد اعترف الشيخ بالمذهب الإمامي الشيعي، نظرًا للحقائق والدور القيم للشيعة في اعتلاء الإسلام والحضارة الإسلامية، واقتدى في ذلك بكبار علماء الجامع الأزهر، كالمرحوم الشيخ محمود شلتوت قبل إصدار فتواه الشهيرة، في الاعتراف بالمذهب الشيعي الجعفري باعتباره المذهب الخامس للمسلمين. وقد أرسى البنا علاقات طيبة مع علماء الشيعة. وكان يعتبر من جملة الطلائع في حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكان ضمن المؤسسين الأوائل «لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة إلى جانب العلامة الشيخ محمد تقي القمي».

تجدر هنا الإشارة إلى ثلاث نقاط وذكريات تاريخية بشأن الدور التقريبي للمرحوم حسن البنا:

كان آية الله السيد رضا الصدر من العلماء المعروفين في الحوزة العلمية في قم (نجل المرحوم آية الله السيد صدر الدين الصدر والأخ الأكبر للإمام موسى الصدر) حيث كان يقدم دروسًا في الأخلاق لطلابه في ليالي الخميس في بيته (وقد طُبِعَت كلماته في تلك الليالي في عدد من المجلات). في عام 1375هـ أي حوالي قبل نصف قرن، في الليلة التي كنت حاضرًا تحدث السيد الصدر حول أسرار الحج وآثاره الاجتماعية ودوره في إيجاد الوحدة الإسلامية بين طوائف المسلمين. فقال أثر التبليغ والإعلام السيئ من جانب السلفيين الوهابيين واضح، احتج بعض المصريين في أحد المراسم التي أقيمت في موسم الحج، التي كان قد حضرها حسن البنا، من منطلق عدم معرفتهم لحقيقة التشيع، على الشيعة المشاركين في الحج... وعندما عرف المرحوم حسن البنا بالأمر حضر في مركز تجمع الحجاج المصريين وألقى

كلمة تنويرية محذرًا فيها من مغبة هذا الشيء وقال: لا يحق لأي فرد أن يهاجم المسلمين الآخرين، وأضاف بعد ذلك في كلمته قائلًا: إن الفرق الموجود بين بعض أهل السنة وبين الشيعة هو أن الشيعة يحبون أهل بيت الرسول أكثر من غيرهم وهذا الشيء أداء لهم للدين، فينبغي أن يشكل هؤلاء القدوة لنا نحن المصريين الذين لنا ولاء لأهل البيت (ﷺ).

ثم أضاف آية الله الصدر قائلاً: لقد لعبت هذه الكلمة للشيخ حسن البنا دورًا أساسيًّا في تغيير التعامل مع الشيعة.

وكان المرحوم الشيخ مصطفى مشهور، المرشد السابق للإخوان المسلمين المصريين قد كتب لي رسالة - بخطه- كتب فيها حول هذا الموضوع قائلًا:

«لقد دعت حركة الإخوان المسلمين ومنذ تأسيسها من جانب مرشدها الكبير الإمام حسن البنا الجميع إلى غضّ النظر عن الخلافات المذهبية، والاتجاهات الدينية إلى الوحدة بين جميع المسلمين، ويشكل هذا الشيء في الواقع أمرًا إلهيًّا؛ حيث يأمرنا الله عز وجل في كتابه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ وكان الشهيد حسن البنا يولي اهتمامًا بالغًا بهذا الموضوع في أقواله وأعماله.

خاطرة أخرى كان يرويها المرحوم العلامة الشيخ محمد تقي القمي مؤسس «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» في مصر؛ فكان يقول: بعد مقتل «أبي طالب اليزدي» في الحجاز من جانب السعوديين توقفت زيارة الإيرانيين للحج عدة أعوام.... وبعد بذل المزيد من الجهود لإزالة الشبهات قامت دار التقريب بطباعة كتيّب مناسك الحج اعتمادًا على المذاهب الأربعة لأهل السنة

ومذهب الشيعة الإمامية ليتضح وجود الإجماع الكلي بين المذاهب الإسلامية في مسائل الحج كذلك. لكن المؤسف هو أن المسئولين عن الحج منعوا نقل هذه المناسك إلى الحجاز، وعندما طرح هذا الموضوع على الشيخ حسن البنا، والذي كان من مؤسسي دار التقريب، طرح حلًّا لافتًا للنظر لنقل مناسك الحج «للمذاهب الخمسة» وهو أنه أمر بطبع كافة مسائل الحج وفق آراء فقهاء المذاهب الإسلامية، في الصحيفة الرسمية الناطقة باسم الإخوان المسلمين. ثم بعث الصحف بواسطة الحجاج المصريين إلى الحجاز وتم توزيعها على الحجاج وترك ذلك أثرًا بالغًا في إيجاد الوحدة بين المسلمين...

والنقطة الأخرى في هذا الجانب هي لقاء الشيخ حسن البنا مع آية الله كاشاني في زيارة الحج هذه. وبعد إجرائهما الحوار قررا عقد مؤتمر إسلامي في طهران تشارك فيه شخصيات من العالم الإسلامي كي تتم فيه تقوية العلاقات الودية بين المسلمين أكثر فأكثر. لكن الشيء المؤسف عندما تابع آية الله كاشاني هذا الموضوع في طهران قوبل بمخالفة الحكومة المالية القومية الإيرانية، آنذاك وقد منع بحجة عدم وجود (الميزانية اللازمة لانعقاد المؤتمر)... والأدهى من ذلك هو أن حسن البنا بعد عودته إلى مصر وبعد فترة وجيزة قد اغتيل من جانب حكومة الملك فاروق... وطبقًا لما كتبه المؤرخون المصريون، أن الوثائق الموجودة تشير إلى أن أحد أسباب ذلك الاغتيال يعود إضافة إلى موقفه من القضية الفلسطينية، إلى هذا اللقاء وقرار العالم الشيعي وعلماء أهل السنة العمل نحو «الوحدة».

القضية الفلسطينية في فكر حسن البنا وعمله

لقد كانت فلسطين وقضاياها دائمًا من القضايا المحورية في الفكر السياسي والنضالي لحسن البنا والإخوان المسلمين. وكان الكفاح ضد بريطانيا والصهاينة في فكر المرشد للإخوان المسلمين يشكل جانبًا مهمًا من الكفاح لبلوغ تشكيل الدولة الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية. وكما أشرنا سابقًا فيما يتعلق بالحرب بين الصهاينة والعرب وفي فلسطين وحادث تقسيم فلسطين وتأسيس الكيان الإسرائيلي الغاصب في عام 1948 وضع حسن البنا باعتباره المجاهد المقاوم وزعيم الإخوان المسلمين كافة الإمكانات والطاقات الموجودة لمنظمته في خدمة تحرير فلسطين. ولم يأل جهدًا نحو تعبئة المسلمين والمجاهدين العرب في هذا الجانب وأخيرًا ضحّى بنفسه في هذا السبيل المقدس.

وكان نضال الإخوان المسلمين وقيادتهم ضد الاستعمار البريطاني، وحضور الإخوان المسلمين في الجبهات مع الفلسطينيين ضد الصهاينة في عام 1948 سببًا أساسيًّا في إصدار الأمر بحل جماعة الإخوان المسلمين واغتيال حسن البنا من جانب الحكومة المصرية العميلة، وكما تشير الملفات الموجودة والكتب والوثائق المنشورة وبموافقة من البلاط الملكي المصري الفاسد آنذاك.

وسلام الله عليه حيث كان شهيدًا لمشروع الوحدة الإسلامية والقضية الفلسطينية التي تشكل أقدس قضية للأمة الإسلامية.

حسن البنا وأبو الأعلى المودودي

بمناسبة إقامة مراسم الذكرى السنوية لمولد حسن البنا في باكستان، من جانب «الجماعة الإسلامية» وقد أعددنا هذا المقال بتلك المناسبة- تجدر الإشارة هنا إلى مؤسس حركة الجماعة الإسلامية مولانا السيد أبو الأعلى المودودي. كان البنا والمودودي يشكلان أنموذجين نادرين من القادة والدعاة الإسلاميين المعاصرين اللذين أوقفا حياتهما في سبيل سيادة الإسلام والجهاد في سبيل إعلاء شأنه.

وكانت بين هذين الزعيمين الإسلاميين قواسم مشتركة والكثير من التشابه وفيمايلي نشير إلى البعض منها:

1 - إبصارهما النور في أسر دينية وملتزمة وقد أبصر المودودي النور في عام 1311هـ/ 1903م بينما ولد البنا في عام 1314 هـ/ 1906م وذلك في أسرتين من أهل الفضيلة والعلم والتقوى وكان لأبويهما دور أساسي في تكوين شخصيتهما الإسلامية. وكان والدا المودودي والبنا من أهل العرفان والسلوك والأخلاق الإسلامية وقد ربيا ابنيهما في إطار هذه المبادئ والمعارف السامية.

2 - لقد تربى كل من المودودي والبنا في أجواء عرفانية ومعنوية وقد تعرفا منذ بدء حياتهما على المبادئ والمفاهيم العلمية والنظرية للعرفان والأخلاق الإسلامية. وكانا ينهجان ويمارسان عمليًّا في حياتهما اليومية تلك المبادئ. كما التحق الاثنان بالمؤسسات التعليمية والتربوية الحديثة ودرسا التعاليم والعلوم الحديثة مازجين بذلك تلك العلوم بفنونها

من العلوم والأفكار الإسلامية بالعمل الصحفي، وارتباطهما الوثيق بأبناء الشعب والمشاكل التي يعانونها كان من القواسم المشتركة بين المودودي والبنا مما ترك تأثيرًا بالغاً في بلورة الشخصية القيادية لهذين الرجلين.

3 - كان الاثنان قد اشتغلا في العمل الصحفي منذ بدء مرحلة شبابهما. وقد دخل المودودي في العمل الصحفي وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان يكتب مقالاته في صحيفة «مدينة» وكان البنا من جانبه يكتب مقالاته في صحيفة «المنار» وكان الاثنان من الطليعيين في تأسيس وإصدار الجرائد والصحف الإسلامية في مصر وفي باكستان.

4 - حضورهما المبكر في الرابطات والجمعيات الإسلامية: التحق المودودي في أوائل عهد شبابه «بحركة إحياء الخلافة الإسلامية» بينما جرّب حسن البنا التنظيم والتشكيل بحضوره الناشط في الجمعيات الخيرية الصوفية والرابطات الأخلاقية ومكافحة الفساد والمنكر. كان المودودي والبنا يؤمنان بالعمل الجماعي والمنظم وقد نضجت وتبلورت هذه الأفكار فيهما في عهد حداثتهما.

5 - دورهما الريادي في تأسيس التنظيمات الإسلامية: أسس حسن البنا «جمعية الإخوان المسلمين» في عام 1928 في مصر كما شكّل المودودي «الجماعة الإسلامية» في باكستان في عام 1941. وكانت أهداف وتطلعات هذين التنظيمين الإسلاميين متناسقة تمامًا وتنشدان العودة إلى الإسلام الأصيل في كافة مجالات الحياة للمسلمين.

وهي من الأهداف الأولية للإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية.

6 – التشابه في مراحل التنفيذ والعمل بين الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية: كانت بين رؤى المودودي والبنا بشأن إصلاح المجتمع والأمة الإسلامية قواسم مشتركة كثيرة وكان الاثنان يؤمنان إيمانًا راسخًا بالعمل المرحلي للإصلاح. وكان البنا والمودودي يؤمنان بأن تكوين الجماعة الإلهية والربانية، يشكل النواة الأولى للدعاة الإسلاميين ويشكل مرحلة أولى من الحركة نحو إصلاح المجتمع والأمة.

كان المودودي والبنا يؤكدان مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة باعتبارهما المرشدين للأمة وينطويان على المبادئ الأولية والحازمة. كان البنا والمودودي يريان أن إصلاح نفوس المسلمين وتهذيبها يشكل خطوة أولى نحو إصلاح أخلاق الأسرة وعاداتها ومقدمة لإصلاح المجتمع بأسره والأمة الإسلامية. ويعني ذلك أنهما اعتبرا إصلاح الفرد المسلم يشكل النواة المركزية للبرامج الإصلاحية للأمة الإسلامية والقاعدة التحتية لحركة العودة وسيادة الإسلام على المجتمع والدولة الإسلامية.

7 – التجربة القمعية والسلوك العنيف للحكومات: عانى البنا والمودودي في مختلف المراحل من نضالهما في الدعوة إلى الإسلام والدولة الإسلامية الآلام والكثير من المصائب وتعرضا من جانب الاستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي لأنواع التعامل العنيف واللاإنساني. وكان المودودي والبنا رجلين مؤمنين صامدين وأنموذجين للمجاهدين. وقد تعرض المودودي مرات عدة إلى التعذيب والسجن لمدة ثلاثة أعوام في الفترة (1955 – 1957) وصدر حكم بإعدامه عن السلطة

العلمانية.. كما تعرض البنا في سبيل نشر التعاليم الإسلامية إلى الملاحقة والاعتقال وأخيرًا ضحّى بروحه العزيزة في سبيل الإسلام واغتيل في عام 1949 من جانب مرتزقة الملك فاروق وبأمر من السفارتين البريطانية والأمريكية في القاهرة (كما ذكرت ذلك الوثائق المنشورة).

8 - الإيمان بالإجراءات المدروسة: كان المودودي والبنا لا يؤمنان مطلقًا بالاستعجال وممارسة الإجراءات غير المدروسة وغير المبرمجة، وكانا يوصيان أتباعهما بالصبر والمقاومة وعدم الاستعجال، وكانا يحذران من مغبة الاستعجال والتطرف الثوري والإجراءات غير المدروسة. ويعتبران التربية الإسلامية للأفراد بأنها تشكل الأساس لمراحل الدعوة للعودة إلى الإسلام وسيادة الشريعة الإلهية.

9 - عودة الخلافة: كان البنا والمودودي يعيشان إبان انهيار الدولة العثمانية وانحلال الخلافة العثمانية على يد كمال أتاتورك، وعملا من خلال كفاحهما واحتجاجهما الشامل دفاعًا عن الخلافة الإسلامية ويشارك الاثنان في هذه الحركات.

كان الاثنان يؤكدان ضرورة عودة الخلافة وسيادة الشرع الإلهي الغائب، ليكونا من أهداف وتطلعات أية حركة إسلامية وكانا يعتقدان اعتقادًا راسخًا بالوحدة الإسلامية باعتبارها خطوة أولى نحو عودة الخلافة الإسلامية.

أبو الأعلى المودودي وسيد قطب

في الختام ينبغي أن نشير إلى نقطة وهي أن أفكار ونظريات المودودي تركت تأثيرات مختلفة على الحركات الإسلامية وروّادها. وكانت مبادئ أفكار المودودي وأساسها تعتمد على ثلاثة أسس فكرية وعقائدية وهي:

«السيادة الإلهية والديمقراطية الإسلامية والتربية الإسلامية» فهذه القواعد الثلاث جاءت مقابل المبادئ الإدارية للحكومات المعاصرة المتمثلة «بالعرف الاجتماعي والديمقراطية والتربية على أساس الأفكار العلمانية!»

ولسيد قطب والمودودي باعتبارهما مُنظرين إسلاميين علاقات ومشتركات فكرية وعقائدية دون أن يلتقيا معًا ويقول أصدقاء المودودي: إن الأستاذ المودودي كان قد قرأ كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب في يوم واحد وكان قد قال بعد ذلك: كأني أنا الذي ألّفت هذا الكتاب!

وكان المودودي والجماعة الإسلامية في باكستان قد أعلنا احتجاجهما حيال إعدام سيد قطب في مصر وأعربا عن قلقهما وسخطهما بشكل علني وعلى شكل حملة صحفية ضد هذا الإجراء الإجرامي.

من جانبه كان سيد قطب قد تأثر بأفكار ونظريات المودودي، وكان قد نقل بعض المفردات والأسس النظرية لأفكاره من المبادئ الفكرية للمودودي.

وترك كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن «الإله- الرب- العبادة- والدين» للمودودي تأثيرات مختلفة وعميقة على الاتجاه الفكري لسيد قطب.

أهم العناصر الفكرية التي نقلها سيد قطب من المودودي هي عبارة عن:

السيادة: بمعنى أن الله المتعال هو السيد والحاكم المطلق على الكون والعالم وهو وحده المشرع والباني للشريعة لهذا العالم... وتكون القوانين الأخرى التي لم تكن جانبه باطلة وغير شرعية.

الجاهلية وتأويلها: في الحوار العقائدي والسياسي للمودودي وسيد قطب

تعني الجاهلية الانحراف عن الطريقة الإسلامية وسبيلها والحكم بقوانين غير إلهية وتشكل محاربة الجاهلية الأساس للنهضة والحركة الإسلامية وأن كل حكومة من الحكومات الموجودة في العالم الإسلامي أيًا كان نوعها يشملها هذا الحكم الإلهي.

التكفير: يرى المودودي أن خروج الفرد والمجتمع من الشريعة وارتداده عن السيادة الإلهية يعد كُفرًا! لكن الأستاذ المودودي رفض إصدار أحكام التكفير ضد الفرد أو المجتمع وكان يدعو إلى المزيد من الحيطة والدراسة لذلك. وقد نفذ مفهوم تكفير الفرد والمجتمع في أدبيات ونظريات سيد قطب عن طريق مطالعة آثار المودودي ونظرًا للوضع الذي كان سائدًا في سجون النظام الناصري وحالات التعذيب الوحشي واللا إنساني الذي كان يمارس ضد الشباب الإخوان وحتى النساء المسلمات وضد سيد قطب نفسه، قد أدى إلى قيام سيد قطب بتكفير الحكم الموجود في مصر ووجوب الانتفاض ضده. وأخيرًا وبعد نشره كتاب «معالم في الطريق» أعدم سيد قطب صاحب تفسير في ظلال القرآن في 30 مجلدًا مع اثنين من قادة الإخوان في القاهرة.

وبعد موت المودودي وإعدام سيد قطب، انتشر مفهوم التكفير والكفاح ضد الطاغوت والعمل «بفرضية الجهاد» في أدبيات البعض من الشباب المسلم، ولكن بما أنهم لم يمتلكوا قوة التفسير والاجتهاد في هذا الجانب، قد دخلوا وللأسف في وادي التطرف وكفّروا بذلك كافة الأفراد والمجتمع المسلم وقد شكل ذلك بداية للانحرافات الشديدة التي تعرضت لها بعض المجموعات الإسلامية في العالم العربي وشبه القارة الهندية منزلين بإجراءاتهم اللاإنسانية ودون وعي ومن منطلق جهلهم ضربات موجعة بالحركة

الإسلامية. إننا نشهد وللأسف النماذج الوحشية والبربرية في ارتكاب المجازر بحق المسلمين من جانب العناصر التكفيرية. كل يوم في العراق وأفغانستان وباكستان.

تراث البنا والإخوان

زار حسن البنا في خطوة منه لتوعية الشعب المصري في فترة قصيرة مئات المدن والأرياف المصرية وقام بتنظيم الأفراد وإلقاء الخطب فيهم وتبليغ الديانة الإسلامية ومعارفها.

وقد طبعت الكلمات التي كان يلقيها في الأجهزة الإعلامية والصحافة المصرية آنذاك.

وتعتبر كتابات وكلمات حسن البنا تراثًا زاخرًا بالقيم وقيمًا وكمرجع فكري للإخوان المسلمين.

ومن بينها مجموعة «رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» والذي مازال يشكل مصدرًا فكريًا واجتماعيًا وسياسيًا لجماعة الإخوان المسلمين.

■ ■ ■

كانت هذه هي الدراسة الكاملة التي وضعها هادي خسرو شاهي عن حسن البنا، وقد استمد معظمها من كتابه الذي كتبه عن البنا ثم من كتاب ريتشارد ميشيل، وبغض النظر عن بعض الأخطاء التاريخية التي تناولها خسرو في دراسته مثل الإشارة إلى أن البنا كان مدرسًا للغة العربية في حين أنه كان مدرسًا للخط العربي إذ إن مؤهله المتوسط لم يؤهله إلا لتدريس الخط فقط،

ثم بالغ خسرو في بحثه في دور البنا في حرب فلسطين حتى إنه جعله البطل الأكبر لهذه الحرب وأن المؤامرات انعقدت للخلاص من البنا ثأرًا لمواقف جماعته البطولية في الحرب ويقول خسرو في هذا الصدد عبارات غريبة لم يقلها أحد من قبل هي: أن البنا (لم يألُ جهدًا نحو تعبئة المسلمين والمجاهدين العرب في هذا الجانب وأخيرًا ضحَّى بنفسه في هذا السبيل المقدس) جعل خسرو من البنا ليس زعيمًا للإخوان فحسب ولكن زعيمًا لكل المجاهين العرب وأعطاه نيشانًا تاريخيًّا لأنه على حد زعمه هو الذي قام (بتعبئة المسلمين والمجاهدين العرب) للجهاد في فلسطين ضد اليهود!! وكأن الأمة كلها لم تكن تعرف إلا حسن البنا أو كأنها سلمته قيادها، هذه المبالغة الممجوجة لا يعرفها إلا من كانت لديه عقلية جبلت على المبالغة، وهذا هو نُهج الشيعة الذين تعودوا تقديسْ أئمتهم وجعلهم في منزلة أعلى من باقي البشر، وللعلم فإن الكتائب التي أرسلها البنا إلى فلسطين لم تذهب إلا لغزة وخان يونس ولم تدخل إلى العمق الذي كانت الحرب فيه على أشدها، إذ إن الذي قاتل قتالا حقيقيًّا من المتطوعين هم كتائب «أحمد حسين» صاحب جمعية مصر الفتاة، ولكن دعايات الإخوان أعطت لجماعتهم الدور الريادي على غير الحقيقة!

وفي هذه الدراسة أيضًا أخطاء كثيرة متعلقة بقسم الأخوات المسلمات وآراء البنا بخصوص المرأة إذ إن البنا لم يعط المرأة حقًّا ولا مكانة، بل إن نظرته لها التي كتبها في كثير من مقالاته هي نفس النظرة التقليدية التي تبناها العلماء في عصره، فلم يعرف عنه تجديدًا أو فقهًا في هذا المجال أو في غيره من المجالات.

إلا أن اللافت أن الشيعة من خلال هادي خسرو شاهي وصفوا البنا بأنه

«النـور» فقـال عن مولده «مولد النـور» وكأن إعطاء صكـوك النورانية هو من الأمـور المعتادة عند الشـيعة، ولعلنا نلحظ أن وصف البنا بـ «النور» هو نفسـه ذات الوصف الذي أعطاه له القيادي الإخواني السوري «مصطفى السباعي»، إذ وصف البنا بـ «النور الذي ظل في السماء يغمر الأرض ولا يخالط التراب!».

وعند حديث خسرو عن التقريب بين السـنة والشـيعة ظهر لنا سبب هذا الاحتفاء غير العادي! كان السبب خافيًا لم يرد في كتابات الإخوان، فالمعروف أن الإخوان يقولون: إن حسن البنا ساهم فقط في إنشاء دار التقريب، ولكن الـذي أفتـى بجواز التعبـد لله على مذهـب الإمامية الاثنا عشرية هو الشـيخ محمـود شـلتوت شيخ الأزهر بعـد وفاة حسـن البنـا بعدة سـنوات، ولكن خسرو يكشـف الغطاء عن شيء آخر، كان حسـن البنا هـو أول من اعترف بالمذهب الإمامي الشـيعي، كاد خسرو يقول في بحثه «إن البنا اعتنق المذهب الإمامـي الاثنا عشري» ولكـن خسرو اكتفى فقط بمسـألة الاعتراف! فقال (وقد اعترف الشيخ بالمذهب الإمامي الشيعي!).

وقـد أورد خسرو أسـباب إيمان البنا بهذا المذهب الشـيعي فقـال إنه آمن بـه (نظـرًا للحقائـق والـدور القيـم للشـيعة في اعتـلاء الإسـلام والحضارة الإسلامية!) آمن حسن البنا بالشيعة ومذهبهم - كما قال خسرو - لأن هناك حقائق وبراهين تثبت أن الشيعة ساعدوا في اعتلاء الإسلام! كان هذا هو ما وقـر في عقيـدة البنا، بل إن هذا التأثـر وهذه العقيدة لا تمكث في نفسـية البنا لا تتحـرك ولكنهـا كانت فاعلة ومؤثـرة لدرجة أن عددًا من شـيوخ الأزهر تأثـروا بـما اعتنقه البنـا، ومن أجل البنا، والبنا فقط، أصدر الشـيخ شـلتوت فتواه الشهيرة!

ومن أخطر ما أورده خسرو شاهي في دراسته هو ما ذهب إليه من أن البنا ساهم، لا في التقريب، ولكن في نشر المذهب الشيعي في مصر، وقام بدور في ذلك بين الحجيج المصريين البسطاء، وأظن أن التاريخ سيقف كثيرًا أمام عبارات خسرو التي رواها عن آية الله السيد رضا الصدر[1] - كانت هذه العبارات كاشفة عن أن البنا كان حريصًا غاية ما يكون الحرص على نشر المذهب الشيعي في مصر، وتخلص القصة التي رواها الصدر ونقلها عنه خسرو في أنه (احتج بعض المصريين في أحد المراسم التي أقيمت في موسم الحج - التي كان قد حضرها حسن البنا - من منطلق عدم معرفتهم لحقيقة التشيع، على الشيعة المشاركين في الحج... وعندما عرف المرحوم حسن البنا بالأمر حضر في مركز تجمع الحجاج المصريين وألقى كلمة تنويرية محذِّرًا فيها من مغبة هذا الشيء وقال: لا يحق لأي فرد أن يهاجم المسلمين الآخرين، وأضاف بعد ذلك في كلمته قائلًا: (إن الفرق الموجود بين بعض أهل السنة وبين الشيعة هو أن الشيعة يحبون أهل بيت الرسول أكثر من غيرهم وهذا الشيء أداء لهم للدين، فينبغي أن يشكل هؤلاء القدوة لنا نحن المصريين الذين لنا ولاء لأهل البيت).

هوَّن البنا من الفرق بين الشيعة والسنة، بل جعله أمرا مميزًا خصَّ الله به الشيعة، فهم فقط يحبون آل البيت أكثر من حب السنة لآل البيت! وبما أننا في مصر نحب آل البيت فلا تثريب علينا إن اتبعناهم، فهم قدوة لنا، وهم أحبوا آل البيت؛ لأن هذا كان أداء لهم للدين!

---

(1) هو من العلماء المعروفين في الحوزة العلمية في «قم» كما أنه هو الأخ الأكبر للإمام موسى الصدر.

كانت هذه دعوة صريحة لا لبس فيها ولا غموض ولا تمويه ولا تقية، الشيعة قدوة لكم أيها المصريون البسطاء فاتبعوهم يحببكم الله لأن هذا أداء للدين، هل هناك أكثر من ذلك حتى يحتفي الشيعة بحسن البنا، وحتى يطلق الخميني على نفسه لقب المرشد إيمانًا بالدور الذي لعبه البنا في فتح الطريق أمام الشيعة في مصر؟

ويقول خسرو في دراسته وهو يعترف بجميل البنا نحو الشيعة (وقد أرسى البنا علاقات طيبة مع علماء الشيعة، وكان يعتبر من جملة الطلائع في حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكان ضمن المؤسسين الأوائل لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة إلى جانب العلامة الشيخ محمد تقي القمي).

لم يكن البنا إذن مؤمنًا فقط بالشيعة، ولم ينقل إيمانه إلى البسطاء فقط من المصريين ولكنه نقل ما آمن به لرجال الأزهر القريبين منه، ثم أقام علاقات طيبة مع رجال الدين من الشيعة.

كان هذا هو رأي البنا إذن في الشيعة، وهذا هو سبب حب الشيعة للبنا، اقترب البنا من الشيعة اقترابًا كبيرًا، ولكن هذا الاقتراب أثار غضب علماء السنة على البنا، حتى أقرب المقربين من البنا اتهموه بخيانة عقيدته مقابل دراهم معدودة، ليس هذا كلامي ولكنه كلام أساتذة البنا المقربين.

الفصل الثامن

رفض الرافضة

كانت الرغبة في المعرفة تصاحب سيدنا آدم عليه السلام منذ أن خلقه الله، بث الله فيه هذه الرغبة فكانت هي الرغبة السابقة على «رغبة التكاثر» فحين بث الله الروح في آدم نظر غالبًا حوله وهو يتعجب من نفسه وممن حوله، وما بين ما، ومن، وكيف، ومتى، كانت اللحظات الأولى لآدم في الحياة، تاق آدم شوقًا للمعرفة، هذه هي أولى خطواته في الحياة ومع ذلك فقد أعياه التفكير في الحصول على إجابة لما تردد في ذهنه من أسئلة، فظل تائهًا في دروب المعرفة لا يحير جوابًا، إلى أن بث الله فيه تلك المعرفة التي تشوق إليها، فعلَّمه الأسماء كلها، أعطاه المعارف، وليست الأسماء هنا هي تعريفات للأشياء والموجودات والمحسوسات، بل إنها تتخطى هذا بكثير، فعِلْم الأسماء يشمل طبيعة الأشياء ونوعها وكنهها وفائدتها ومضارها، وحين وقف آدم أمام سر «الشجرة المحرمة» لم يجد للسر جوابًا، فالله سبحانه حرَّم عليه الأكل من هذه الشجرة إلا أنه لم يعطه، لحكمة عنده، سر هذه الشجرة وسبب التحريم، كما لم ينبئه بفحواها، لذلك جهل آدم طبيعة الشجرة وسبب النهي عن الأكل منها، ولكن الرغبة في المعرفة تتحرق شوقًا في كيانه كله،

والشجرة أمامه، والنهي عالق في ضميره، أيتقدم من الشجرة ليأكل منها فيأثم ويعرف؟ أم يقتل هذه الرغبة في داخله فيثاب ويجهل؟ ظلت الرغبة في المعرفة تتلمظ أمامه وكأنها تقوده رغمًا عنه إلى الشجرة، ظنَّ الأب الأول للبشرية أن هذه هي شجرة الخلد والمُلك الذي لا يبلى، ولم يفطن إلى أنه في الجنة خالد، وهو ملك في مملكته! لم يكن آدم عليه السلام عارفًا أنه إذا أكل من هذه الشجرة فسيفقد الحالة النورانية التي تؤهله للبقاء في الجنة، فهذه هي شجرة الدنيا، فإذا أكلها حق عليه الهبوط إلى الحياة الدنيا، حجب الله عنه معرفة سر هذه الشجرة، فجهل بها وبأثر الأكل منها، ومن بعد ظل الجهل والنقص في المعرفة أمرًا لازمًا للإنسان، فكلنا يجهل، وكلنا يسعى لمعرفة ما يجهل ولكن بدرجات، وحين هبط آدم عليه السلام إلى الدنيا، كانت المعرفة التي بثها الله فيه هي السلاح الذي واجه به الحياة فاستمر فيها وظللنا بها، وكان الجهل والنقص الذي جبلنا عليه هو الدافع للمعرفة، فإذا كانت غريزة البقاء هي التي ستبقينا في الحياة الدنيا إلى قيام الساعة، فإن غريزة المعرفة كانت هي أول غريزة فطر عليها الإنسان وبها كان تعمير الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ من الآية 61 سورة هود، ومنذ أن وضع آدم قدمه على الأرض أدرك أن المعرفة بقاء.

■ ■ ■

هل كل من كان تواقًا للمعرفة يمر به ما مر بي؟ هل السعي للمعرفة إثم كبير؟ بعضنا يستحضر من ضميره تلك النغزة التي نهشت قلب سيدنا آدم

وهو يأكل من الشجرة المحرمة ليعرف، لاشك أنه اقترب من الشجرة وقلبه يرتجف، فهذه أول مرة سيعصي الله فيها، ولكن الرغبة في المعرفة كانت أكبر من احتماله فغوى، هل المعرفة غواية؟ لا ليست المعرفة غواية، ولكن للمعرفة غواية، إلا أن البعض يعتبر أن المعرفة من غير طريقه هي «غواية» يستدعي من الذكريات الكامنة في النفس الإنسانية لحظة «غواية» آدم، فيسقطها على المعرفة ذاتها، وقد أوقف هذا الأمر عقلي عدة مرات حينما كنت في الإخوان، كان أول ما أوقفني هو النهي الدائم عن السؤال، مع أن السؤال هو طريق المعرفة!! فإذا كان الأخ لحوحًا ومصرًّا على المعرفة فإنه يُقابل بآية قرآنية يضعونها أمامه وكأنها نهي عن المعرفة، إي وربي، يتحول الدين عند البعض إلى «كابح للمعرفة» من خلال آية كريمة هي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ لم يفهموها أو بالأحرى قاموا باستخدامها ليغلقوا طريق المعرفة أمام الأتباع، فمن عاش في الظلام ردحًا كره نور المعرفة قطعًا، ولكنني لم أكن ألتفت للتحذيرات والتنبيهات، كنت أخترق الحواجز والتعليمات وآخذ بعضي وأذهب إلى مقر الجماعة، أو بيت المرشد، لأسأل وأعرف وأعقب، وكان هذا يقدح عند بعضهم في إخوانيتي.

أذكر أنني تقابلت مع الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل في الربع الأول من عام 2013 واستمر اللقاء ما يقرب من الساعتين، وسألني: كيف يتحول الأخ في الإخوان إلى أداة طيعة في يد قياداته؟! ثم قال متعجبًا: هذا شيء مذهل!

فقلت له: هناك قاعدة في الإخوان تسير عليها الجماعة هي «إذا دخلت الجماعة فاخلع نعلك وعقلك» ثم يرددون دائمًا مقولة سيدنا علي بن أبي طالب «إن الدين لا يؤخذ بالعقل» وبهاتين يتم تدريب الأفراد وتطويعهم، ولكنني لم أخلع عقلي أبدًا وإن كان قلبي قد طغى على عقلي بعض فترات، ولكن للطغيان زمن وجولة، وللعقل صيرورة ودولة، وقد صرت إلى عقلي حين انتهى طغيان مشاعري.

عندما وقعت تحت يدي الورقة التي عثرت عليها في مجلة النذير عام 1992 كانت بمثابة «فاتح شهية» للمعرفة، فقد وجدتني بعد أن قرأتها مشغوفًا بمعرفة العلاقة التي ربطت بين الإخوان والشيعة، حتى أصبح هذا «الشغف» مصدر أرق لي في حياتي، فكان أن احتفظت بالورقة «الكنز» وقال لي نهمي للمعرفة هل من مزيد، ومن أجل المزيد ظللت في ذات الشهر أشد الرحال إلى مقر الجماعة بشارع سوق التوفيقية بمنطقة وسط البلد مرة كل أسبوع، لعلي أقابل أحد أفراد الرعيل الأول للجماعة فأسأله وأستحث ذاكرته، وفي ذات الوقت وجدتها فرصة كي أبحث في الأعداد القديمة لإصدارات الإخوان الصحفية التي كانت متناثرة في أرجاء المكان بلا عناية ولا اهتمام، وذات مرة لفت نظري في ركن ملاصق للمكتبة بعض «أفرخ أوراق» متنوعة الأحجام موضوعة في مكانها بلا ترتيب، وحين سألت عنها مسئول المقر قال لي: إنها أوراق قديمة خاصة بمجلة الدعوة التي كانت لسان حال الجماعة والتي توقفت عن الإصدار منذ سنوات.

فعدت أسأله: وعلى أي شيء تحتوي؟

قال بعدم اكتراث: بعض الأفرخ كبيرة الحجم بها «الرسم اليدوي» لصفحات المجلة، والأوراق الصغيرة فيها المقالات والتحقيقات لكثير من الأعداد، بعض هذه الأوراق تم إعدامها لأنها لا تمثل قيمة وكانت عبئًا على المكان، أما هذه الأوراق فقد طلب الأستاذ جابر رزق، رحمه الله، الاحتفاظ بها حتى يراجعها، إلا أنه مرض وسافر للخارج ثم مات إلى رحمة الله[1] ومن ساعتها ظلت هذه الأوراق في مكانها لم يراجعها أحد.

استمعت إلى الرجل ثم حملت هذه الأوراق وجلست إلى مائدة في المكان وأخذت أتصفح الأوراق فوجدت فيها كنزًا لا ينبغي تركه أبدًا، كان هذا الكنز بمثابة الشجرة المحرمة لي.

- هل أتركه أم آكل منه؟
- لا يوجد نهي عن تصفح هذه الأوراق.
- نعم ولكن يوجد نهي عن حملها وأخذها ثم امتلاكها فهي مملوكة للجماعة.
- ولكنها إذا ظلت هنا ستبيد ولن يشعر بها أحد.
- وليكن ولكنها محرمة عليك.
- إنها معرفة، والمعرفة ملك لمن يحصل عليها ، فهي كالماء والهواء.
- وليكن.

---

(1) الأستاذ جابر رزق كان من قيادات الإخوان المسلمين وكان من الشخصيات المقربة من المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني، وكان يشغل وظيفة مدير تحرير مجلة الدعوة لسان حال الإخوان وظل في موقعه هذا إلى أن تم إغلاق المجلة رسميًا في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، وقد توفاه الله عام 1989 بعد رحلة مرض.

- ولكن لو أذن لي أحدهم أكون قد تجاوزت النهي.
- إذن ابحث عمن يأذن لك.

وفي هـذا اليوم لم يأت أحد من كبار الإخـوان إلى المقر، فحملت أفكاري وانصرفت.

وفي اليوم التالي مباشرة كنت هناك، وكان من حظي أن تقابلت مع الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح الذي كان قد حصل على عضوية مكتب الإرشاد قبلها بسنوات قليلة وكان من أنشط أعضاء مكتب الإرشاد، وفي ذات الوقت كان وقتهـا يتولى مسـئولية قسـم المهنيين في الجماعـة، لم أتحدث معه كثـيرًا إذ كان مشـغولًا بمقابلـة بعض الضيـوف من العـرب، فانتهزت الفرصـة وأخبرته عـن الأوراق القديمة المهملة الملقاة بالجانب الملاصـق للمكتبة، ونقلت إليه رغبتـي في إجراء بحث في هذه الأوراق لعلي أجد فيها شـيئًا له قيمته، فوافق سريعًا دون تعقيب وكأنه يقول لي: هي عندك أكثر فائدة من هنا.

وحينـما انفـردت بهـذه الأوراق في بيتي كنـت مثل «علي بابـا» الذي وقع في الذهـول حينما رأى كنـز المغارة، وهأنذا جالس عـلى مكتبي أمام جزء من كنز المغارة والذهول قد أخذ بلبي وملك مجامع قلبي، وأنا المتشـوق للمعرفة ألتهم السـطور بعيني، أخذت عيني تتمـلى الأوراق كأنني أنظر في وجه أحد الأجـداد عـاد من زمن سـحيق ليخـبرني عن دنيـا انتهى زمنها ولكـن أثرها ما زال باقيًا، اسـتراح قلبـي لهذه الأوراق الصفراء التي شـممت فيها رائحة التاريخ الذكية، وكأن للقديم عبقه وسحره!

كانت الورقة الكبيرة بها خريطة يدوية عنوانها «إنشاء جمعية السنة والشيعة» وتحتها عبارة «المقترح اسمها دار التقريب».

ثم بعض الخطوط الطولية والعرضية تحتها بعض البيانات، وفي الجانب الأيمن من الورقة توجد العبارات الآتية:

حضرة الأستاذ المفضال حسن أفندي البنا.

السلام عليكم ورحمة الله

رأيت أن يكون هذا تصوري لجمعية التقريب، ولك الحق في أن تعدل ما تشاء، ولكن لي رأي أرجو أن نعالجه معًا هو وجود علماء سنة يحاربون الجعفرية ويتقولون عليها بغير علم، مثل الأستاذ محب الخطيب والشيخ طه الساكت والشيخ السبكي، وكلي أمل في قدرة فضيلتك على ضمهم للجمعية فإذا كانوا معنا سقطت حجتهم في التقول علينا.

المخلص الأمين

السيد محمد القمي

وبجوار التوقيع ختم الشيخ القمي.

لفت نظري في هذه الورقة «الوثيقة» أن القمي قال في خطابه للبنا وهو بصدد الاقتراح الذي أبداه لوقف الحملة ضد الشيعة عبارة «في التقول علينا» والمعنى السابق يفيد أن هناك هجومًا من علماء السنة على الجعفرية، ثم يجمع القمي نفسه مع البنا في كلمة «علينا» ورغم أن هذه العبارة تفيد من ظاهرها أن هناك من يتقول على دار التقريب، فإنها أيضًا تفيد أن هناك من يتقول

على «الجعفرية» فلماذا جمع القمي نفسه مع البنا في علينا وهو يتحدث عن الشيعة!! إلا أننا سنأخذ بظاهر النص الوارد في هذه الوثيقة النادرة وسنفتح الباب الذي تحدث عنه القمي، باب التقول، فما الذي كان يقصده القمي هنا بالتقول؟

■ ■ ■

كان لا بد وأن أعود إلى الكتابات التي سطرها الشيوخ الذين «تقولوا» ماذا كتب الشيخ محب الدين الخطيب والذي كان أستاذًا للبنا ومقرَّبًا منه، بل إن البنا في مذكراته أشاد بأستاذه الخطيب وبفضله عليه، كان الشيخ محب الدين الخطيب[1] ومعه الشيخ رشيد رضا[2] هما السند الذي استند إليه البنا وهو يخطو بجماعته خطواتها الأولى، فكيف يتقول محب الدين الخطيب على البنا والقمي؟!

وحين عرفت أن محب الدين الخطيب ألَّف كتابًا وقت إنشاء دار التقريب تحت عنوان «الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثنا عشرية»، أخذت أبحث عنه في المكتبات ولدى الأصدقاء إلا أنني

---

(1) هو أحد علماء السنة الكبار، ولد في دمشق عام 1886 وجاء إلى مصر في الربيع الأول من القرن العشرين وساهم في إنشاء جمعية الشبان المسلمين وأصدر مجلة «الزهراء» واتصل به حسن البنا وصاحبه وأصدر مع البنا مجلة (الإخوان المسلمون) وله العديد من المؤلفات كما قام بتحقيق عدة مخطوطات وتوفي عام 1969.

(2) الشيخ محمد رشيد رضا هو أحد أعلام المسلمين وهو لبناني استقرت إقامته بمصر وله تفسير للقرآن الكريم «المنار» - وكان تلميذًا للشيخ محمد عبده وأصدر العديد من المؤلفات من أشهرها كتاب «السنة والشيعة» وكان البنا يعتبره أستاذه الأكبر.

للأسف لم أعثر له على أثر حتى وجدته في غضون عام 2004 في مكتبة أحد أساتذتي الكبار وهو الأستاذ أحمد إبراهيم أبو غالي فتلقفته منه وقرأته بعناية فائقة حتى إنني كدت أن أستنطق السطور لتشي لي بما لم يبح به الشيخ محب الدين الخطيب.

فاجأتني بعض العبارات في الكتاب، ودعتني إلى إعادة التفكير في العلاقة التي كانت تربط البنا بالشيخ محب الدين الخطيب، هل بالفعل استمرت العلاقة بين الطرفين جيدة إلى أن مات البنا؟! صحيح أن محب الدين الخطيب رثى البنا بعبارات طيبة إلا أن ما يقال وقت الوفاة وفي الخطوب الجليلة لا يقاس عليه، ولكن المتتبع للعامين الآخرين من حياة البنا وخاصة في الفترة التي بدأ البنا فيها تأسيس دار التقريب مع الشيخ القمي يجد أن العلاقة بينه ومحب الخطيب كانت فاترة!

ولكن ما هي العبارات التي كتبها محب الدين الخطيب في كتابه واستوقفتني؟ قال:

(فقد لوحظ أنه أنشئت لدعوة التقريب دار في مصر ينفق عليها من الميزانية الرسمية لدولة شيعية، الدولة الشيعية الكريمة آثرتنا بهذه المكرمة فاختصتنا بهذا السخاء الرسمي وضنت بمثله على نفسها وعلى أبناء مذهبها..).

لم نعهد على الشيخ محب الدين الخطيب الحديث بسخرية، ولكنه هنا في عباراته هذه يسخر من تلك المفارقة العجيبة، مفارقة أن تنفق إيران

بسخاء على إنشاء دار للتقريب في مصر ولا تُنشئ مثلها في إيران! ثم إن الشيخ يلوح هنا بمسألة الإنفاق بسخاء، اللذان قاما بالإنشاء هما الشيخ البنا والشيخ القمي، والقمي جاء من إيران لهذا الهدف، وهو الذي كان يتلقى المال من إيران، وبذلك يكون الشيخ الخطيب وخز تلميذه البنا وخزة موجعة تتعلق بالمال الذي جاء من إيران وكيف أنه تم توزيعه بسخاء!

وأشار الشيخ محب الدين الخطيب في هامش الصفحة الثامنة أن نهج الإنفاق بسخاء هو نهج الشيعة وهو الذي ساعدهم على نشر المذهب الشيعي في العراق! فهل التلميح هنا وصل إلى درجة قريبة من الإفصاح؟

في باقي الكتاب استعرض محب الدين الخطيب عقائد الشيعة وأظهر مدى الخلل فيها والزيغ الذي اعتورها، إلا أنه أيضًا طرح قضية منطقية، هي كيف يكون الاقتراب من طرف واحد؟ أليس هذا الأمر يثير الشك والريبة؟ لماذا لم تأخذ الشيعة خطوة للاقتراب من السنة، أو بالأحرى لماذا نقترب نحن من الشيعة وهم على موقفهم العقائدي لا يغادرونه قيد أنملة؟ هذه أسئلة طرحها محب الدين الخطيب وأجاب عنها في كتابه بعد أن وضع جدولًا يوضح فيه الفروق بين الشيعة والسنة والتي من خلالها أيقن الشيخ أنه يستحيل التوفيق بينهما.

ولكن هل اكتفى الأستاذ محب الدين الخطيب بهذا الكتاب؟ لم يقف الخطيب ساكتًا وهو يرى البنا يقطع شوطًا كبيرًا في نشر المذهب الشيعي في

مـصر تحت غطاء التقريب، لذلـك كتب مقالًا يعتبر من أهم المقالات في هذا الصدد ونشره في مجلته الشهيرة «الفتح»[1] بالعدد 862، وقد أغلظ الأستاذ محب الديـن الخطيب للبنـا والإخـوان في هـذه المقالـة، واتهمهم بالتسيب والميوعة تحت مسـمى «إزالة الفوارق» وأقام عليهم الحجة ولأن حسـن البنا تـألم مـن هذه المقالة، ولأن الإخـوان فوجئوا بها فقد أوقفوا آلـة التاريخ التي لديهم فلم ينقلوها ولم يؤرخوا لها في كتبهم، على حد علمي، وهذه هي المقالة بالكامل.

كلام صريح وكلام مبهم حول خرافة التقريب بين المذاهب

وجـه أحـد المسـلمين - بل أحد الإخـوان المسـلمين - في المحلة الكبرى سـؤالًا إلى رصيفتنا مجلة الإخوان المسـلمين الغراء الأسـبوعية يقول لها فيه: «نرجو إيضاح موقف الإخوان من مذهب التقريب بين المذاهب الإسـلامية بعد أن أعلن عنه الأسـتاذ تقي القمي محبذًا ومتفائلًا بانضمام فضيلة المرشـد العام، ثم رد عليه الأسـتاذ محب الدين الخطيب ناقدًا»فأجابت مجلة الإخوان المسلمين على ذلك في العدد 217 من سنتها السادسة بما نصه: «يرى الأستاذ محب الدين الخطيب أن التقريـب بين المذاهـب مستحيل، لأنها مذاهب مقررة وموضوعـة عـلى أسـس ثابتـة، والتقريب بينهـا يتطلب نقض هذه الأسـس وإنشـاء مذهـب ثالـث، ويرى أن الممكن هو العمل عـلى التعاون في المصالح

(1) مجلـة الفتـح من الإصدارات التي أصدرها محب الدين الخطيب، بدأ في إصدارها من مصر عام 1926 بالاشـتراك مع كوكبة كبيرة من العلماء والمثقفين منهم أحمد تيمور باشـا والشـيخ محمد الخضر حسـين وتوقفت المجلة عن الإصدار عام 1948.

المشتركة، ويرى الإخوان أنه يجب العمل على إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن، وكلما قلت الاختلافات أمكن التعاون والتوفيق».

وبما أن المسألة مسألة دين، والكلام في الدين يجب أن يكون صريحًا وواضحًا، فلابد لنا أن نكون صرحاء واضحين في تفهم الغرض المقصود من «العمل على إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن» ومبدأ أن إمكان التعاون متوقف على الإقلال من الاختلافات «وكلما قلت الاختلافات أمكن التعاون والتوفيق».

إن المذهب الذي يتبعه تقي قمي هو المذهب الشيعي، والمذهب الشيعي يختلف عن المذهب الذي يتبعه الإخوان المسلمون والشيخ شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ الزهاوي في أمرين: أحدهما يتناول أصول الدين، والآخر يتناول فروع الدين. فنحن، معشر أهل السنة والجماعة، نرجع في أصول الدين إلى ما جاءنا به نبينا محمد ﷺ في الكتاب الذي أوحي إليه من الله، وفي السنة التي لا ينطق فيها عن الهوى، وإنما هي من تعليم الله له ووحيه، ومضت سنة أهل السنة في فهم كتاب الله أن يتحروا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم من النبي ﷺ، وما فهمه التابعون من الصحابة، وما فهمه أئمتنا الأربعة وإخوانهم الذين في طبقتهم عن شيوخهم من التابعين أو التابعين لهم بإحسان. والعقائد الإسلامية، وأصول الدين قد تلقاهما أهل السنة عن النبي ﷺ من هذا الطريق: طريق التابعين عن شيوخهم من الصحابة الذين هم تلاميذ الهادي الأعظم. فكل أصل في الإسلام أو عقدية مستمدة من كتاب الله بمفهومه الذي فهمه أصحاب رسول الله، أو من سنة رسول الله، منقولة بلسان أصحابه.

والمذهب الشيعي مبني على بغض أصحاب رسول الله وشتمهم ولعنهم، يستثنون منهم عددًا قليلًا جدًّا، وقد بلغ بهم الحقد على أكمل خلق الله بعد رسول الله أن كذبوا على سلمان الفارسي فادعوا عليه في كتاب الوافي (2/ 45) وهو من أمهات كتبهم الشرعية المعتمدة أن علي بن أبي طالب قال: «إن أول من بايع أبا بكر هو إبليس»! وفيه (2/ 47) أن جعفرًا الصادق قال في آية ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر. ويقول شيخهم الكذوب أبو جعفر الكليني في كتابه (الكافي) 3/ 325 عن آية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ...﴾ نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان.

هذا قول أئمتهم الأولين في صفوة البشر من أصحاب رسول الله ﷺ، أما علماؤهم المتأخرون؛ فهذا علَّامتهم المجتهد محمد مهدي السبزواري يقول في كتاب تاريخه 4 ربيع الآخر سنة 1347 بعث به إلى السيد إبراهيم الراوي من علماء بغداد: «قلتم أدام الله ظلكم: وإذا صدق قول الشيعة في ارتداد الصحابة كلهم الذين يتجاوز عددهم مائة ألف إلا خمسة أو ستة أو سبعة (والصواب ثلاثة) فلمَ يقاتل أبو بكر أهل الردة ويردهم إلى الإسلام؟ وكفره كفر حكمي لا كفر واقعي كعبادة الوثن والصنم. وقلتم وفقنا الله وإياكم: وهذا النبي مدة ثلاث وعشرين سنة يصحبه أصحاب كفار، ومدة طويلة أيضًا تصحبه زوجة كافرة لا يعلمهم... أقول: لم يعتقد الشيعة كفر الصحابة وعائشة في حياة النبي، وإنما قالوا إنهم ارتدوا بعد النبي».

فإذا كان هذا اعتقاد الشيعة في الصحابة فبديهي أنهم ينكرون فهم الصحابة لأصول الدين، ويرفضون أحاديث رسول الله ﷺ التي رواها هؤلاء الأصحاب، ودونها أقطاب المحدثين من أهل السنة، وفي طليعتهم الإمامان العظيمان البخاري ومسلم وسائر أصحاب الكتب الستة ومن في منزلتهم.

وتمتاز الأحاديث التي رواها أمثال هؤلاء بأن رواتها معروفون بالصدق والعلم والأمانة والتقوى وسائر ما تستلزمه عدالتهم في أخبارهم، وإن تفاوتوا في ذلك كما هو المشاهد في خيار الناس في كل زمان ومكان. وإذا توافرت هذه الصفات الطيبة في شيعي أو زيدي أو إباضي أو معتزلي فإنهم يقبلون روايته في كل شيء إلا فيما يتعلق بالمعاني التي انفردت بها نحلتهم فإنهم يجتنبونها من هذه الناحية ويقبلون سائر ما يروونه. مثال ذلك: الحسن ابن صالح بن حي الثوري الهمداني وأخوه علي كانا من الشيعة الزيدية وكانا عونًا لكل من يقوم من آل البيت بحركة أو ثورة، وفي بيتهما اختبأ عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بعد واقعة باخمرى التي قُتل فيها إبراهيم بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط في خلافة أبي جعفر المنصور. وكان سفيان الثوري ينكر عليهما تشيعهما وافتراقهما عن الجماعة حتى في الجمعة والجهاد. ولكنهما لصلاحهما وصدقهما وتقواهما يقبل أهل السنة ما يرويانه على القاعدة التي ذكرناها، أما الشيعة الإثنا عشرية فيتبرءون منهما ويذمونهما في كتبهم المعتمدة؛ لأنهما من الشيعة الزيدية وليسا من الشيعة الإثنا عشرية.

وقد حصر الشيعة الإثنا عشرية تشيعهم باثني عشر رجلًا من أهل البيت لا يعترفـون بغيرهم لا من الصحابـة ولا من آل البيت، فكما لا يعترفون بأبي بكـر وعمر وأم المؤمنين عائشـة وأم المؤمنين حفصـة لا يعترفون بالإمام زيد ولا بغـيره من أعـلام آل البيت. ولا يكتفون بذلك، بل يعتقدون أنَّ العصمة بهـؤلاء الاثني عشر، ويعتبرونهم مصدر التشريـع، وأول من اخترع لهم هذه العقيدة الضالة خبيث يسـميه المسـلمون (شـيطان الطاق) وتسـميه الشـيعة (مؤمـن آل محمـد) واسـمه محمد بـن علي بن النعـمان الأحول. دخـل الإمام زيـد بن علي (الذي يرجع إليه مذهـب الزيدية) على ابن أخيه جعفر الصادق ذات يـوم فوجد عنده هذا الملعون شـيطان الطـاق، وكان قد بدأ يذيع عقيدة العصمـة لأناس مخصوصين مـن آل البيت وحصر الإمامـة والتشريع فيهم، فقـال لـه الإمام زيد: يا محمد بن علي أنت تزعم أن في آل محمد إمامًا مفترض الطاعة معروفًا بعينه؟ فأجابه: نعم، أبوك أحدهم. قال له الإمام زيد: ويحك، وما يمنعه أن يقول لي؟ فوالله لقد كان يؤتى بالطعام الحار فيقعدني على فخذه ويتنـاول البضعـة فيبردها ثم يلقمنيها، أفتراه كان يشـفق عليَّ من حر الطعام ولا يشـفق علي من حر النار؟ فأجابه شـيطان الطاق: كان يكره أن يقول لك فتكفـر فيجـب عليك مـن الله الوعيـد، ولا يكون لـه فيك شـفاعة، فتركك مرجئًا لله فيك المسـألة وله فيك الشفاعة، ومن ذلك اليوم قرر الشيعة عقيدة العصمـة بعد النبي ﷺ لأشـخاص عينوهم وجعلوهم مصـدر تشريع، ولو اقتـصر الأمر عـلى ذلك لكان هينًـا، ولكنهم جاءوا برواة عـن هؤلاء الاثني عشر لم يشـترطوا فيهم ما اشـترطه أهل السـنة في الرواة مـن الصدق والعلم

والأمانة والتقوى، ولو اشترطوا ذلك لقبلوا أمثال الحسن بن صالح بن حي الثـوري وأخيه علي، بل لقبلوا أمثال الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل وشيوخهما وتلاميذهما. إن العبرة عندهم ليست للصدق والعلم والأمانة والتقوى، بل للعصبية والحب والبغض، فكل من كان أشد بغضًا لأبي بكر وعمر وسائر أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات (عدا ذلك العدد القليل من الصحابة) وكان لا يسمي عائشة إلا ويكتب في جانب اسمها «الملعونة» فهو أوثق تشيعًا وأصدق حديثًا، حتى لو عرف في حياته الشخصية بأنه أكذب الناس.

كان سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول «اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال» فلوى هؤلاء الملتوون مذهبه وعكسوا أمره وصاروا يعرفون الحق بالرجال، وقد بلغ من تحزبهم وتعصبهم (لأسماء) عدد قليل من آل البيت أن اخترعوا لهذا العدد القليل من آل البيت مذهبًا يرويه عنهم أشخاص عرفهم معاصروهم بالكذب والخبث والدس، ولخبثهم كذبوا ودسوا على هؤلاء الاثني عشر من آل البيت ما لا علم لهم به، وقالوا: إن هذا هو المذهب الشيعي.

ولو قام أساس المذهب الشيعي على شريعة مصدرها معصومون بعد النبي ﷺ ويرويها عنهم كذابون امتازوا عندهم بالعصبية لأناس والبغضاء لأناس آخرين لكان ذلك أقل شرًا من حكاية الرقاع التي كانوا يكتبون بها الاستفتاء في شرع الله ويدسونها ليلًا في ثقب شجرة على مقربة من السرداب الذي غاب فيه إمامهم الثاني عشر وهو صبي دون الحلم ليجيبهم عنها

بزعمهم، فإذا كان الصباح وجدوا الجواب الشرعي مكتوبًا عليها بخط مجهول ووسائط مجهولة، ومثل هذه الرقاع لا يقام لها وزن في قضاء ولا في منطق ولا في عقل من عقول البشر، وهي من مصادر تشريعهم الذي يريد القمي أن يقرب بينه وبين التشريع الإسلامي الذي يعتمد على كتاب الله كما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ، وعلى السنة المحمدية كما رواها الصادقون عن الصادقين عن هؤلاء الصحابة الكرام البررة المتقين.

وهذا الشاب الأنيق الذي يسمى تقي قمي جاءنا من بلاد هؤلاء، وفتح لعلمائنا وباشواتنا ناديًا في الزمالك سماه دار التقريب بين المذاهب، ينفق فيه وعليه عن سعة، ويريد منا أن نقرب بين مذهبنا ومذهبه، مع أنه لم يقم بهذه الدعوة في بلاده؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بها، ولا يجرؤ لا هو ولا غيره على الجهر بها، ولا يملك لا هو ولا أي عالم من علمائهم أن ينقض عقيدته أو يغير من مذهبه قيد شعرة. وهو يعلم أنه ليس في أهل السنة رجل يجرؤ على أن يعطي لنفسه الحق بأن ينقض عقيدة من عقائد أهل السنة، ولا أن يحول المسلمين عن كفرهم بكل عصمة للبشر غير عصمة الأنبياء، أو أن يزحزح أهل السنة شعرة عن الاعتقاد بأن أصحاب رسول الله ﷺ كالنجوم، وأن النبي ﷺ قال لنا: «بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فجاء الشيعة يقولون لنا: إن اقتديتم بهم ضللتم.

أنا صريح في أن من المستحيل التقريب بين مذهبين هذا أساسها. وأسمع من يقول ينبغي «إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن» و«كلما قلت الاختلافات أمكن التعاون»!

ماذا يريدون أن يزيلوا من الفوارق؟ هل يريدون أن نلعن معهم أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات، وهن أهل البيت كما سماهن الله عز وجل في سورة الأحزاب ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾؟!

أم يريدون منا أن نمزق صحيحي البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة وما في درجتها؛ لأن ما فيها من أحاديث الرسول ﷺ رواه هؤلاء الأصحاب المغضوب عليهم من الشيعة؟!

أم يريدون منا أن نعتقد العصمة في غير الأنبياء، وأن نتخذهم مصدر تشريع، عملاً بما اخترعه شيطان الطاق لهؤلاء الضالين، وأن نقبل من التشريع المنسوب إليهم ما رواه الكذابون المحترقون تعصبًا وبغضًا لخير أمة أخرجها الله للناس؟!

وإذا كانت إزالة الفوارق من جانبنا في هذه الأمور مستحيلة؛ لأن الإسلام نفسه يتغير بها، فأشد منها استحالة أن يتحول شيعي عن شيعيته إلا بالرياء والتقية لدسيسة ينويها أو مكيدة يدبرها، لأن المذهب بني عندهم على التشيع، أي على التحزب والتعصب. وإذا كنا نحن نقبل في صفوفنا من يخالفنا على صدق وصلاح، كالحسن بن صالح بن حي وهو شيعي زيدي، فإن جماعة تقي قمي لا يقبلونه على شيعيته لفرق فرعي بينه وبينهم. وهل الذين هذا موقفهم من الزيدية يمكن أن يزيلوا شيئًا من الفوارق التي بينهم وبين أهل السنة أو الإباضية؟!

ثم من ذا الذي زعم أن المذاهب ملك لأفراد يعبثون فيها كما يريدون؟إن المذاهب الفرعية المتقاربة التي ترجع إلى أصل واحد، وهي مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، لا يستطيع فقهاء أي مذهب منها في أي عصر من عصورها أن يزعموا أن لهم سلطانًا في إلغاء شيء من أحكامها أو تعديل شيء منها. فإذا كان لمس المتوضئ يد المرأة الأجنبية ينقض وضوءه عند الشافعي فهل يستطيع جميع علماء الشافعية، من بلاد الأكراد إلى حضرموت فإندونيسيا، أن يعدلوا فيه ويقولوا شيئًا جديدًا غير المعروف في المذهب؟

وإذا كان هذا في اختلاف فرعي صغير بين مذهبين متقاربين بل متحدي الأسس كالشافعي والحنفي، فكيف باختلاف جسيم يقلب الدين كله رأسا على عقب؟!

نحن نعرف أن البابا له أن يعدل في بعض شئون الكاثوليكية إلى حد ما، ولكن لم نكن نعرف أن في الذين يترددون على دار «التخريب» من ينتحل لنفسه في الإسلام مثل سلطان البابا في الكاثوليكية!

وبعد، فإن أصحاب رسول الله على مراتبهم – من أبي بكر وعمر إلى من يليهم – هم صفوة البشر والطبقة الممتازة من بني الإنسان في تاريخ الإنسانية، ونحن لا نقبل سبهم والبغي عليهم من يهودي فضلاً عن أن نقبله ممن يزعم الانتساب إلى الإسلام. ودار «التخريب» يجب أن تُقفل من الزمالك وتُفتح في طهران وأصبهان وقُمْ وزنجان، وأن يكون رأس الدعوة فيها هناك الخجل

من التاريخ، بعد الخجل من الله، في ذلك الموقف المزري الذي يقفه الشيعة من خير أمة أخرجت للناس، فإذا غيروا هذا الموقف، وعدلوا عن القول بعصمة غير الأنبياء، وتبرءوا من كل ما بني على هذين الأساسين، حصل التقريب بذلك وتم ما يريدون، وإلا فالعلم وأهله لهم بالمرصاد.

محب الدين الخطيب

■ ■ ■

كانت هذه المقالة هي المقص الذي قطع الحبل الذي كان يربط محب الدين الخطيب بحسن البنا، وكان وقعها صادمًا على البنا إذ احتوت مواجهة صريحة لفكرة التقريب التي كانت تسير على قدم واحدة، قدم عرجاء، تتجه ناحية إيران فقط، أما القدم الأخرى التي من المفترض أن تتجه من إيران إلى أهل السنة فقد ظلت ساكنة في مكانها جامدة متيبسة يعروها «تراب الفتنة». كان الأستاذ الخطيب رحمه الله صريحًا وهو يقول للبنا («إزالة الفوارق أو بعضها ما أمكن» و«كلما قلت الاختلافات أمكن التعاون» ماذا يريدون أن يزيلوا من الفوارق؟ هل يريدون أن نلعن معهم أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات وهن أهل البيت كما سماهن الله عز وجل في سورة الأحزاب).

ثم يستكمل الخطيب كلامه وهو يهز به عقل البنا - أو قل قلبه : (أم يريدون منا أن نمزق صحيحي البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة وما في درجتها؛ لأن ما فيها من أحاديث الرسول ﷺ رواه هؤلاء الأصحاب المغضوب عليهم من الشيعة؟!).

وأخـيرًا يواجه الخطيب تلميذه البنا بالحقيقة التـي عرفها البنا ولكنه كان يـدور حولهـا وهـي: (وإذا كانت إزالـة الفوارق مـن جانبنا في هـذه الأمور مستحيلة؛ لأن الإسلام نفسه يتغير بها، فأشد منها استحالة أن يتحول شيعي عن شـيعيته إلا بالرياء والتقية لدسيسة ينويها أو مكيدة يدبرها، لأن المذهب بني عندهم على التشيع، أي على التحزب والتعصب).

وكان الـشيء الأكبر الذي هدم العلاقة بين البنا والخطيب هو ذلك اللمز الذي استخدمه الخطيب بخصوص المال الذي تم إنشاء دار التقريب به فقال (وهذا الشـاب الأنيق الذي يُسـمَّى تقـي قمي جاءنا من بـلاد هؤلاء، وفتح لعلمائنا وباشـواتنا ناديًا في الزمالك سـماه دار التقريب بين المذاهب، ينفق فيه وعليه عن سـعة، ويريد منا أن نقرب بين مذهبنا ومذهبه، مع أنه لم يقم بهذه الدعـوة في بلاده؛ لأنه لا يسـتطيع أن يقوم بها، ولا يجرؤ لا هو ولا غيره على الجهر بها) كرر الخطيب كلمة «ينفق فيه وعليه من سعة» مع ما في هذه العبارة من مفهوم، وكان قد سـبق أن استخدمها في كتابه عن الشيعة، وكان التلميح منصبًّا على «البنا» الذي كان هو قائد مسيرة التقريب هذه.

والحـق أن الأسـتاذ الخطيب لم يكن هـو الوحيد من العلـماء الذين وقفوا ضد التقريب وضد خطوات حسـن البنا في إنشـاء هذه الدار، بل وقف عدد مـن العلماء ينبهون إلى الخطـر الداهم من الاقتراب من الشـيعة، ليس الخطر عـلى تراب الوطـن ولكن الخطر على دين الوطـن وعقيدته، ومع محب الدين

الخطيب في موقفه كان الدكتور أحمد أمين[1] وهو واحد من الذين وقفوا ضد خطوات الشيعة التي كانت تسير إلى ناحية العالم السني بشكل صبور وحثيث.

كتب أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام منوهًا إلى أن الفرس استولوا على التشيع فقال: (والذي أرى كما يدلنا التاريخ أنّ التشيع لعليٍّ بدأ قبل دخول الفرس في الإِسلام ولكن بمعنى ساذج، ولكنَّ هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإِسلام وحيث إنَّ أكبر عنصر دخل الإِسلام الفرس فلهم أكبر الأثر بالتشيع)[2].

ويقول في موضع آخر من الكتاب:(فنظرة الشيعة في عليٍّ وأبنائه هي نظرة آبائهم الأولين من الملوك الساسانيين، وثنوية الفرس كانوا منبعاً يستقي منه الرافضة في الإِسلام فحرك ذلك المعتزلة لدفع حجج الرافضة)[3].

ولم تكن الاعتراضات قاصرة فقط على من نظروا من بعيد فرأوا خطورة التقارب ودعاويه، ولكن أيضا كانت ممن خاضوا التجربة نفسها «ولا ينبئك مثل خبير» الذي خاض التجربة عرف وعاين وبصر واستبصر، وكان من

---

(1) الدكتور أحمد أمين هو واحد من كبار الأدباء والمؤرخين والعلماء في مصر ، ولد عام 1886 وتوفي عام 1954 وكان عميدًا لكلية الآداب بالجامعة المصرية ، حصل على إجازته العلمية من الأزهر الشريف، ثم إجازة أخرى من مدرسة القضاء الشرعي ، وعمل قاضيًا شرعيًا فترة من حياته ، كتب موسوعة إسلامية ضخمة بدأت بـ«فجر الإسلام» وانتهت بـ«يوم الإسلام».

(2) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين صـ 267.

(3) المرجع السابق صـ 111.

الذين دخلوا في هذه المعمعة - الشيخ عبد اللطيف السبكي[1] وهو واحد من علماء الأزهر الكبار الذين انخدعوا بشعارات دار التقريب ، فأصبح عضوًا فيها، وحين أدرك ما وراءها غادرها إلى غير رجعة، ولم يكتف بذلك بل كتب ضد هذه الدار، وضد فكرة التقريب التي خدعت بعض العلماء، وأبدى الشيخ السبكي تعجبه من الإنفاق الذي يتم على هذه الدار ببذخ كبير، رأى الشيخ السبكي أن هذه الدار أعدت لنفسها مقرًّا في أرقى أحياء القاهرة هو الزمالك، وكان المقر فخماً مؤسسًا بالرياش الغالية، ومجلته تطبع طباعة فخمة مغلفة، ومرتبات كبيرة للموظفين، وعطايا لأفراد كثيرين لتقريبهم من فكرة التقريب، فتركهم وهو يعض بنان الندم على الأوقات القصيرة التي قضاها بينهم، وقال في ذلك في مقال له بمجلة الأزهر (هل صحيح أن علماء النجف مستعدون للتلاقي مع غيرهم لتعود وحدة المسلمين أو يتحقق شيء من التقريب؟ هل يمكنهم أن يحيدوا عن القول بأن لهم أئمة معدودين باثني عشر - مثلاً - وأن هؤلاء هم وحدهم المهديون، ومن بينهم الإمام المنتظر المختفي حيث يعلم الله وإلى أن يشاء، وهل هؤلاء الأئمة، من ظهر منهم ومن اختفى معصومون كعصمة الأنبياء وإن لم يكونوا أنبياء؟! وهل الوصية لعليٍّ رضي اللهَ عنه أمر معقول فضلاً عن صحته واعتباره من أصول الدين؟ وهل زواج المتعة قابل للتفاهم معهم في صحته أو بطلانه وهم يستطيبونه وإن خالفوا؟ وهل سَبُّ الصحابة والتنكر لأشياخ الصحابة أمر يرتضيه

(1) كان الشيخ عبد اللطيف السبكي من كبار علماء الأزهر الشريف، ولد عام 1896 وتوفي عام - 1969 وكان قد انضم إلى دار التقريب بين السنة والشيعة منخدعًا بشعاراتها ثم سرعان ما انسحب منها.

أدب الإسلام، وتسمح به تعاليم النبي ﷺ ويتفق مع ما صح عنه ﷺ من التنويه بفضلهم؟).

وسار مع الشيخ السبكي في محاربته لدار التقريب عدد من الشيوخ كان منهم الشيخ طه الساكت وغيره من العلماء، ولكن المفاجأة الأكبر كانت في موقف الشيخ محمد رشيد رضا من الشيعة، لم تكن هذه مفاجأة للعارفين الباحثين، ولكنها كانت مفاجأة شخصية لِّي أنا، فرشيد رضا في اعتقادي كان يحبذ التقريب، وآية ذلك أنه كان هو صاحب المقولة الشهيرة «فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه» تلك المقولة التي استخدمها البنا في مواقف كثيرة أبرزها مواقفه مع الشيعة، وفضلا عن ذلك فإن رشيد رضا كان تلميذًا غير مباشر لجمال الدين الأفغاني[1]، وكثير من الكتابات لعديد من المؤلفين كانت تشير إلى أن الأفغاني كان شيعيًّا، ولم يكن من بلاد الأفغان ولكنه كان من إيران وأخفى هويته الجغرافية! فما الذي كان عليه رشيد رضا إذن؟ وما هو موقفه من الشيعة وفكرة التقريب؟

■ ■ ■

منذ أكثر من ثمانين سنة حدثت داخل جماعة الإخوان أمور، كان «الشيخ رشيد رضا» من أمور الجماعة الأولى، وكان الإخوان يتفاخرون بهذا الشيخ الكبير الذي وقف مع حسن البنا، وشد أزره، ورسم له طريقًا طويلًا،

(1) لم يلتق رشيد رضا بالأفغاني ولكنه اطلع على آثاره ثم تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده الذي كان صديقًا مقربًا للأفغاني.

وأوصاه ألا يخالف هذا الطريق، ولكن البنا شب عن الطوق، ووجد نفسه قد استقام عوده وبلغ سن «الفطام» الدعوي وأصبح صاحب اسم، ولكن «رشيد رضا» المهيمن الأكبر على شخصية البنا ما زال يفرض نفوذه على البنا، والبنا يريد أن يتمرد، ما قصة هذا التمرد؟

عام 1996 كنت في أسرة إخوانية في شعبة الحي الثامن بمدينة نصر بالقاهرة، وكان معي في الأسرة حسن مالك[1]، وأظن أن معظمنا يعرف من هو حسن مالك، والحق أن مالك كان رجلا دمث الخلق حييًا عفيف اللسان، وكان مواظبًا على صلاة الفجر بالمسجد، وكنت أتناوب معه آنذاك «إمامة المصلين» بالمسجد القريب من بيتنا، وبعدها كنا نعقد مقرأة يشترك معنا فيها بعض المصلين الذين أدخلناهم معنا في الإخوان بعد ذلك، وأثناء هذه الفترة دخل معنا في الأسرة الدكتور رأفت حويت فأصبح «نقيبنا» والدكتور حويت هو إحدى القيادات الدعوية للجماعة وأحد المتخصصين في علوم الكمبيوتر وكان يعمل وقتها في موقع قيادي بهيئة الطاقة الذرية، وفي ذات الوقت كان يجيد أحكام التلاوة إجادة تامة فكانت فرصة سانحة لا تتكرر حيث تعلمنا منه «إتقان الأحكام» وأصبح الدكتور رأفت بعد ذلك إمامنا في صلاة الفجر، وخطيبًا للجمعة بالمسجد، وكنت أيضا أتناوب معه الخطابة، وأشهد أنه كان خطيبا مفوهًا، فاهمًا.

---

(1) حسن مالك هو أحد قيادات الإخوان وأحد أكبر رجال الأعمال الذين يديرون مال الجماعة وبعد نجاح مرسي كرئيس أصبح مسئولا عن الملف الاقتصادي للدولة كلها، ويدير هذا الملف من خلال مركزه كمستشار اقتصادي للرئيس.

وذات يوم وفد علينا وافد جديد انضم لأسرتنا، ظهر من مظهر هذا الوافد الجديد أنه غير مصري، شكله يوحي بأنه من بلاد الشام، لكنته مصرية ولكنه ينطقها بطريقته الخاصة وكأن شاميته أثرت على مصريته، كان هذا الوافد هو رجل أعمال اسمه «فؤاد سعيد رضا» يحمل نفسًا مسالمة طيبة غاية ما تكون الطيبة، وأثناء تعرفنا عليه في الأسرة عرفت أنه حفيد الشيخ «رشيد رضا» وأنه من لبنان إلا أنه يعمل ويعيش في القاهرة، توثقت الصلة بيننا، وأصبحت زوجته «الحاجة ثريا» صديقة لزوجتي، وتبادلنا الزيارات خارج نطاق «الأسرة الإخوانية» وفي أحد الأيام وأثناء زيارة من زياراتي له وجدته يقدم لي بأريحية هدية اعتبرتها كنزا من أثمن الكنوز، كانت الهدية عبارة عن الأعداد الكاملة لمجلة المنار التي كان يكتب فيها الشيخ رشيد رضا تفسيره للقرآن الكريم، ومع أعداد المجلة كان هناك كتاب عنوانه «السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة» بقلم السيد الإمام محمد رشيد رضا.

وكان أن فتحنا حوارًا ظل قلبي يحمله، ولك أن تتعجب من هذا القلب الذي ظل يحمل أشياء كثيرة أعلى من طاقته، ولكن أسرار النفس البشرية كثيرة، وهناك من يستطيع أن يكتشف بعض أسرار نفسه، وهناك من يعجز عن ذلك، وحين يخرج الإنسان من ذاته يسهل له وقتها اكتشافها.

قلت للأستاذ فؤاد رضا: أظنك لم تر جدك؟

رد قائلا: نعم فقد ولدت بعد أن مات بسنوات طويلة، ولكن الوالد رحمه الله حكى لي كل تفصيلات حياته وما مر به، لذلك أنا معني بجمع

تراث جدي، والتأريخ له، بل إنني زرت البلدة التي هي مسقط رأس جدي واسمها القلمون بلبنان، وأنوي أن أزورها مرات ومرات ففيها أقاربي.

سألته: هذا الكتاب الذي أعطيتني إياه مع أعداد مجلة المنار يدور حول الشيعة والسنة، ولكن عنوانه غريب فقد وضع جدك على غلاف الكتاب عبارة «الوهابية والرافضة» فهل كان يعادي الشيعة رغم أن البنا ردد مقولة جدك «فلنعمل فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه»؟!

- كان جدي يحلم بالتقريب لا شك في ذلك ولكنه كان يرى أن هذا الأمر سراب وأن الشيعة لن يقتربوا من السنة أبدًا، كما كان يرى أن عقيدتهم ضلال في ضلال وأنهم يرغبون في تشييع المجتمعات السنية، لذلك كتب هذا الكتاب الذي كان عبارة عن بحث وضعه في مجلة المنار ثم جعلناه كتابًا بعد ذلك.

- ولكن حسن البنا كان يرى عكس ما كان يراه جدك، فكان يسعى للتقريب ويرى إمكانية تحقيق ذلك؟

- هذه الفكرة - فكرة التقريب - طرحها البنا على جدي في بداية تعارفهما، وقد ظن أن تأثر جدي بالشيخ جمال الدين الأفغاني سيدفعه إلى مساعدته على هذا الطريق، ولكن جدي حذّر البنا من دخول هذا الطريق، ولكنه فتح له بابًا آخر هو الاقتراب من المدرسة الوهابية، وأظن أن تأثير جدي على البنا في هذا الأمر كان واضحًا فقد كان جدي صديقًا مقرَّبًا للملك عبد العزيز آل سعود، وكان من رأي جدي أن السنة والشيعة لا يلتقيان أبدًا، وقد نصح البنا بأن يقتفي أثر عبد العزيز آل سعوَد، وظل جدي على موقفه هذا حتى مات، بل من أجل موقفه الرافض للشيعة كتب كتابه هذا

الذي كان بحثًا في مجلة المنار وأظن أنه كان في هذا البحث يرد على البنا ويوضح خطورة ولوج طريق التقريب، وقد ظلَّ البنا بعدها بعيدًا عن «تنفيذ فكرة التقريب» حتى مات جدي عام 1935، ثم بعد الوفاة أخذ حسن البنا يفتح لنفسه أبوابَ التقريب.

قلت له: لقد عثرت في مقر «الدعوة»[1] - منذ أربع سنوات على وثيقة هامة تكشف زيارة الخميني للإمام الشهيد حسن البنا عام 1938.

أبدى اندهاشه قائلًا: لا علم لي بهذا الأمر، ولكن على العموم بدأت الزيارات تتوالى على حسن البنا من رموز الشيعة بعد وفاة جدي، فكأن جدي كان هو حائط الصد الذي كان يحول بين اقتراب الشيعة من الإخوان، وبعد وفاته انفتحت الطرق.

كان أول ما فعلته بعد أن انصرفت من بيت فؤاد رضا في هذا اليوم هو التهامي كتاب «السنة والشيعة» وفي بداية الكتاب وجدت الكاتب الكبير يشير في الصفحة الرابعة إلى أن التشيع هو الذي فرَّق الأمة، وأن الذي ابتدع التشيع هو اليهودي عبد الله بن سبأ الذي أظهر الإسلام خداعًا للمسلمين، ودعا إلى الغلو في سيدنا علي بن أبي طالب لتفريق الأمة وإفساد دينها ودنياها.

ثم أشار الشيخ رشيد رضا في الصفحة السادسة من الكتاب إلى أن محاربة سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب لبلاد فارس والقضاء على

---

(1) مقر الدعوة هو التعبير الذي كنا نطلقه على مقر جماعة الإخوان، وقد جرى هذا التعبير على ألسنة الإخوان لأن مقر الجماعة كان في ذات الوقت مقرًا لمجلة الدعوة، فضلا عن أن الإخوان يعتبرون أن مقرهم هو مقر الدعوة للإسلام! ولا يزال الإخوان يستخدمون هذا التعبير للدلالة على مقر الإخوان بالمقطم.

ديانتهم المجوسية، جعل في نفوس أمرائهم وزعمائهم موجدة من الصحابة الذين فتحوا بلادهم، وعندما حانت لهم الفرصة في الثأر، قاموا بنشر التشيع في إيران.

وفي الصفحات التالية شرح رشيد رضا أنه كان متوهمًا أنه يمكن التقريب بين عقلاء الشيعة والسنة، وسعى إلى ذلك فعلًا ولكنه وجد أن هذه الفكرة هي سراب أو وهم، وقد أدرك هذا عندما رفع «عبد العزيز آل سعود» راية السنة ومحاربة البدع وأصبح إمامًا لأهل السنة، فإذا بهذا الأمر يحرك الأحقاد في نفوس من ظن أنهم من عقلاء الشيعة، فكتبوا وحرفوا وأعلنوا الحرب ضد السنة وإمامهم عبد العزيز آل سعود، وأضاف أنه عندما حاول التقريب بين هؤلاء والوهابية، وجد أن الشيعة لا يقبلون شيئًا غير عقيدتهم فقط، حينها - يقول الشيخ رشيد رضا - كتب رسائله التي في الكتاب، ووضعها في أعداد مجلة «المنار» ليحذر أهل السنة من الشيعة، ويظهر للمسلمين ما خفي من عقائد هؤلاء الشيعة، وينبه من يريد أن يخطو خطوات التقريب إلى خطورة هذا الأمر إذ إن الشيعة لا يسعون للتقريب، ولكن يسعون فقط لتشييع أهل السنة.

حملت العبارات السابقة إشارة إلى أن هناك من يسعى من السنة للتقريب وهو يجهل مقصد الشيعة، ثم أضاف إلى ضرورة أن يكشف عن خطورة الشيعة لأن هناك من المسلمين «السنة» من يجهل حقيقة دين الشيعة، وأغلب الظن أن هذه العبارات كانت تشير إلى حسن البنا الذي كان يرغب في مساعدة الشيخ رشيد رضا له على فتح أبواب التقريب مرة أخرى.

والحق أن هذا الكتاب درة من درر العلم، شرح فيه الشيخ رشيد رضا عقائد الشيعة ومعتقداتهم وتولى الرد عليها كلها وتعقب أقوال علمائهم وفندها، ووضع في الكتاب مناظرات علمية، ثم قام أحد تلاميذ الشيخ رشيد رضا - هو الشيخ محمد حامد الفقي - بكتابة خاتمة للكتاب وضع فيها خلاصة ما ورد به، وكرر التحذير من الشيعة وخطورتهم ورغبتهم الجارفة في تشييع أهل السنة.

والملاحظ أن هذا الكتاب الذي كان فصولًا في مجلة المنار قام ورثة رشيد رضا باستخراجها ووضعها في هذا الكتاب عام 1947 وهو العام الذي نشأت فيه دار التقريب بين السنة والشيعة رسميًّا، فبعد أن أعلن حسن البنا عن تشكيل هذه الدار مع محمد تقي القمي، وبعد أن ظهر أن بعض شيوخ الأزهر انخدعوا بشعارات التقريب، أرادت أسرة رشيد رضا أن تعيد التنبيه إلى خطورة هذا الأمر، فكان أن عهدت إلى الشيخ محمد حامد الفقي أن يقوم بتجميع هذه الرسائل ووضعها في هذا الكتاب.

كان للرافضين الحق في رفض التقريب، ذلك أن وجهة نظر الشيعة مختلفة عن هذا الذي اعتمل في عقل البعض من حسني النية من أهل السنة، كانت دعاوى التقريب مجرد فخ، وحين تقع الفريسة فيه فستكون ضحية، الهدف للصياد الشيعي هو تشييع المجتمعات السنية، وإبادة من يرفض التشييع، هكذا فعلت الدولة الصفوية في إيران فنجحت من خلال القتل والقهر والتعذيب في تغيير التركيبة العقائدية هناك، وبعد أن وصل الخميني إلى حكم إيران بدأت المسيرة الثانية للدولة الصفوية، فهناك في تلك البلاد التي قامت فيها ثورة نسبت نفسها للإسلام، حدثت أبشع مذابح لأهل السنة.

الفصل التاسع

دماء وإماء

(في السير الشعبية المصرية تجد أن الشطار والحرامية والأفاكين والسفاحين، إذا ما أرادوا خديعة العسس، فإنهم يرتدون ثياب الشيوخ والعلماء، فيمرون من بين العسس وهم في تمام الاطمئنان، ثم يدخلون إلى بيت الضحية وهم يقرءون القرآن، فيأنس لهم صاحب الدار، ويفسح لهم الدوار، ويدخل إلى أهل بيته حاملًا لهم البشرى، فقد جاء لهم أهل الله وخاصته ليطرحوا البركة في الدار وأهلها، ويأمرهم بإعداد أطايب الطعام، وبعد أن يأكل الحرامية ويشبعوا، يسكبون قدرًا كبيرًا من البنج في طعام صاحب الدار، فيأكل ويغيب عن الوعي، فينفرد اللصوص بأهله، فيذبحون ويغتصبون ويسرقون على مهلهم، ولا يخرج من أهل الدار حس ولا خبر، فالمقتول لا حياة فيه، والنائم لا حياة له).

في يوم ما من فبراير عام 1979 هبطت الطائرة في مطار طهران، كانت هي ثالث طائرة تهبط في المطار منذ أن نجحت الثورة الإيرانية واتشحت بالثوب الإسلامي، فُتح باب الطائرة فنزلت منها مجموعة من الرجال يرتدون الثياب الإفرنجية ومعهم رجل يرتدي الغترة والعقال على هيئة أهل

المملكة السعودية، هيئتهم وبشرتهم توحي أنهم من مصر، كان في استقبالهم بعض رجال الدين الشيعة، وبعد مراسم الاستقبال حملتهم بحقائبهم عدة سيارات مرسيدس إلى أحد الفنادق، وفي المساء بعد صلاة العشاء توجهت بهم السيارات إلى المقر الذي يستقبل فيه آية الله الخميني ضيوفه، خلع الجميع أحذيتهم عند باب الدخول، كان الأستاذ غالب همت عضو مكتب إرشاد التنظيم الدولي هو أول المتقدمين للسلام على آية الله الخميني، وتبعه الأستاذ جابر رزق ممثلًا عن إخوان مصر، ثم تبعهما باقي الأضياف.

جلس الجميع على الأرض متكئين على الوسائد القطنية، دار الحوار بينهم، وما بين التهنئة بالثورة، والمباركة بنجاحها، كانت الكلمات الأولى للمتحاورين، ثم أبدى أحد الإخوان رغبته في مبايعة الإخوان في كل العالم آية الله الخميني كي يكون خليفة للمسلمين، ابتسم الخميني شاكرًا ولم يعقب، عطف آخر قائلًا: لنا طلب عند سماحتك.

رد الخميني: اطلب ما تشاء.

تدخل جابر رزق: نحن طبعًا نبلغك هذا الطلب من أخيك المرشد فضيلة الأستاذ عمر التلمساني، وهو يرجوك أن تسمح للإخوان بإنشاء جمعية لهم في إيران، على أن يكون اسمها جمعية الدعوة والإصلاح، نحن لنا مجموعة صغيرة هنا من أهل إيران تقوم بعمل دعوي فقط في محيط أهل السنة ولا تتعداهم أبدًا.

ابتسم الخميني موافقًا.

وفي أكتوبر من عام 1979 بدأت جمعية الدعوة والإصلاح خطواتها

الأولى بشعار معلن هو الله أكبر ولله الحمد وبجانبه سنبلة محدودبة على الشعار،كان أكبر المؤسسين هو الشيخ الكردي ناصر سبحاني - الذي أعدمه النظام الشيعي عام 1990 - وكان معه الشيخ الكردي أحمد مفتي زاده «الذي اعتقله نظام الشيعة سنوات ثم تم إطلاق سراحه عام 1993 وتوفي بعدها متأثرًا بالتعذيب الذي كان قد تعرض له في السجن» ومعهما عبد الرحمن البيراني الأمين العام الحالي لجمعية الإخوان، وهو أيضًا من الأكراد، وله عضوية في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

تشكلت الجمعية وبدأت تمارس أنشطتها، وبالرغم من سماح الخميني لها بالعمل في حدود ونطاق أهل السنة فإنها تعرضت لاضطهاد، ولكنها مع ذلك كانت أحسن حالًا من الذي تعرض له أهل السنة في إيران على يد رجال الخميني، وكان من الرعيل الذي أنشأ الجماعة ومارس أنشطتها كل من:

- إبراهيم مردوخي وهو ينتمي لعائلة صوفية، وكان من رفقاء سبحاني وأحمد مفتي زاده وشارك في الثورة الإيرانية.
- عبدالعزيز سليمي وتربطه صلات قوية بالدكتور يوسف القرضاوي وهو الذي قام بترجمة كتبه إلى الفارسية، وكان أيضًا من رفقاء ناصر سبحاني.
- لقمان مصطفى ستوده وهو صيدلي ويشغل حاليًا موقع مسئول العلاقات العامة لجمعية الدعوة والإصلاح الإخوانية.

ورغم الانتكاسة التي تعرضت لها الجمعية بسبب الاضطهاد الذي تعرضت له من الحكومة فإن الحال تغير بعد ذلك، وأصبح للجمعية نشرات ومجلات ودوريات، وفاعليات ومؤتمرات في إيران وخارجها، ورحلات مستمرة للحج والعمرة، ومساجد خاصة بها في بعض الأقاليم التي يوجد

فيها سُنة، يقف عليها الخطباء، ويخوضون انتخابات بعض المجالس المحلية، أخذت جمعية الإخوان نفسًا عميقًا، وتعافت مما ألم بها، ثم أخذت تقوم بدور سياسي في تقريب وجهات النظر بين التنظيم الدولي للإخوان والنظام الإيراني، وحين قام أحمدي نجاد بزيارة مصر أوائل عام 2013 كانت للدبلوماسية الشعبية، الممثلة في تنظيم الإخوان، الدور الأكبر في تنظيم هذه الزيارة، وترتيب أحداثها، ولكن الأمور في إيران لا تسير بنفس الميزان مع أهل السنة.

■ ■ ■

من فوق مئات المساجد في طهران يرتفع الأذان بصيغته الشيعية:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله

أشهد أن عليًا ولي الله أشهد أن عليًا ولي الله

أشهد أن عليًا أمير المؤمنين وأولاده المعصومين

بالحق حجج الله، أشهد أن عليًا أمير المؤمنين

وأولاده المعصومين بالحق حجج الله

حي على الصلاة حي على الصلاة

حي على الفلاح حي على الفلاح

حي على خيـــــر العمــل　　　حي على خيــــــر العمــل

الله أكبـــــر الله أكبــــــر　　　لا إلـه إلا الله لا إلــه إلا الله

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

لا ينقطـع هذا الأذان عن المسـاجد الجامعة هناك، فإذا أصخت السـمع، وأرهفت الأذن لتسـمع أذان أهل السـنة، فإنك لن تستقبل إلا صفير الريح، ولن تصاب إلا بخيبة الأمل، وليس ذلك لأن أذان أهل السـنة ممنوع، ولكن لأن مسـاجد أهل السـنة نفسـها ممنوعة، فطهران على اتساع مساحتها، وعلى وصـول عدد أهل السـنة فيها وحدهـا إلى أكثر من مليون نسـمة، فإن الثورة الإسـلامية لم تتح للسنة بناء مسـجد جامع في الوقت الذي سمحت فيه ببناء الكنائس والمعابد اليهودية، ومعابد المجوس!

بعد الثورة بسنوات قليلة ذهب إلى إيران الشيخ محمد عبد القادر آزاد رئيس مجلس علماء باكسـتان، لم يكن في الزيارة وحده ولكنه كان على رأس وفد يضم 18 عالمـاً، وكان أن اجتمـع بآية الله الخميني وبعض كبار المسـئولين الإيرانيين، لا شك أنه قبل الزيارة كان يأمل في أن يكون الشيعة قد أخذوا خطوات عملية لإنصاف أهل السنة هناك، ولكن هاله ما رأى، وإذ عاد كتب تقريرًا عن أحوال إيران، وأحوال أهل السـنة فيها، وسنقتطف هنا في الكتاب نتفًا من هذا التقرير المطول، لنرى جانبًا من الصورة، قال محمد عبد القادر آزاد:

(لا يوجد في طهران كلها مسـجد واحد لأهل السّـنة، بالرغم من وجود 12 كنيسة للمسيحيين، و 4 معابد لليهودية، وبعض المعابد للمجوس.

ومنذ ثلاث سنوات، وعد الخميني في لقاء مع وفد أهل السنة، برئاسة الأستاذ عبد العزيز ملا زاده رئيس خطباء أهل السنة في زاهدان، بإعطاء قطعة أرض في طهران يشاد عليها مسجد لأهل السنة، ورغم أنهم دفعوا ثمنها فإن الخميني أصدر أمرًا بالاستيلاء على الأرض وسجن القائمين على المشروع.

ورغم مطالبتي للخميني في العام الماضي بإنجاز وعده لأهل السنة، فوجئت في المؤتمر الذي حضرته هذا العام بقول بعض أنصاره: لو أعطينا قطعة أرض ليقام عليها مسجد لأهل السنة، فإنه سيصبح مسجد ضرار.

وأصر الخميني على أخذ الأرض، واعتقال القائمين على المشروع رغم تدخل بعض سفراء الدول العربية والإسلامية، ويصلي بعض أهل السنة الجمعة في ملحق تابع للسفارة الباكستانية في طهران، ولولا ما يسمى بالحصانة الدبلوماسية لكان للسلطات الإيرانية مع هؤلاء شأن آخر، في حين يوجد لأهل السنة مساجد في كبرى العواصم العالمية كواشنطن، وموسكو، وباريس ولندن، وغيرها ولا يوجد لهم مسجد في طهران العاصمة الإيرانية!

وقد ناقش مؤتمر الأئمة العالمي، الذي عقد في طهران سنة 1982 موضوع مسجد أهل السنة، وجاء في التوصيات التي أصدرها: التوصية الثانية أن تعطي الحكومة الإيرانية قطعة الأرض التي وعدت بها أهل السنة، لبناء مسجد في طهران بعد أن سدد أهل السنة ثمنها، وقد صدرت هذه التوصية على الملأ في طهران، وعلى مسمع من الحكومة، مما يؤكد صحة الخبر وتواتره.

وكم كنت أتمنى على قادة الحركات الإسلامية الكرام الذين قاموا، ويقومون بزيارة إيران، وعاصمتها طهران مراراً أن يسألوا عن هذا الموضوع ويذكروا القادة الإيرانيين به، وليتهم عندما يكونون في طهران يسألون عن مسجد لأهل السنة للصلاة فيه بدلاً من الذهاب إلى ضريح الخميني للصلاة عنده).

■ ■ ■

المكان: مدينة مشهد الإيرانية أقاصي إقليم خراسان .

الموقع: مسجد «فيض» الخاص بأهل السنة في المدينة، وقد أقيم هذا المسجد منذ أكثر من مائة عام، ويقع بالقرب من مزار الإمام علي بن موسى الرضا، ويجاوره أيضا منزل والد آية الله خامنئي المرشد الأعلى للثورة.

الواقعة: منذ قيام الثورة الإيرانية والمساومات مع أهل السنة لا تفتر، كانت المخابرات الإيرانية هي التي تقود المساومات: «خذوا قدرًا من المال وسلموا لنا هذا المسجد، نريد مسجد فيض، سيكون للشيعة من بعدكم، إذ لا يليق أن يكون مسجدكم بجوار مزارنا وبجوار بيت والد مرشد الثورة». اجتمع علماء السنة وانتهَوا إلى أنهم لا يبيعون دينهم ببضعة دراهم: «لا مساومات، وسيظل المسجد لنا».

الزمن: الأول من فبراير من عام 1994 «وهو نفس الشهر ونفس العام الذي حدثت فيه مذبحة الحرم الإبراهيمي بالقدس».

الحدث: خمس عشرة جرافة كبيرة تحيط بمسجد فيض، ثم تبدأ في هدم

أسواره وأركانه، لم تضع الجرافات في خاطرها وهي تقتلع المسجد أن هناك عشرات المصاحف بالداخل، وكيف تضع هذا في اعتبارها وفي الداخل أيضًا عشرات المصلين؟! خرج المصلون من المسجد يهرعون، فقامت الشرطة بالقبض عليهم، وفي الداخل عدد من المصلين اعتصموا بالمسجد ورفضوا الخروج، فجرفتهم الجرافات ماتوا وهم يذودون عن المسجد وصاروا ذكرى.

ردود الأفعال: في اليوم التالي للحدث ترتفع الزينات في كل مكان، فالشعب الشيعي وحكومته يحتفلون بذكرى دخول الخميني إلى إيران، أما في العالم الإسلامي ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

توابع الحدث: في ذات يوم احتفال الشيعة بدخول الخميني إيران ينتشر بين أهل السنة خبر هدم المسجد، يسود الحزن ويترك ظلالًا كئيبة عليهم، فها هو أحد مقدساتهم يهدم أمامهم، ليس هذا فحسب، ولكن يقع قتلى مضرجين في دمائهم من جراء عمليات الهدم الغشيم، يجتمع علماء السنة في مدينة زاهدان عاصمة بلوشستان عند مسجد «المكي» والمدرسة الدينية التابعة له، وحول المسجد أخذت الأعداد تتوافد من كل صوب وحدب، كل أهل السنة في المنطقة راعهم ما حدث لمسجد «فيض»، تعالت الأصوات تعبر عن الغضب، وارتفعت أصوات البكاء من العامة بداخل المسجد وخارجه، وتوالى الخطباء على المنبر منددين بما حدث، كاد الزمام أن يفلت ولكن خطيب المسجد أخذ يهدئ روع الجمهور الكبير خوفًا من حدوث صدام مع الشرطة والحرس الثوري اللذين أخذت أعدادهما تتزايد بجوار المسجد والمدرسة، وفي الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق نودي لصلاة الظهر، اصطف الناس للصلاة خلف الإمام، واكتظت الشوارع بمظاهرات

احتجاجيـة، وعـن بعـد وصل صـوت أزيز المروحيـات إلى الأسـماع، تطلع الناس إلى السـماء، فإذا بدوي إطـلاق الرصاص يجتاح المدينة، وعلى الأرض يسقط عشرات القتلى والجرحى، صريخ وعويل واضطراب وارتباك، يسارع الناس بالاختباء والاحتماء بالمسجد، يمسك شيخ المسجد الميكروفون مطالبًا الشرطة بالكفِّ عن إطلاق الرصاص، فيجيبه قائد الشرطة عبر ميكروفونه: لسنا نحن الذين نطلق الرصاص ولكنها طائرات المخابرات وقوات الحرس الثـوري، استـمر إطـلاق الرصـاص مـدة ثلاث سـاعات متواصلـة، نزلت القـوات من المروحيـات وقامت مع الحرس الثوري بـأسر عدد من الأهالي، ثم جمعوا الجثث وألقوا بها في المروحيات وسيارات الحرس الثوري، استطاع الأهـالي تخبئـة بعض الجثث لكـي يتم دفنهـا في اليوم التالي في جنـازة صامتة تحاكي صمت العالم، وصمت المسلمين في كل مكان.

ينتقل المشهد إلى استوديو قناة الجزيرة.

الزمن: 2005/1/10

يجلـس الإخواني الكبير يوسـف ندا أمام الكاميرات لكي يتحدث باسـم الإخوان في برنامج شـاهد على العصر، يسـأله المذيع الإخواني عن تجاوزات الشيعة في إيـران في مواجهة أهل السـنة ، فـيرد عليه ندا وهـو يقطب وجهه تقطيبـة المفكر وكأنه يسـتحضر الحكمـة: إن هذا الأمر المتعلـق بالاعتقالات والإعدامـات مـؤلم إلا أنـه طبيعي إذ «لـكل ثورة أخطـاء»! وفي هـذا اللقاء يسـتطرد نـدا مؤكـدًا أن الإخـوان حاولوا حل مشـكلة الرهائـن الأمريكان التـي كانت الحـدث الأهـم في العالم في بدايـات الثورة، قـص علينا ندا كيف أنه تحدث مع مسـئولين كبار في البيت الأبيـض كي يأخذ موافقة من الرئيس

الأمريكي على أن يقوم الإخوان بدور في المفاوضات مع وعد منه بأن المشكلة سيتم حلها على يد الإخوان! إلا أن ندا أكد في البرنامج، وخيبة الأمل تصيب صوته بالرعشة: انتظرنا أنا والأستاذ عمر التلمساني أمام الهاتف كثيرًا، ولكن الرئيس الأمريكي لم يتصل رغم أن مساعديه أكدوا لنا أنه سيتصل.

ملحوظة: لم يذكر الأستاذ يوسف ندا شيئًا عن تدخل الإخوان لإيقاف المذابح التي كانت تتم لأهل السنة، ولا حتى لإيقاف هدم المساجد!

■ ■ ■

اعتقالات، سجن، إعدامات لكثير من علماء السنة، خرج بعضهم من السجن وقد كف بصره من أثر التعذيب، وخرج البعض الآخر ليموت بعد أيام من خروجه، يموت البعض الآخر داخل السجون، والمشهد كان كابيًا قاتمًا غاية ما تكون القتامة، فبدلًا من أن ترتفع هامات المشايخ فوق المنابر إذا بها ترتفع على أعواد المشانق التي كانت تتم في الشوارع الكبيرة والميادين.

لم يسلم من مشانقهم وسجونهم أحد، فهذا هو الشيخ «نظام الدين روانيد» العالم والشاعر الشهير في بلوشستان يشرع في بناء مسجد صغير فكان أن تم اقتياده إلى السجن ولا يزال فيه إلى الآن لا يعرف مصيره أحد.

ومنذ أعوام قليلة تم اغتيال الشيخ «يار محمد كهرازهي» رميًا بالرصاص، والشيخ يار محمد هو إمام جمعية أهل السنة في مدينة خاش وكان يدير مدرسة دينية، وقبله بعامين قامت المخابرات الإيرانية باغتيال مدير المدرسة ذاتها الشيخ عبد الستار إمام الجمعة، والعالم الشهير لأهل السنة في مدينة خاش البلوشية، وذلك ضمن حملتها المسعورة بقيادة مرشد الثورة خامنئي لإخلاء إيران من علماء السنة، ليتسنى لهم تشيع البلد كليًا.

انتشرت الاغتيالات والمذابح في كل المناطق والأقاليم التي يقيم فيها أهل السنة، وكانت تستهدف الشيوخ والعلماء، وإذا أردنا أن نضع قائمة بالعلماء السُّنة الذين قُتِلوا على أعواد المشانق أو رميًا بالرصاص، أو من جراء التعذيب في السجون فسيستغرق هذا صفحات الكتاب كله، ولكن على سبيل المثال نذكر بعضهم:

- **الشيخ عبد الوهاب خوافي**، من علماء أهل السنة في إقليم خراسان تم القبض عليه من قبل شرطة خاصة يتزعمها رجال الدين الشيعة، وحوكم وأعدم في عام 1990 بتهمة نشر التسنن.
- **الشيخ قدرالله جعفري**، من علماء أهل السنة في خراسان ومن خريجي الجامعة الإسلامية في باكستان أعدم دون محاكمة في عام 1990م بعد عودته إلى ايران.
- **الدكتور علي مظفريان**، من الأطباء الجراحين المشهورين في مدينة شيراز، تحوَّل من المذهب الشيعي إلى السني في عهد الشاه، وبعد الثورة اشترى بيتًا في شيراز بالتعاون مع عدد من أهل السنة من أبناء المدينة وأبدله إلى مسجد وصار خطيبًا، فكانت عاقبته أن تم اعتقاله وتعذيبه وبعد أن فرغوا من تعذيبه قاموا بإعدامه شنقًا.
- **الشيخ محمد صالح ضيائي**، من كبار علماء وقادة أهل السنة في ميناء بندر عباس كانت له مدرسة دينية باسمه وقد طلبت منه الاستخبارات الإيرانية إغلاقها إلا أنه رفض فتم قتله بطريقة بشعة حيث تم التمثيل بجثته وتقطيع أطرافها، ثم قاموا برميها في الصحراء.
- **الدكتور مولانا أحمد صياد**، وهو العالم السني الوحيد الحائز على شهادة الدكتوراه في علم الحديث من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وبعد

عودتـه من المدينة أسـس مدرسـة دينية صغيرة في أطـراف مدينة كنارك في إقليم بلوشسـتان، ولكن بعد مدة تم اسـتدعاؤه مـن قبل المحكمة الخاصة برجال الدين، وحكم عليه بالسجن مدة خمسة عشر عامًا بتهمة الدعوة إلى التسـنن، وبعد خمس سنوات تم إطلاق سراحه فسـافر إلى دولة الإمارات حيث قضى فيها عدة أيام لا غير، فإذا بهم يقبضون عليه عند عودته إلى مطار بندر عباس، وبعد ثلاثة أيام من اعتقاله وجدت جثته مرمية في العراء.

قد يفرغ الكتاب ولا تفرغ الأسـماء، فحيثما تكون الفاشـية المرتدية ثوب الديـن تكون المذابـح والاعتقالات، وحيثما تكـون العنصرية وادعاء امتلاك الصـواب يكـون التكفير، لا مكان في الدولة الفاشـية للعواطـف أو الرحمة، ولا مجـال لحقوق الإنسـان، يعدونها شـعارات يتـم المتاجرة بهـا، أما عصمة الدمـاء، وحفـظ كرامة الإنسـان، والتراحم فـلا دولة لها عندهـم، فقط هي الدنيـا وأعـراف الملوك الذين «إذا دخلوا قرية أفسـدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة»، وإذ دخلت العمائم الملكية إلى إيران، سـالت دماء المسـلمين بلا سبب، سـالت دماءٌ والإمـاء الجالسون الحاملـون لسيفهـم ذاك الخـرب لا يعرفون سوى الجهالة والعمـالة مـن قـديم والسفـاهـة والخُطَـب.

الخلاصة أنه: لم تكن العمائم تسـعى للحكم من أجل الدين، ولكن كان الديـن مـن أجل الوصول للحكم، ولم يكن الإخوان يسـعون للدين وهم في طريقهـم لحكم مـصر، ولكنهم فقط كانـوا يحملون شـعارات الدين، لذلك عندما وصل هؤلاء وهؤلاء فإننا لم نرهـم دينًا، ولكننا رأيناهم مستذئبين.

■ ■ ■

المشهد الختامي

ليس في دنيا السياسة ختام، فسيظل الحق والباطل في صراع إلى يوم الدين، ولكن لأن لكل كتاب ختامًا، فيجب أن يكون لهذا الكتاب خاتمة، ومشهد الختام أمامنا يظهر على شاشة العالم كله، تلك الشاشة التي احتوت على كل المشاهد ولم تغفل منها شيئًا، في خلفية الشاشة يظهر العم سام مرتديًا سترته الزرقاء وقبعته الشهيرة، يربت العم سام بيده على رأس الأسد البريطاني الذي استكان قابعًا بجواره، وأمامهما خريطة العالم منبسطة، وفي منطقة خلابة وآخذة من الخريطة تقع منطقة تحمل رائحة الزمن، كانوا فيما مضى يطلقون عليها «العالم القديم مهد الحضارات ومهد جميع الأديان» إلا أنها تخلت عن شموخها فأصبحت من جملة دول العالم الثالث التي لم تبلغ الحلم بعد، وحين وقعت هذه المنطقة في أسر واحتلال «العالم الجديد» صاحب الشعر الأصفر والعيون الزرقاء وماكينات الحضارة، إذا بهذا العالم الجديد يطلق على هذه المنطقة مهيضة الجناح «الشرق الأوسط».

كانت نظرات العم سام لهذه البقعة من الخريطة ثاقبة،وكانت نظرات الأسد البريطاني مترقبة، وكأنه ينتظر الأوامر من صاحبه، كيف سنفترس تلك البلاد؟ وكيف سنلتهم ثرواتها وكنوزها، يظهر العم سام وهو يمد يديه إلى الأمام وكأنه ساحر يمسك بعصاه السحرية، والعصا تخرج منها شذرات سحرية.

تقترب الصورة من منطقة الشرق الأوسط، فإذا بنا نرى تيجانًا، وعروشًا، وجيوشًا، ومزارعَ، وجبالًا، وأنهارًا، ومناجم، ومصافي نفط، وصولجاناتٍ، وعمائم، وطرابيش، وجلابيب، ومساجد، وكنائس، ومعابد، وشيوخًا، وأفندية.

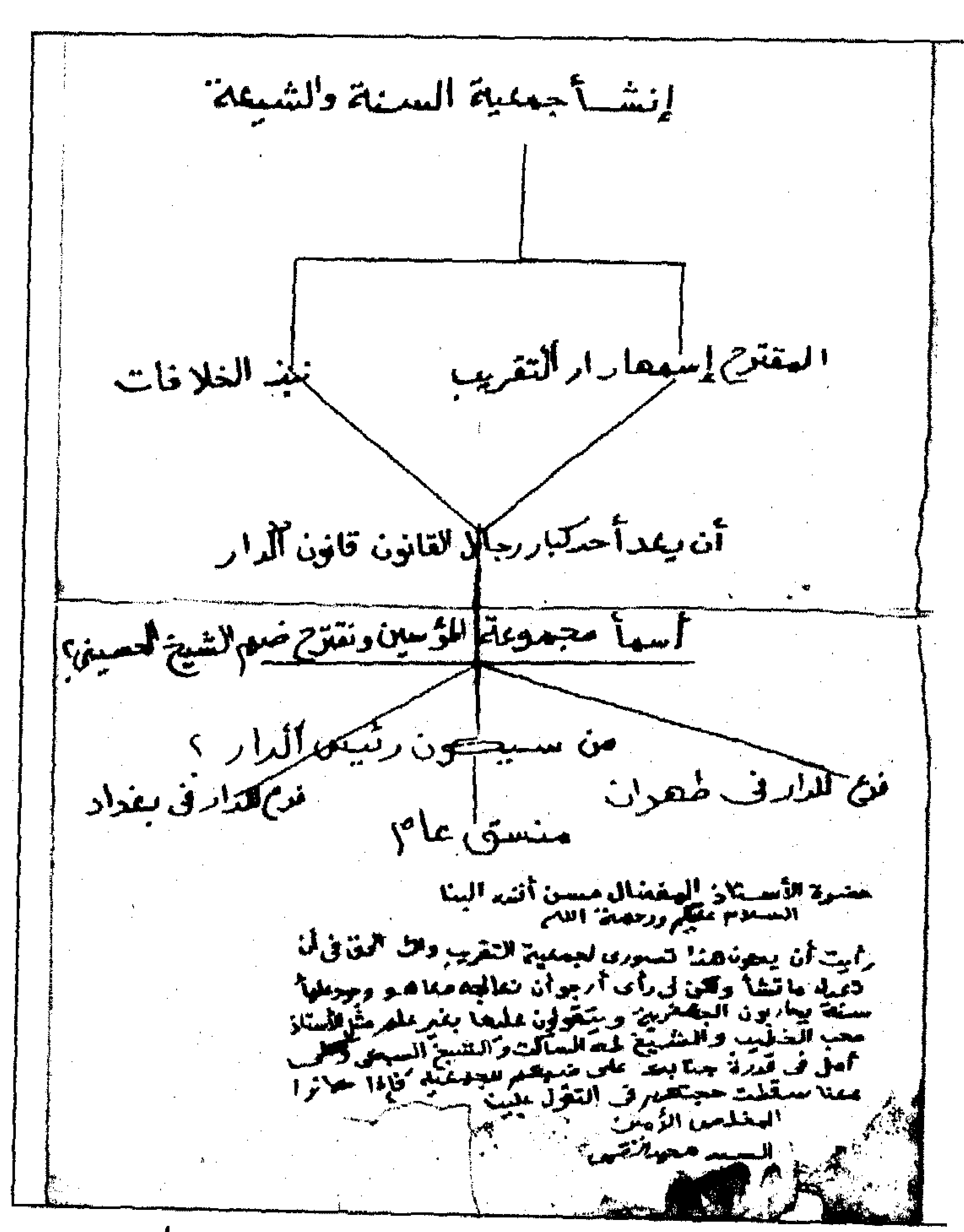
تتحرك عصا العم سام السحرية، فإذا بجيوش تشتبك مع جيوش، وجيوش تتحرك صوب دول لتحتلها، وعروش تسقط، وعمائم سوداء تجلس بدلًا منها على كرسي الحكم، ثم إذا بهذه العمائم تهوي بمطرقة فوق رءوس الجلابيب البيضاء، والجلابيب تريد أن تتقي خطر العمائم السوداء، فتصب للعم سام النفط في أنبوب ضخم يتصل بقبعته، لعله يحول بينها وبين المطرقة التي تهوي على رءوسها، وبالقرب منها طرابيش تشتبك مع عمائم أزهرية، وأفندية يشتبكون مع أصحاب الغترة والعقال، وأصحاب لحى خفيفة يشتبكون مع الجميع، ويتوددون إلى أصحاب العمائم السوداء وأصحاب لحى كثيفة غاضبون من الجميع، ثم ثورات تقوم، وجماهير تصيح، وأصحاب اللحى الخفيفة يركبون على ظهورهم، ليصلوا إلى كرسي الحكم، وأصحاب اللحى الكثيفة تدفع أصحاب اللحى الخفيفة للأمام، فإذا وصلوا واستقروا على الكرسي أو هُيئ لهم الاستقرار قاموا برفس الجماهير التي أوصلتهم، وأصحاب اللحى الكثيفة التي ساندتهم، ويشتبك الجميع مع الجميع.

وحال ذلك يظهر في الصورة صاحب اللحية الخفيفة المنمقة وله أكثر من يد، باليد الأولى يقطع بلدًا سمراء بسكين كبير فتنقسم البلد بلدين، ويمسك بيده الأخرى سيفًا على وشك أن يهوي به على بلد آخر ليقسمها، ويمسك

بيـد ثالثة رقاب بعض الأفنديـة ليخنقهم، ويحمل قنبلـة في اليد الرابعة يلقي بها فوق الكنائس، ويرفع يده الخامسة ليعانق بها اليد الثانية لصاحب العمامة السـوداء، والكل ينظر وقتئذ – للأمام تجاه العم سـام وأسده القابع بجواره، يرجون منه إسـباغ حمايته عليهم، لا ينظرون وراء ظهورهـم لبعض لصوص يرتـدون أقنعة سـوداء على عيونهم، وهم يعبئـون الذهب في أجولة يضعونها في سـفن وطائـرات متجهـة صوب العـم سـام، وفي جانب من هذا المشـهد حاخام يجلس هادئًا على قبة المسـجد الأقصى، فتنحني القبة من ثقله، ويقف أسفل القبة بعض رجال يحملون دبابيس صغيرة يحاولون بها إزاحة «مؤخرة الحاخام» المتربعة فوق القبة، ولكن الحاخام لا يشعر بشيء، بل تند عنه ابتسامة خفيفة، وتسـتمر عصا العم سـام في إخراج الشرر السحري، فيستمر الجميع في ذات الحركة، وفي الحركة بركة، للعم سام والحاخام والأسد العجوز.

وفجـأة وعلى غـير المتوقع تهب جمـوع مـن الأفندية والفلاحـين والعمال ثائـرة فتركل صاحب اللحيـة الخفيفة فيقع متوجعًا من فـوق كرسي الحكم، ويضطرب العم سام ويفقد اتزانه فتقع العصا السحرية من يده ويرفع الأسد العجوز رأسـه منتبهًا ثم سرعان ما يتثاءب ويعود إلى هدوئه وركونه، إلا أن بعـض الفئران تندفـع من خلف العم سـام متوجهة صوب شـعب الأفندية والعمال والفلاحين، ولكنه شعب تعود على اصطياد الفئران.

الوثـــائـــق



إنشاء جمعية السنة والشيعة

المقترح إسم دار التقريب

نبذ الخلافات

أن يعد أحد كبار رجال القانون قانون الدار

أسماء مجموعة المؤسسين ونقترح ضم الشيخ الحسين؟

من سيكون رئيس الدار ؟

فرع للدار في طهران

فرع الدار في بغداد

منسق عام؟

حضرة الأستاذ المفضال حسن أفندي البنا

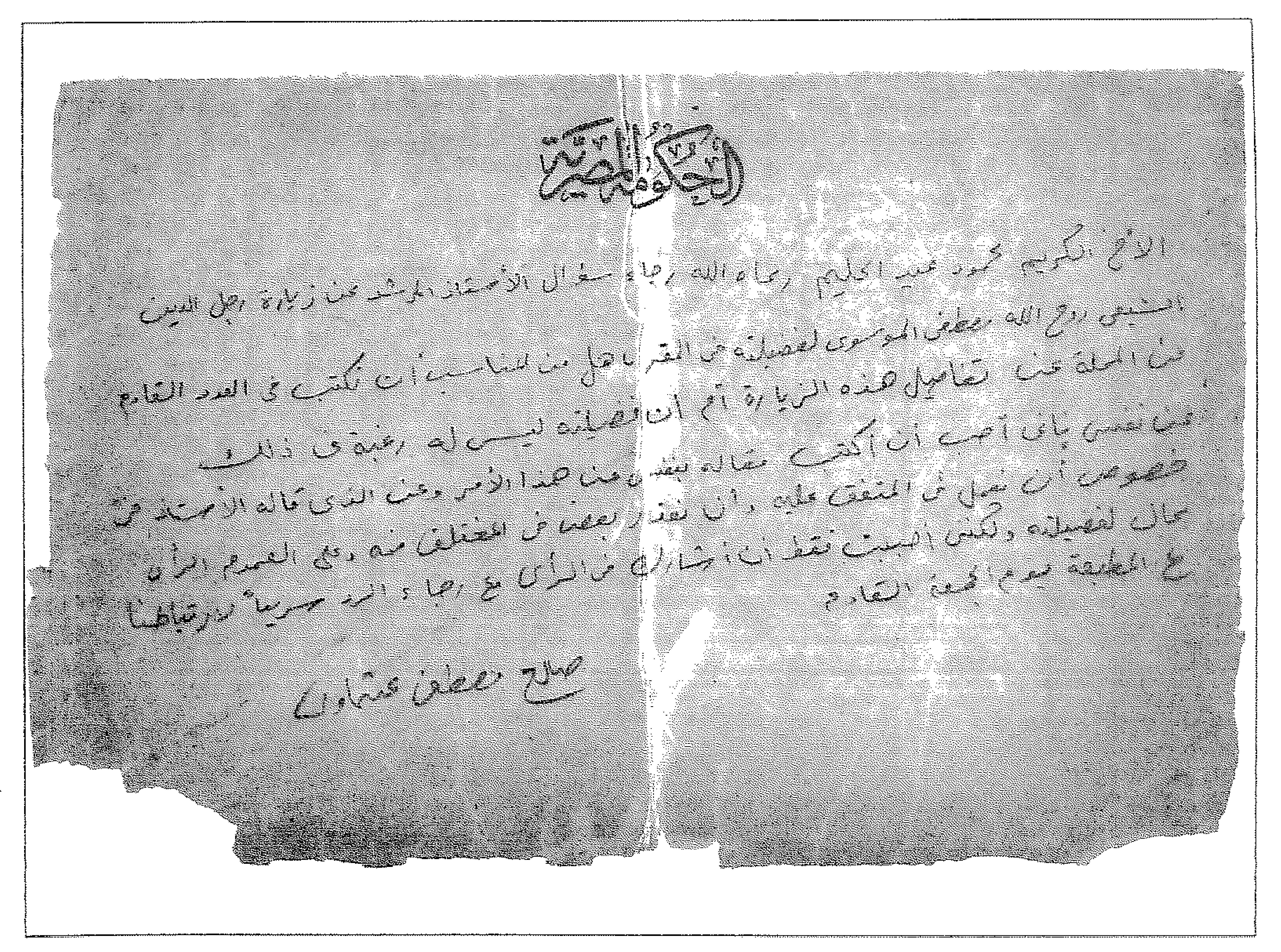
السلام عليكم ورحمة الله

رأيت أن يكون هذا تصوري لجمعية التقريب ولك الحق في أن [illegible] ما تشاء ولكن لي رأي أرجو أن تعالجه معاً هو وجود [illegible] سنة يحاربون الجعفرية ويتقولون عليها بغير علم مثل الأستاذ محب الخطيب والشيخ [illegible] المالكي والشيخ السبكي [illegible] أمل في قدرة [illegible] على [illegible] فإذا [illegible] معنا سقطت حجتكم في التقول علينا

المخلص الأمين

السيد محمد القمي

وثيقة إنشاء جمعية السُّنة والشيعة بتوقيع السيد محمد القُمي مُرسلة لحسن البنا..



الحكومة المصرية

الأخ الكريم محمود عبد الحليم رعاه الله رجاء سؤال الأستاذ المرشد عن زيارة رجل الدين
الشيعي روح الله مصطفى الموسوي لفضيلته في المقر وهل من المناسب أن نكتب في العدد القادم
من المجلة عن تفاصيل هذه الزيارة أم أن فضيلته ليس له رغبة في ذلك
من نفسي بأني أحب أن أكتب مقالة بنفسي عن هذا الأمر وعن الذي قاله الأستاذ من
خصوص أن نعمل في المتفق عليه وأن نعذر بعضنا في المختلف فيه ومع التعميم الذي
حال لفضيلته ولكني السبت نقطة انتشار الرأي مع رجاء الرد سريعاً لارتباطنا
مع المطبعة بعدد الجمعة القادم

صالح مصطفى عشماوي

خطاب مُرسل من صالح عشماوي رئيس تحرير مجلة الإخوان المسلمين؛ لنشر خبر زيارة الخميني لحسن البنا..

الفهرس

أحدث إصدارات

الأستاذ

ثروت الخرباوي

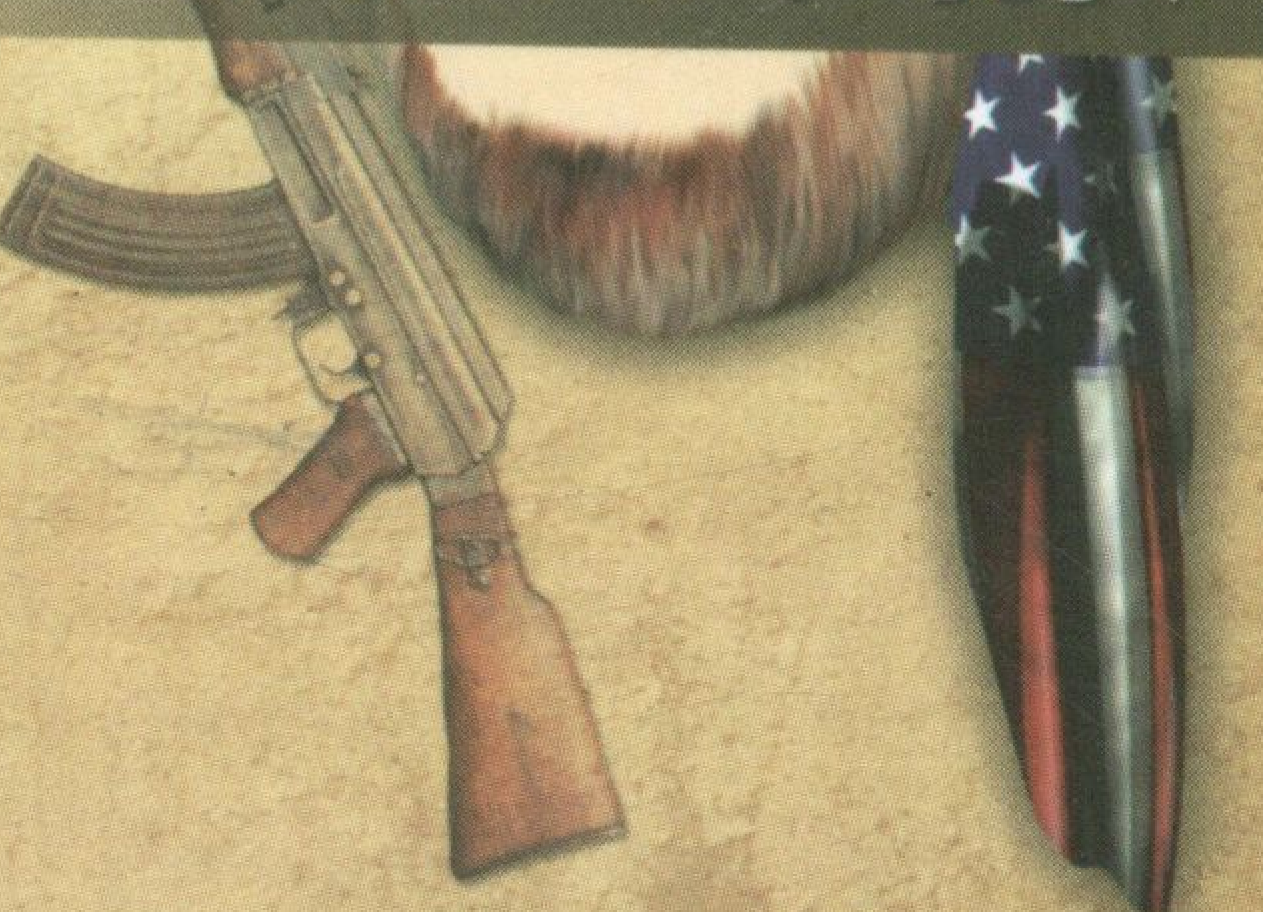
- سر المعبد .. الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين.
- قلب الإخوان.
- زمكان .. «رواية».
- أئمة الشر .. الإخوان والشيعة أمة تلعب في الخفاء.





أئمة الشر

الإخوان والشيعة أمة تلعب في الخفاء



واهمٌ من يظن تلقائية الأفعال الغربية في منطقتنا وبلادنا...فبحكم التاريخ والجغرافيا مازال الغرب يعتنق ليومنا هذا ثقافة الاحتلال، الذي تتغير صوره وتتطور دون أن يتغير الهدف منه؛ لتظل السيطرة على مقدرات شعوبنا غاية لا تنازل عنها في فكر هذا الآخر الغربي. قد يرسل القوات العسكرية للأرض فيشعلها حربًا، وقد يتحكم في حركة الاقتصاد ضاغطًا على كل مقاومة، ويبقى أخطر أشكال الاحتلال متجسدًا في عمالة أبناء الوطن الواحد ، عن خيانة أو جهالة لا يهم، فيصبح هؤلاء المتآمرون على مصالحنا تجسيدًا لا ريب فيه لأئمة الشر مهما تنوعت ملامحهم.

في هذا الكتاب يكشف لنا الكاتب ثروت الخرباوي خط
الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية لتقسيم بلادنا و
الطائفية ونيرانها عبر دعم الشيعة في إيران-على غير المت
الإخوان منذ عقود طويلة؛ لتكتشف عبر صفحات الكتاب وم
اليوم من أحداث لم يأت مصادفة ولكن بمؤامرة.





